لنفتح نوافذنا للشمس

رئيس التحرير

في الماضي كان العالم واسعاً شاسعاً ، غربه لا يعرف شرقه ، وشماله منفصل عن جنوبه ، بل كانت فيه قارات ومحيطات ما تزال غارقة في عتمة الضياع والنسيان ، لم يهتد الى طريقها الانسان ...

كان ابن بطوطة اذا ما أراد أن يقصد الصين أمضى الشهور والسنين وابن فضلان اذا ما اراد استكشاف الشمال اعتبر نفسه قد اجترح المعجزات فالعالم كبير ، البلدة فيه مملكة والمدينة دولة ولا عجب فوسيلة الاتصال اذ ذاك لم تكن سوى الفرس والناقة واية امداء يا ترى يمكن أن تصلها الفرس والناقة ؟

مع الثورة الصناعية في اواخر القرن الثامن عشر بدا يتغير المنظور، حين راح القطار يطوي المسافات الشاسعة ، ثم جاء مورس باشاراته البرقية وغراهام بيل بهاتفه ، ثم ظهرت السيارة فالطيارة .. واخيراً الاقمار الصناعية التي الفت المسافات واختزلت العالم الى قرية صغيرة، متوجة بذلك ثورة هي من اعظم الثورات التي صنعها الانسان في تاريخ تطوره الحضاري : ثورة الاتصالات .

ولئن كانت اهداف هذه الثورة هي خدمة الانسان في تقريب بعيده وتوفير راحته وقضاء مصالحه اقتصادياً واجتماعياً ، فان اهم اهدافها ولا شك هي خدمته ثقافياً وفكرياً .

إن النِعَم التي يعيشها انسان القرن العشرين نتيجة هذه الثورة لاكثر من ان تحصى : فانت يمكنك الاستماع لسمفونية من سمفونيات بتهوفن تبثها اذاعة اوروبية او تشاهد برنامجاً ممتعاً يبثه تلفاز القاهرة كما يمكنك ان تخاطب صديقك في استراليا او تقرا جريدة صدرت قبل ساعات في لندن وتستمتع برواية طبعت قبل يوم واحد فقط في نيويورك، ترى اليس هذا عصر الاحلام ؟

قديماً ، كان يحلم الانسان وكان يصنع بخياله بساط ريح ومرآة سحرية وخاتم علاء الدين و . . . و . . . ثم جاء العلم ليحقق له اعظم تلك الاحلام واشدها غرابة وليجعله سيد الكون بلا منازع . ذلك كله انعكس تواصلا بين الامم وتقاربا بين المجتمعات . إنها الثورة التي اقامت الجسور وردمت الهوى وصنعت اللحمة فمهدت للتكتلات الكبيرة والتجمعات الواسعة متجاوزة التفتت والتشرذم .

السؤال الآن : اين نحن من ذلك ؟ ماذا افدنا من ثورة الاتصالات ؟ ماذا حققت لنا ، كمجتمع عربي واحد ، قفزات التكنولوجيا العظيمة وانجازات العلم الرائعة ؟ هل ازداد التواصل ــ الثقافي على الاقل ــ بين العربي والعربي ؟ هل اشتدت اللحمة وترسخت الأواصر ؟ هل .. وهل .. وهل .. الأسئلة كثيرة لكن الجواب دائماً بالنفي . فرغم ثورة الاتصالات نرى التواصل في انتكاس وارتكاس : جسور مقطوعة وهوى واسعة وحواجز عالية تفصل بين الأخ واخيه والجار وجاره حتى لتكاد تخنقهما كليهما ..

في الماضي ، حين كانت وسيلة الاتصال الوحيدة هي الفرس والناقة ، كان الوطن العربي كله ساحة ثقافية واحدة وكان التواصل الثقافي كاملا متكاملا فكيف ينقسم هذا الوطن الآن الى ساحات ويقوم العزل الثقافي فيه وينتكس التواصل وهناك ثورة اتصالات ؟

المفارقة شديدة الهول بيد ان أشد ما فيها هولا انها تدل على اننا نسبح عكس التيار . العالم كله يسير نحو التكتل والتوحد فلماذا نفعل نحن العكس ؟ لماذا يمنع الكتاب العربي من دخول بلد عربي ؟ لماذا تحظر المجلة ؟ لماذا تغلق الأبواب في وجه الصحيفة والتلفاز ؟

العالم كله بات بلدا واحدا ، فكيف يكون وطننا العربي ــ ثقافيا على الاقل ــ غير ذلك ؟ انساننا العربي بحاجة للتواصل الثقافي فلنحقق هذا التواصل ، مجتمعاتنا العربية بحاجة للجسور فلنقم هذه الجسور ...

ولنفتح نوافذنا للشمس فليس من شيء قاتل للانسان ــ فردا او مجتمعا ــ كالعزلة ، وما من وسط يصلح لان تعشش فيه عناكب الجهل كالظلمة .

* * *

الدراسات والبحوث

الدراسات والبحوث

دور سورية في تاريخ الحضارة

الياس طعمة

ترك الانسان القديم في حواضر الارض السورية ، بابل نينوى ، ماري ، ايبلا ، دمشق ، اوغاريت ، جبيل ، صيدون ، قصور ماري ، وفي غيرها من الحواضر ، ترك لنا عن مراحل حياته الحضارية ، في المعتقدات والعلوم والفلسفة والآداب والعمران ، فكراً غنياً وفعالا ، كان له اثر كبير في تاريخ الحضارة الانسانية وتاريخ الفكر الديني .

وقد تميزت فترة الالف سنة التي سبقت المسيح من عمر الحضارة السورية ، بتبادل التجارب ومنجزات الفكر بين المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية ، وتوارث هذه التجارب والأفكار ، وتطويرها ، من عصر الى عصر . مما ولد حضارة مزدهرة عمت شعوب حوض المتوسط القديمة فرفدتهم بعلومها وآدابها وابداعاتها الفنية .

صحيح أن الكنعانين انتشروا في جزر المتوسط وفي حوضه بغاية تجارية ، ولكن العلاقات التجارية ككل تفاعل اجتماعي ، تركت اثراً حضارياً واضحاً في الشعوب التي احتكوا بها أو اقاموا في ما بينها . فقد كانت مراكب الكنعانيين تنقل الكثير من السلع المادية . كانت تنقل افكارا وقيما فلسفية ومسائل علمية على غاية من الاهمية من حيث تقدم البشرية ورقيها .

والواقع أن ينابيع الحضارة المتدفقة مع خطوط التجارة من مراكز الانطلاق اوغاريت ، جبيل ، صيدون وصور وغيرهما من منائر الشرق، ومن المستعمرات التي انشأها الكنعانيون في المغرب . قرطاجة ومرسيليا قادش كريت وغيرها ، اخذت تشق طرق اتجاهها في الغرب المتوسطي منذ الالف الثاني ق.م ، فتتوزع على المدن اليونانية وتتغلغل في اماكن متفرقة من أوربا الغربية . وقد لعبت دورا مهماً واساسياً في تكوين وتطوير حضارة البحر الابيض المتوسط ، أو بالاحرى مجموعة مدنيات هذا البحر . وبذلك وجدت المنجزات الحضارية العظيمة التي قام بها الانسان القديم في الشرق المتوسطي سبيلها الى شعوب البحر المتوسط ، واصبحت نواة للحضارة الكلاسيكية التي نشأت في بلاد اليونان . فقديما قال استرابو (٥٨ — ٢٥ ق.م) ان الفضل في معارفنا عائد الى الفينيقيين الكنعانيين(١) وحديثا يقول فيكتور بيرار(٢) في مقدمة كتابه « الفينيقيون والاوديسا : لقد حل الفينيقيون (كنعانيو الساحل السوري) المكان الاول في المتوسط قبل العصر الهليني ويرقى اثارهم الى الالف الرابعة قبل الميلاد . وقد اصبحوا اسياداً دون منازع في الالف الثالثة . ومن الصعب أن نفهم شيئاً من عادات اليونانيين وصناعاتهم وعلومهم ولغتهم ومعتقداتهم ونظرياتهم الفكرية والفلسفية أو حتى الاناشيد الهوميرية أيضاً ، الا اذا فهمنا

(1) The Feography of strabo, Franslated by H. L. Jones, London 1966

(2) Victor Berard, les pheniciens et l'odyssée Paris 1902.

دور هؤلاء المعلمين (الكنعانيين) وتعاليمهم في الحقول جميعا »(١) . ويضيف بيرار « لقد كان الفينيقيون لليونان ما كان اليونانيون بدورهم للرومان ؛ ما كان الرومان للغرب . والغربيون أخيراً للانسانية جمعاء » .

ويؤكد بيرار على الدور الذي قام به « هؤلاء المعلمون » في حملهم انتاجهم الحضاري الأول – خميرة الحضارة العالمية ، بقوله « عندما بدأ اليونانيون يتلمسون المعارف العلمية والمعتقدات الدينية الاسيوية (السورية) كان قد تجمع في منائر الشرق ، بعد ثلاثين قرناً من التطور ، تراث عظيم في الآداب والمعتقدات . وكانت العلوم قد توصلت الى انجازات ضخمة في حقول الحساب والهندسة والفلك والطب والكيمياء ، بينما لم يكن لدى اليونانيين قبل ذلك اية افكار دينية او علمية خاصة بهم . وهكذا حصدوا دفعة واحدة ومن دون جهد ثمار ثلاثة الاف سنة من الحضارة .

فبيرار ، في دعيه حقيقة التطور الحضاري ، خلص الى نتيجة مفادها أن الذين ينظرون الى الظاهرة الحضارية اليونانية على انها انبجاس مفاجىء لطاقات بشرية محلية مخطئون في تفكيرهم سادجون في احكامهم . فليس في الوجود الحضاري للانسان ملمح واحد او خط واحد لا يرتد الى اصل قديم نشأ النشأة الهادئة البطيئة وتطور التطور العميق من خلال التجربة الحضارية المستمرة المتصلة حقبا وآمادا من الدهر طويلة .

وبيرار في دعيه هذه الحقيقة ادرك ان اليونانيين لم يشيدوا صرح الحضارة ، أو قل لم ينشئوا الحضارة انشاء ، لان ما ورثوه منها اكثر مما ابتدعوه .. كانوا الوارث المدلل المتلاف لذخيرة من الأفكار والفنون والعلوم ، والآداب مضى عليها اكثر من ثلاثة آلاف سنة ، وجاءت الى مدنهم مع قوافل التجار او بغيرها من وسائل الاتصال .

واندريه بارو (٢) ، كبيرار يؤكد على دور الكنعانيين في حمل ميراث سوريا الحضاري العريق الى الشعوب الاوربية ، بقوله « يوم كانت اوربا ما تزال تعاني آلام معرفة الاصول المجردة للحياة الاجتماعية والفنية والسياسية ؛ كان الشرق الادنى قد تجاوز ، منذ زمن طويل ، عتبة المدنية ، وقطع انسانه مراحل

(١) فاوربا والغرب بشكل عام مرتبطان بالشرق المتوسطي حضاريا ارتباط الابناء بالإباء . قد يختلف الابن بصفاته وبروحه عن الاب ولكن لا بد للابن من ان يحتفظ بالكثير من صفات الاب .

(2) F. Paerot and other. les phéniciens, ear thage 1975.

عديدة حقق فيها تقدما وطيدا على طريق الحضارة » . ويضيف بارو « ومن يستطيع ان ينكر ان المعرفة جاءت من هذا الشرق ؟ .

والحقيقة أن ما عرفه اليونانيون من علوم رياضية وفلكية في العهود الاولى من تاريخهم ، نجد أصوله اليوم في الاكتشافات المدنية الحديثة في بعض المواقع الاثرية السورية التي كانت منائر حضارية في العصور القديمة ، انتشرت فيها الملاحم الميثولوجية والافكار العلمية والمعتقدات الدينيـة . وتدل الدراسات الحديثة دلالة تزداد وضوحاً يوماً بعد يوم ، على « أن الحضارة اليونانية رغم اصالتها في جملتها تدين بالكثير من افكارها لشعوب بلاد النهرين » كما يقول المؤرخ ساباتينـاو موسكاتي(١) .

ويرى المؤرخ غوردون تشايلد ان الكنعانيين ، في انتشارهم التجاري : كانوا ينشرون في العالم القديم معطياتهم الفكرية والدينية والعلمية واللغوية . ويرى ان حضارة اوربا الاولى لم تكن لمدة طويلة غير انعكاس ضئيل لحضارة الشرق المتوسط القديم(٢) .

اما المفكر الالماني ف . موفرز (اواسط القرن التاسع عشر) فقد وضع كتابا عن الفينيقيين يدور في مجمله حول تأكيد نظرية الاصل الفينيقي للحضارة اليونانيـة (٣) .

كان الساحل الكنعاني مركزا للالتقاء بين الشعوب والتفاعل بين الحضارات فيه التقت التيارات الفكرية المختلفة وتطورت الابداعات الصناعية التي حققتها شعوب الشرق المتوسطي . وقد حول الكنعانيون ساحلهم من مركز التقاء بين الشعوب وتفاعل بين الحضـارات الى مركز للاشـعاع الفكري والحضاري . فانتشارهم في البحر المتوسط كتجار ومؤسسين لمدن ومرافىء مختلفة . جعل من البحر اداة الاتصال عوضـا عن أن يكون حاجز انفصال ، مما يسر عمليتي العطاء والاقتباس . وانطلاقهم من اختمار حضاري طويل ادى الى انتشار لغتهم ومعتقداتهم وعلومهم وآدابهم بين الجماعات والشعوب التي احتكوا بهـا واندمجوا في مجتمعاتها .

---

(1) Sabatines Moseati. Pheient Senitie civilisation, London 1957.

(2) Gordon Childe, New light on the Most Ancient Eust, London 1952.

(3) F. C. Movers, Die phoénizier. برلين ١٨٤١

لم يكن لهم العدد الذي يمكنهم في تلك العصور السحيقة من شغل كل ارض عرفوها ونزلوها . فكانوا معمرين ؛ ولم يكونوا مستعمرين ، وكان تعميمهم للمعارف والآداب التي ابدعوها او اقتبسوها بمثابة بث النور في مرحلة العمسة التي كانت تعيشها المجموعات البشرية الخارجية حديثاً من الحياة البدائية ، او العناصر المتحررة من الشمال البارد للاستقرار في جزر المتوسط وعلى شواطئه .

والكنعانيون يلخصون في ما قدموه الى اليونان ميراثا حضاريا ضخما لشعوب الشرق المتوسطي التي اعطت البشرية في مضمار الحضارة ، خير ما يعطى من تشريع ومعتقدات وعلوم وفنون وآداب ارست اسس الحضارة في العالم القديم . « وكان لها اثرها الباهر في تكوين وارتقاء الحضارة الغربية »(١) كما يقول المؤرخ بريد ورد .

يؤكد ذلك المؤرخ رالف كنتون بقوله : لقد اثرت مدنية بلاد النهرين على المدنية الاوربية اكثر من اي مركز آخر من مراكز المدنيات المبكرة . وقد بدانا منذ وقت قريب نـدرك مدى الدين الكبير الذي تدين بـه الحضارة الاغريقية القديمة لهذه المنطقة كما ان دين الحضارة الهلينستية اكثر واعظم لان النظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي تضمنتها هذه الحضارات قد اخذت مباشرة من هذه المنطقة ، ثم انتقلت هذه النظم عن طريق الحضارة الهلينستية الى الامبراطورية الرومانية ومنها الى غرب اوربا (٢) .

واذا كان المؤرخ برستد قد اجمل هـذا الاثر بقوله في حوض المتوسط الشرقي تطورت الحضارة التي ورثتها الآن شعوب اوربة وبالتالي اميركا (٢) ، فان علماء اليونانيات يفصلون القول في هذا الاثر ، واهميته ومداه في مختلف النواحي . فبولسن مثلا فصّل في مؤلفه « الشرق والفن اليوناني القديم » (٣) كل الحقائق الاركيولوجية التي توفرت في عصره عن الفن الفينيقي في التعدين والنحت . ودوروبفلد(٤) في كتابه « اولمبيا القديمة » يرجع الكثير من جوانب الفن

(1) Lintor, troce of culture, N. - Y. 1955.

(2) J. Breosted, the conquest of civilization, N - Y. 1938. برلين ١٩١٢

(3) F. Poulsen, Der oriant und die Fruehgriesehisohe Kunst.

(4) L. Droep Feld, Alt olympia, برلين ١٩٣٥

الهندسي اليوناني الى أصول فينيقية نشرها الفينيقيون الذين قطنوا اليونان في اواخر الالف الثاني ق.م .

والواقع ان مراجعة مختصرة وسريعة لتاريخ العلاقات القديمة بين سوريا وبين اليونان تكفي لاثارة جوانب كثيرة من وجود التأثير الحضاري السوري على اليونان .

يضاف الى ذلك ان الاكتشافات الاثرية في القرنين الاخيرين مكنتنا من تقصي العلاقات المختلفة التي قامت بين سوريا وبين اليونان في عصور ما قبل التاريخ (١) . فقد كشفت التنقيبات مثلا في اوغاريت والالاخ وفي غيرهما من مدن الساحل السوري عن قبور دلت على وجود جاليات يونانية انتشرت على طول الساحل الكنعاني واستوطنت بعض حواضره في تلك القرون الخالية قبل ان تتبلور الحضارة اليونانية بما يقرب من الفي سنة ، ومن الطبيعي أن اختلاط الشعوب يؤدي الى تبادل الافكار والى تيسير عملية العطاء والاقتباس .

وفي بحثنا عن الاصول الكنعانية في الحضارة اليونانية نقف اولا على ذكر الفينيقيين (الكنعانيين) في الادب اليوناني القديم منذ بدأ اليونانيون تدوين هذا الادب حوالي منتصف القرن الثامن ق.م . فقد اتى على ذكرهم كل من هوميروس وهزيود وهيرودتس وثوسيديدس ويوريبيدس وافلاطون وارسطاطاليس وفرجيل وغيرهم كثيرون . ومن مجمل ما ورد عنهم يحس الانسان بالدور الهام الذي لعبوه في الحضارة اليونانية . وقبل الالمام بما اورده اولئك الشعراء والكتاب والفلاسفة الكلاسيكيون تجدر الاشارة الى اسطورة قدموس التي تعبر عن نزوع الكنعاني العبقري الجامح لاستكشاف الابعاد وفض اسرار المجهول . وعن العلاقات التجارية والحضارية التي كانت قائمة بين الكنعانيين وبين اليونانيين .

كانت اوربا ابنة اغنور ملك صور رائعة الحسن فائقة الجمال . ذات يوم – تقول الاسطورة – خطف ذوس (كبير آلهة اليونان) اوربا من بين احضان اهلها في صور فأرسل اغنور ابنه تدم كي يفتش عنها .

سعى تدم الى بلاد اليونان ، فاسس مدينة « تدميا » (نسبة اليه) ثم مدينة « طيبة » . وعلم اليونانيين استعمال الحروف الهجائية ، كما يقول هيرودوتس . (حوالي ٤٨٠ – ٤٢٥ ق.م) .

(1) A. Schoefer, Ugaristica, باريس ١٩٣٩ جزء ١

ان ما تعرضه هذه الاسطورة يمثل حقائق لبست ثوب الاساطير . ويبدو أن كنعانيي الساحل السوري نسجوا هذه الاسطورة ، او بالاحرى ابتكروا هذه الحجة الذكية لاخفاء اهدافهم في الهجرة الى مناطق البحر المتوسط المختلفة لاستثمار مواردها المعدنية ، خاصة الذهب ، وانشاء المستعمرات كمراكز لتجارتهم الواسعة . وقد يكون بعض القراصنة الكريتيين الذين كانوا يغيرون بين الحين والآخر على شواطىء صور قد خطفوها فعلا . وربما كان اولاد اغنور الذين خرجوا يبحثون عن اختهم المخطوفة (كما تقول الاسطورة) زعماء صوريين هاجروا على رأس جماعات كنعانية للاتجار او استثمار المعادن .

نعود الى الشعراء والكتاب والفلاسفة الكلاسيكيين الذين ذكروا الكنعانيين في مؤلفاتهم . هوميروس مثلا يخلع عليهم في اماكن متفرقة من شعره الصفات الحميدة ، ويقف منهم كبحارة وتجار وصناع ماهرين ، بكل احترام وتقدير . يقول في الالياذة ان الملك كينارس ارسل الى اجاممنون ، وهو في طريقه لمحاصرة طروادة ، درعا صوريا مطليا المنياء . وفي مكان آخر يقول ان الجوائز التي قدمها بطل اليونان آخيل الى محاربيه كانت كؤوسا فضية ابدعها مهرة الصناع الصيدونيين . وجاء في الاوديسا ان منلاوس اقام عند فاديميوس ملك صيدون ، فاهداه الملك كاسا فضية . ويبدو ان ملوك اليونان وابطالها كانوا يتبادلون مصنوعات الكنعانيين . يقول هوميروس في الإلياذة ان ام هكتور بطل طروادة تباهت في احدى المناسبات المهمة بثوب مطرز من صنع الصيدونيات جلبه لها ابنها باريس بطوافه في البحر المتوسط بعد خطفه هيلانة .

ويتحدث فرجيل في النشيدين الثاني والثالث من الإينادة عن حضارة القرطاجيين العظيمة .

ولعل اعظم ما قدمه الكنعانيون الى اوروبا ابجديتهم الصوتية الهجائية التي غدت اساسا لجميع ابجديات العالم . قال هيردوتس ابن الفنيقيين (الكنعانيين) الذين صحبوا قدموس نقلوا الى بلاد الاغريق كثيرا من علومهم : وفي جملتها هذه الحروف . وفي معتقدي انه لم يكن لنا بها علم من قبل ، فسلكنا في استخدامها بادىء ذي بدء سبيل الفينيقيين . ثم تبدلت حالها على كرور الايام وتطور اللغة ، وتغيرت صورها . ولما كان اليونان منبثين في البلاد المجاورة فقد اتخذ المجاورون ايضا هذه الحروف التي لقنته اياها

الفينيقيون غير انهم ادخلوا عليها بعض التعديل . ولهذا سميناها الحروف الفينيقية ، وهو من الصواب والانصاف لان الفينيقيين نقلوها الى اليونان » . ثم يضيف هيرودتس « لقد رايت بعيني في هيكل ابولون بمدينة ثيبا (طيبة) نقشا بحروف جماعة قدموس ، وهي مماثلة كل المماثلة للحروف اليونانية .

وحديثا يقول المؤرخ ارنولد توينبي « ان السوريين اكتشفوا المحيطين الاطلسي والهندي . وكانوا قد ابدعوا الابجدية في الالف الثاني ق.م .

ويقول المؤرخ آبل ري(١) « ان الشعب الفينيقي هو الذي رفع أداة العلوم كلها في مضمار التقدم . عنيت بها الكتابة ، فهو الذي اكتشف الحروف الابجدية ونشرها في العالم القديم » .

والراجح ان اليونانيين اقتبسوا الابجدية الكنعانية في فترة مابين القرنين العاشر والثامن ق.م . ثم نقلوها بدورهم الى مختلف الشعوب الاوربية . والظاهر من شواهد الاقتباس :

١ ــ التشابه في اسماء الحروف في اللغتين .

٢ ــ محافظة اليونانيين على ترتيب الحروف الكنعانية . والاحرف التي اوردوها في ابجديتهم عن الاصل الكنعاني (ذي الاثنين والعشرين حرفا) رتبت بعد الحرف الاخير (ت ــ T) من الابجدية الكنعانية . يضاف الى ذلك انهم لم يسقطوا اي حرف من الكنعانية ، من ذلك مثلا انهم ابقوا من الكنعانية على حرف لا حاجة لهم به هو (القاف) الذي تلفظوا به « كافا » (بفعل عوامل البيئة واللسان) . وبذلك صار في لغتهم شكلان للكاف g ، K الاول في مستهل كلمن klmn والثاني في مستهل قرشت grst كما هو الترتيب في الكنعانية .

٣ ــ التشابه في اشكال الحروف في اللغتين (بعلبكي ٢ ــ ٢) .

٤ ــ كان اتجاه الكتابة في النقوش اليونانية الاولى من اليمين الى اليسار كما هو الامر في اتجاه الكتابة الكنعانية .

٥ ــ ان المصادر اليونانية القديمة (هيردتس مثلا القرن الخامس ق.م) تطلق على الحروف اليونانية ، اسم الحروف الفينيقية .

المهم ان تلقين الكنعانيين الحروف الابجدية الى اليونانيين الذين نشروها

(1) Abel Rey, la science orientale avant les Grecs, Paris 1930.

بدورهم في اوربا ، هو اعظم اثر حضاري تركه الكنعانيون ، لا في المتوسط فحسب بل في العالم اجمع .

من مفاخر اليونانيين ان بلادهم كانت مهد الحضارة . واذا استثنيت مؤرخيهم وجدتهم يشيدون بذكر الكنعانيين ، ما كان لهم قبل الاغريق من سعة في العلوم والفنون والصناعات وصدق نظر في الفلسفة وسائر المجالات الفكرية . قال سترابو « اما الصيدونيون فان اخبار الايام تصفهم بأنهم ارباب الصناعات والفنون والفلسفة والعلوم . وقد ارتقوا فوق المحسوسات الى ذروة العلوم العددية والفلكية » . واضاف « يجب الاقرار بأن اليونان تلقوا في ما سلف عن الفينيقيين معارفهم في الفلك والرياضيات . ونرى في عصرنا الحاضر (القرن الاول ق.م) ان كل منا اراد المزيد من العلوم على اختلاف اصنافها فعند صور (صيدون) حيث العلوم اغزر مددا واصفى موردا من سائر الحواضر » .

وقال سترابو « ان مسألة الجوهر الفرد Théorie Atomistique يرجع الفضل في وضعها الى الفيلسوف الصيدوني مورشو Morchus وهو ممن توسطوا باحة العلم قبل حرب طروادة » .

واضاف « ولا حاجة بنا الى استخبار الايام الخوالي ، ففي زماننا هذا اشتهر من اهل صيدون عدد نبيل من افاضل العلماء نذكر منهم بابثوس Bathus زميلي الذي كنت واياه نتلقى معا فلسفة ارسطوطاليس » .

وكثيرا ما كان سترابو يبدي اعجابه بفلاسفة عصره الصيدونيين والصوريين فيذكر مثلا بعض من عرفهم من فلاسفة صور بقوله « ومنهم انثيباتر (فيلسوف رواقي من صور) وابولونيوس كبيرنا الذي لخص مذاهب الفلاسفة واصحاب زينون وفهرس مصنفاتهم » .

وقد اوضح الكتاب الكلاسيكيون وعلماء اليونانيات اهمية الاثر الكنعاني ومداه في التراث اليوناني . فاسترابو مثلا يرى ان الفينيقيين هم الذين اوحوا لهوميروس بوقائع الاوديسة . وفكتور بيرار وضع (كما ذكرنا من قبل) كتابا ضخما في مجلدين بعنوان « الفينيقيون والاوديسة » (في مستهل القرن العشرين ١٩٠٢) قال فيه : في اوصاف عدد من الاماكن الواردة في الالياذة تنطبق على اوصاف الشاطىء السوري . وان معظم الاسماء الواردة في الالياذة ، والذي ليس له اصل يوناني او لاتيني ، هو من اصل سامي (كنعاني) ، خذ مثلا سلاميس (سلام) ، ساموس (شمس) ، قدميا (قمرينا) وقادش ، كريت ، وعشرات غيرها .

ويرى بيرار ان اسماء الانسجة والمشروبات المخمرة والعصافير والاسماك والاسلحة الواردة في الإلياذة ، هي من اصل فينيقي (كنعاني) . من المعروف ان الاسم الذي يمهر مكانا او مدينة او يقترن بشيء ما تكمن وراءه قوة حضارية ، تساندها وتضمن بقاءه (١) .

يقول جاك بيرن « ان انساب الالهة اليونانية ، حسب دورها في الالياذة ، هي سومرية بابلية »(٢) . ويضيف بيرن « ان الملحمة الهوميرية ، كافكار اليونان الدينية ، هي مزيج من عناصر يونانية واخرى شرقية . والاوديسة تحمل الكثير من الآثار الشرقية . فنزول ادميس الى الجحيم ليس الا اقتباسا عن ملحمة جلجامش . وعملية سحق اوليس للوحوش البشرية هو مشابه لعراك ماردوك مع الوحوش البشرية التي انجبتها تعامات . ويضيف بيرن « لقد جرى في اليونان وبشكل واسع ، استغلال هذا المنجم الذي يختزن الملاحم البابلية » .

والجدير بالملاحظة في موضوعنا ان عددا كبيرا من الشعراء والفلاسفة والعلماء الاغريق نشأوا في الشرق المتوسطي او سافروا اليه طلبا للعلم . وقد ادهشهم ما وجدوه في الحواضر السورية من مواضيع علمية ومواد فلسفية غنية ولكنها مبعثرة وغير منظمة . فشرعوا في تأليفها وتنظيمها في وحدات علمية فلسفية . لعل اشهرهم طاليس وفيثاغوراس وديموقريطس وافلاطون وغيرهم . وقد تأثروا جميعا بالفكر الميثولوجي الشرقي ، بالعلوم والآداب الشرقية . فطاليس مثلا (ولد حوالي ٦٤٠ ق.م) « من اهل ميليطس ، ولكن آباءه فينيقيون » كما يقول هيرودتس . قام في سني شبابه برحلة طويلة الى الساحل السوري في سبيل تحصيل العلم . كما قام برحلات مماثلة الى مصر وبلاد النهرين . اطلق الفكر الفلسفي في اليونان ، وهو الذي فجر العقلانية في الانسان ، وعلى هدي فكره وفلسفته قام سلطان العقل .

يقول المؤرخ الفيلسوف جاك بيرن « ليس صدفة ان تنشأ في ملاطيا المدرسة الفلسفية الاولى . فقد كانت ملاطيا اعظم مدينة يونانية في عصرها . فيها التقى الشرق بالغرب . وكان الملاطيون على صلات تجارية مع آسيا (المقصود سوريا الطبيعية) ومصر اللتين كانتا قد بلغتا اوج الحضارة . فقد تكونت الافكار الدينية والمعارف العلمية فيهما بتؤدة عبر القرون . وقد نشأ

١ ـ يوسف حوراني . لبنان في قيم تاريخ بيروت .

(2) Jaques Pirenne, Civilisations Antiques, Paris.

الفكر الفلسفي اليوناني نتيجة الاحتكاك بهما . فطاليس الملطي من اصل فينيقي كان كمواطنيه رحالة عظيما ورجل اعمال بارعا . من الطبيعي أن تقوده اسفاره الى مركزي الحضارة في ذلك العصر . مصر وسوريا . ولما كان طاليس عقلا منفتحا مولعا بالاطلاع واكتساب المعرفة ، درس في مصر الهندسة وعلم الفلك. في بلاد النهرين اطلع على ما بلغه البابليون من معارف في نشوء الكون وعلم الفلك . وقد استطاع طاليس أن يستوعب المعارف العلمية المصرية والبابلية . والواقع ان فلسفته وكذلك معارفه مأخوذة كلها عن الفكر الشرقي . فمن نظريتي نشوء الكون البابلية والمصرية استعار المفهوم الذي يجعل من الماء مصدرا لجميع الاشياء الحية .

واخيرا نختتم موضوعنا بقول شارل فيرولو « كانوا في العصر الروماني يتحدثون عن فينيقيا التي أعطت العالم مؤرخين وفلاسفة منذ حرب طروادة . والحقيقة أن فينيقيا أعطت منذ ما قبل حرب طروادة ، شعراء ومعلمين كان لهم تأثير كبير في عالم حوض المتوسط القديم »(١) .

والطريف أن هؤلاء المعلمين والفلاسفة أعطوا باللغة اليونانية ، ما ساهم في اغناء الفكر العلمي اليوناني والفلسفة اليونانية ، نذكر منهم الكاهن البابلي برعوشا (بين القرنين الرابع والثالث ق.م) وزينون الرواقي (القرن الرابع ق.م) . فيلون الجبيلي (٤٢ م) بوسيان السميساطي (حوالي ١٢٥ م) . اوربان الصوري من ابناء القرن الثاني للميلاد . (فرفوريوس الصوري حوالي ٢٣٢ م) . وكثيرون غيرهم .

واود في هذه العجالة أن اقف عند واحد من الفلاسفة والادباء السوريين الذين اضافوا الكثير الى الفلسفة والادب اليونانيين . زينون الذي يعتبر واحد من السوريين الكثيرين الذين ابدوا عبقرية وبراعة كبيرة خارج الارض السورية . كنعاني ولد حوالي ٣٣٢ ق.م في مدينة سيتيوم Citium او كيتيوم Kitiom التي اسسها الكنعانيون في جزيرة قبرص حيث كانوا يشكلون عنصرا اساسيا من سكان الجزيرة . وفي العشرينات من سنيه سافر الى اثينا ليدرس على خلفاء الفلاسفة الذين قرا كتبهم . وحين نضج فكريا راح يحاضر في « الرواق » في اثينا حوالي ٣٠٠ ق.م . فعرفت مدرسته بالرواقية. فالرواقية ليست رومانية في نشأتها وليست يونانية الاصل ، وان كان زينون

(1) Charles Viro Ueaud. légends de Babylone et canaon, Paris 1949.

قد اتخذ من اثينا مركزا لالقاء محاضراته واذاعة مبادىء فلسفته الاخلاقية . يقول بيار مكسيم شول « نجد ان في اساس المدرسة الرواقية التي وصل نفوذها الينا شخصية عملاقة صارعت عصرها تلك هي شخصية زينون(١) » الذي حاول في محاضراته ان يخرج فلاسفة اليونان من دوائرهم الضيقة الى الى الرحاب الانسانية . ومن اجواء اسبارطة شبه البربرية التي يعتبرها الفيلسوف ارنولد توينبي في عداد الحضارات المتجمدة ؛ الى عالم جديد تسود فيه القيم والفضائل الانسانية المتفتحة على العالم كله . وعمل في محاضراته وفي كتبه على تحرير الفضيلة من سجن المدن اليونانية الخانق ، وتحويلها الى فضيلة انسانية ؛ تمارس فعلها الانساني في العالم كله . فقد كان يطمح الى تبديل جوهر الانسان الحضاري ومناهجه الاجتماعية . يقول الفيلسوف الالماني البرت اشفستر(٢) » لم تبلغ الحركة الاخلاقية في الحضارة اليونانية اوجها الا بما قامت به الفلسفة الرواقية من عمل عظيم في التربية » .

قال مونتسكيو في كتابه « روح القوانين » . استطاعت الرواقية وحدها ان تربي مواطنين احرارا ، وان تنشىء رجالا عظماء ؛ وان تخرج اباطرة كبارا» .

ويكفيه فخرا ايضا انه من كنعان (توينبي) كتب على ضريحه « اما كفاك فخرا انك من فينيقية التي انجبت قدموس الذي جاء الى بلاد الإغريق وعلم الناس الحرف(٣) » .

★ ★ ★

(1) M. Sehuhl, les Stoiciens,

(2) Albert Schweitzer, the philosophy of civivlization, London 1960

(3) Diogène laërce, Vie, Doctrines et sentences des philosiphes illustres, Paris.

الدراسات والبحوث

الصوفيّة بين ترك الجهاد ووهم المجاهدة

محمد عبد السلام الجباني

هل انهزم الصوفية ؟

نعم انهزم الصوفية وانسحبوا من الحياة الاجتماعية(١) مخلفين وراءهم ثغرة لاتسد وفراغاً كبيرا وتواكلا،وانعزالية.

انهزم الصوفية وانسحبوا من الحياة الاقتصادية مخلفين وراءهم ضعفا وتبعية ناقت ويلاتها الاجيال ، مخلفين حطاما بشريا عاطلا عن العمل ، مفضية عن آلامهم التي قامت منغفوة الايام وقامت لتبني حياة اقتصادية ضخمة ، ونهضة علمية عجيبة وباهرة .

(١) اعرف عشرات من القادة الصوفيين ومشايخ الطرق ومئات وآلاف الاتبـاع ، عاشرتهم وخبرتهم لسنين ، فما اذكر اني رأيت احدهم يقرأ في جريدة او يمسك مجلة او يستمع الى راديو او يتابع خبرا او يهتم بحادثة ، انما هم بانشغال دائم بالذكر والرابطة وملاحقة النفس بحجة تربيتها.

لقد هزت الصوفية سرير الشرق وهدهدت له باغانيها الحزينة ودعوات الخدر حتى غفا وغط في نوم عميق يحلم باللقاء الروحي ، والجنان الموعودة ، ويتقلب على فرش البطالة والانهزام الحضاري ، وركب التقدم يخب الخطى ويجد السير . ولما افاق الشرق وجدنفسه يرسف في اسمال التخلف والقهر والاستغلال ، ولما حاول ان يستفيد من معطيات التقدم العلمي ونتاج النهضة الصناعية لـم يستطيع نتيجة سيطرة الروح الصوفية المتغلغلة في اعماقه وان حاول ان ينكر ذلـك .

ان العالم العربي مهزوم تاريخيا ، لانه مهزوم من داخله ، رغم ما يحاوله من اضفاء التغييرعلى نفسه ، انه تغيير من الخارج ، تغيير ظاهري ، تغيير في القشور ، اما الاعماق العربية فانها مهزومة ومقهورة .

ان العامل العربي الذي يعمل في الصناعة والآلة ، لم يستطع تمثل العقلية العلمية والعملية التي تعكسها طبيعة التعامل مع الآلة والتقنية الصناعية ، فعاش بازدواجية واضحة ، شخصية في الورشة والعمل تؤمن بالعلم والاتمتة ، وشخصية في البيت تؤمن بالخرافة والتواكل ، وتعيش الفوضى وعدم الاتساق بكل ما يخالف العقلية العلمية المنظمة والتفكير السوي .

وانهزم الصوفية وانسحبوا من الحياة العسكرية فنتج عن ذلك انهزام الامة وسيطرة الاستعمار ، انهزم الصوفية لاسباب داخلية تنبع من طبيعة التصوف ذاته ، من تناقض الاسس التي قام عليها ومن اسباب خارجية فرضتها طبيعة قوانين الحياة ، وطبيعة علاقة الاشياء ، وحتمية المسيرة الحضارية وقوانين التغيير والتطور .

ونحن هنا نؤكد ان الصوفية تجد لها سنداً في الدين وفي الحياة ، الدين بما يدعو الى السمو والتطهر والاستقامة ومجاهدة النفس وتزكيتها . والحياة بما تزخر به من شرور ومن تكالب على نهب حقوق الآخرين بكل الطرق والاساليب .

امام ذلك عمل الصوفية على تطهير الروح ومجاهدة النفس لكن بشكل اقسار واكراه ، ولم يتزنوا في عملية التطهير ، انما اعتبروا انفسهم في معركة حقيقية مع النفس وشرورها فقاتلوا بلا هوادة مستخدمين كل اساليب القسوة وما يمكن أن يفعله العدو بعدوه ، فسجنوها في ظلمات المنازل والخلوات وقيدوها باغلظ السلاسل والحديد ، واسهروها حتى نسيت النوم ، وعذبوها حتى الفت العذاب وادمنت التعذيب واصبحت شخصية مريضة ، اتكالية عاجزة امام كل شيء .

الصوفية يمثلون التطرف في التربية ، التطرف في السلوك ، التطرف في معاداة النفس والحياة ارادوا ان ينقذوا انفسهم بهدم الحياة ، ارادوا ان يفوزوا بالجنة بهدم الدنيا ، ارادوا ان يعلوا بالروح بهدم الجسد .

لم يفرق الصوفية بين الشرور الاجتماعية والشرور الفردية ولم يفرقوا بين الانهيار الاجتماعي والانهيار الشخصي . فأرادوا الاصلاح عن طريق الخلاص الفردي فلم يوفقوا في انقاذ الفرد وساعدوا على الانحراف الاجتماعي الذي ظل يتفاقم ويتطور حتى وصل الى حد الانتحار الاجتماعي والموت الحضاري ثم تبعه بعد ذلك انهزام الصوفية وانسحابهم الكامل من اية فعالية.

انسحبوا من وجه السلطان .. الى المهادنة والنفاق السياسي
انسحبوا من الدنيا .. الى اهمالها وذمها والسقوط فيها
انسحبوا من العمل .. الى التسول والاتكالية والقناعة
انسحبوا من الجهاد .. الى وهم المجاهدة(٢)

ونحن هنا لا نقصد بالجهاد المعنى القتالي فقط انما المعنى الواسع وهو المشاركة في تحقيق الوجود الحياتي والقيمة الانسانية وبذل الجهد في القيام بالوظيفة الاجتماعية والمهمة الحضارية للانسان التي هي بعض مهمة الرسل اي تنفيذ الأمر القرآني ـ واعملوا صالحا(٢) ـ من هنا كان كل تخل عن دور الانسان انهزاما وانسحابا وان احتمى واختفى وراء الزهد او الاستزادة من

(٢) يجب الا ننسى ان اخطر انواع الانسحاب الاجتماعي هو الانتحار وقتل النفس التي حرم الله، واننا واجدون في الحياة الصوفية كثيرا من قصص الانتحار كحالة من حالات الحب الصوفي وكتعبير عملي عن الحب الذي يصل الى حد الانتحار فقد روي ان رجلا كان يغتسل في الفرات فسمع رجلا يقرا وامتازوا اليوم ايها المجرمون فلم يزل يضطرب حتى غرق ومات . وروي عن محمد بن عبد الله البغدادي قال : رايت في البصرة شابا على سطح مرتفع قد اشرف على الناس وهو يقول من مات عاشقا فليمت هكذا لا خير في عشق بلا موت . ثم رمى بنفسه فحمل ميتا قال الجنيد رحمه الله التصوف ترك الاختيار . راجع كتاب مكاشفة القلوب المقرب الى حضرة علام الغيوب ـ للغزالي ـ مكتبة الجمهورية العربية ـ مصر ـ ص ٢٣ .

ونحن نرى ان تلك حالة مرضية استهوائية بتاثير الفكر الصوفي السلبي والانهزامي وسوف نعالج هذه الحالة في بحث لنا مستقل عند تحليل النفسية الصوفية وظاهرة الحب الصوفي.

(٣) يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم . المؤمنون ٥١ . ان اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير . سبا ١١ .

العبادة النافلة التي تصل الى درجة الانشغال والاستحواذ والسيطرة اي الرهبنة فان ابتداع التدين يعادل ترك التدين لهذا فنحن ضد التحلل وضد الغلو(٤) .

وان تيار الحضارة المعاصرة فرض على الصوفية الاندماج الاجتماعي والمشاركة العلمية الحياتية . والصوفية الحديثة حاولت عصرنة التصوف وعملت على تحضيره وعلى تجاوز سلبيات الصوفية التاريخية بما يتلاءم مع الحياة المعاصرة . تحت مؤثرات الحياة وطبيعة التعامل الاجتماعي والتركيبة الاجتماعية والاقتصادية وسيطرة الدولة على كثير من فعاليات الحياة وسيطرة قوانين الزامية التعليم والزامية التجنيد وخدمة العلم . وانفة عقلية التحضر عن كثير من سلوكيات وممارسات الدروشة وضيق الاحوال والحياة عن الاتكالية ـ وان صوفية العصر يعيشون ادعاء التصوف اكثر من تمثل حقيقة التصوف وروحه . فلا يربطهم بالتصوف التاريخي الا الاسم (والتسمية الاكثر دقة انهم طرقيون ، فلا تجد لهم مواجيد التصوف ولا فلسفة التصوف ولا عبارات ولا مقامات ولا علوم التصوف . العابد منهم درويش والناسك فيهم ابله . والعاشق مجنون . والزاهد هو البطال . والذي استطاع او اجبر على التفاعل مع الحياة العصرية والمشاركة الاجتماعية والثقافية فقد عاش بازدواجية في الشخصية فهناك في الوقت ذاته . شخصية فاعلة مشاركة وهي الشخصية الحياتية وشخصية متخلفة قابعة داخل الشخصية الاولى وهي الشخصية الصوفية التي يفكر فيها ويتطلع بها ويتعبد بها . فان التغير الحضاري لم يلامس عقلية ولا داخلية انساننا وانما لامس مظهره وتحصيله العلمي ، ونشاطه العملي : مهندسون وخرافيون . واطباء ومتخلفون مثقفون واونيائيون . علماء لكنهم طرقيون .

ان التخلف قابع في اعماق الذات العربية وضارب اطنابه في تفكيره وتصوره ؛ واللافت للنظر ان اكثر شيوخ الطرق الصوفية هم من العوام الاميين او شبه الاميين تنقاد اليهم الاعناق . وتلتف حولهم الرجال . لهم القبول ولهم الامر والشورى . تغرق عليهم . وتكثر لديهم الهدايا . يحكمونهم في امورهم ودينهم ويربطون علاقتهم بربهم ورضاهم لهم الطاعة المطلقة ،والتسليم الكامل النقي (من قال لشيخه لم لم يفلح ، وذلك نتيجة تسلط مجموعة من الاخلاق فيها :

(٤) من اجل ابتداع التدين راجع تلبيس ابليس لابن الجوزي ، حققه وخرج احاديثه خير الدين علي ، دار الوعي العربي بيروت .

● الايمان بوجود اسرار يضعها الله حيث يشاء من ابسط خلقه ، مهما اعطى للبله والمجاذيب مكانة خاصة واعتقد الناس بهم كأولياء لله ذوي قدرات واطلاع .

● الانحراف في مفهوم العلاقة مع الله بضرورة وجود واسطة من شيخ او مرشد « من لا شيخ له فشيخه الشيطان » وضمن شروط وآداب صارمة تبعدها عن مفهوم التأسي والصحبة وتقربها من مفهوم التبعية والعبودية والوصاية فليس للمريد مع شيخه ارادة وهو بين يدي شيخه كالميت بين يدي مغسله .(٥)

● الفصل بين المكانة العلمية ، والمكانة الصوفية وعندهم أن العلماء اقرب الى التفكير والنقد والعوام اكثر تسليما واقل انتقادا واكثر انقيادا ؛ فهناك علماء للفقه والفتوى واحكام الطلاق ونواقض الوضوء وهناك مشايخ عندهم الاسرار والخوارق يطلب منهم الدعاء والاستشفاء وتنقاد اليهم الناس اعتقادا ورهبة فهم القادة الشعبيون والمرشدون .

● دور الحكام المتسلطين والاستعمار بتشجيع وتمكين امر هؤلاء الشيوخ العوام . البسطاء منهم ذوي النوايا السليمة ـ لاستغلالهم ـ والاذكياء منهم ذوي المطامع والمكانة ـ لتبادل المصالح .

آمن الصوفية بأن النفس امارة بالسوء ، وانه لا يؤمن جانبها ولا يغتر بها الا جاهل فناصبوها العداء وعملوا جاهدين على كسر شوكة قوتها واذلالها والتغلب عليها وامتلاك امرها واطلقوا على تربية النفس هذه اسم المجاهدة ؛ وحقيقة المجاهدة عندهم هي التدريب على انكار الذات ومخالفة النفس ليمكن التغلب على الشهوات وعلى ميل النفس الى الرغائب من نعمة الجسد ووفرة المال واكتساب الجاه وقد عبر عنه القرآن بالجهاد بالانفس والاموال ووعد بالهداية والرشد على هذه المجاهدة « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا »(٧)

(٥) مما هيا العقول والنفوس لتقبل الخضوع السلطوي ، والانقياد السياسي ، وسوف نبحث ذلك مستقبلا عند تحليلنا للعقلية الصوفية والنفسية الصوفية على ضوء دراسات علم النفس التحليلي . ونبحث فيه علاقة الذل الاجتماعي بالذل السياسي .

(٦) بين التصوف والحياة ـ عبد الباري الندوي ـ مكتبة دار القلم ـ ص ٨٦ ـ ٨٧ .

(٧) سورة العنكبوت الآية ٦٩ .

قال ابو عثمان المغربي « من ظن ان يفتح له شيء من هذه الطريقة او يكشف له عن شيء منها الا بلزوم المجاهدة فهو في غلط »(٨) .

ولكن هل عرف الصوفية الطريق الامثل الى تربية النفس والى تحقيق المجاهدة بشكل يحفظ للانسان توازنه النفسي وانسجامه الداخلي دون ان يخل بالغاية الاساسية من هذه المجاهدة ودون ان يقع في شطط التربية ومغالاة ردود الفعل الانعكاسية فاننا لاحظنا انه كما افرط الناس في جانب ترفيه النفس حيث يقصرون حياتهم كلها على هذا الجانب من امتاع النفس واقتناص الملذات فكذلك افرط غيرهم ممن كانوا على عكسهم في التقصير في الاستجابة لمطالب النفس الحقيقية التي لا يمكن ان تستقيم الحياة بدونها فانهم يحرمون النفس حقوقها والكفاف من قوتها كاليوك والاشراقيين وحسبوا ان المجاهدة هي ان تبخس حقوق النفس وتمحق مطالبها جمعاء ويحسبون ذلك الى نجاة الروح وفلاحها . فاصبح الصوفية يزعمون ايضا ان رضا الله لايحصل الا بمخالفة النفس وكلما كانت هذه المخالفة اشد كان رضا الله اعظم واقوى ولو كانت هذه المخالفة لا تتفق مع الشريعة الاسلامية حتى انه قد يبدو لبعضهم فيحرمون على انفسهم اكل اللحم فلا يأكلونه ويمتنعون عن البارد من الماء فلا يشربونه(٩) ، والطريق الصوفي يقوم على المقامات والاحوال والمقامات تنال بمجهود الشخص لانها سلوك يأتي بالتعود والممارسة وارادة الفعل والاحوال تبقى رتبا ومشاعر روحية لا يملك الشخص من امرها شيئا(١٠) ، والمقامات هي : التوبة ، والورع ، والزهد ، والفقر ، والصبر ، والتوكل ، والرضا ، والاحوال هي : المراقبة والقرب والمحبة ، والخوف ، والرجاء ، والشوق والانس ، الطمأنينة ، والمشاهدة ، واليقين(١١) .

والتربية الصوفية تقوم على المجاهدة والرياضات ، والمجاهدة هي مخالفة الهوى ومحاربة الشهوات وهي غير الرياضة لان المجاهدة تهدف الى تربية النفس وترويض الغرائز والرياضة تهدف الى اضعاف الجسم فتقوى

---

(٨) الرسالة القشيرية في علم التصوف ـ القشيري ـ دار الكتاب العربي بيروت ص ٤٧ وقال ابو علي الدقاق « ... واعلم ان لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريقة شمعة » الرسالة القشيرية ص ٤٧ .

(٩) بين التصوف والحياة ـ عبد الباري الندوي ـ مكتبة دار القلم ص ٨٦ ـ ٨٧ .

(١٠) راجع من اجل ذلك الرسالة القشيرية .

(١١) راجع من اجل ذلك الرسالة القشيرية .

على حسابه الـروح ، والمجاهدة نوعان الاول مجاهدة في العبادات وتكـون بالاكثار من الصلاة والصيام والاوراد والاذكار حتى تستغرق كل وقت المريد، والثاني مجاهدة الشهوات وعلى رأسها شهوة الفرج .

اما الرياضة وهي اضعاف الجسم بالجوع والسهر وكثرة العبادة وغايتها تقوية الروح حتى تتصل بعالم الملكوت ويتفتح للصوفي باب من طريق الحكمة والقدرة وخرق العادات ، والمجاهدة والجهاد في الاصل بذل النفس في سـبيل الله ومحاربة اعدائه ثم استعملت المجاهدة في التصوف بمعنى محاربة النفس ومخالفتها باعتبارها العدو الذي يقود الانسان الى الهلاك وقد يقصيه عـن دينـه(١٢) . لهذا نجد الرجل المتصوف يحاسب نفسـه في كل لحظة ويتلمس مواقع الفيض في كل لحظة وهذه الشواغل الدائمة قد تكون مما يصرف النفس عن التوجه لما يجد في عالم المحسوسات والمعقولات وتصير الرجـل مـن اهل الوسواس في تعقب ما كان وانتظار ما سيكون من اعمال القلب والوجدان ولكنها عند الاعتدال تخلق من المرء قوة خلقية تنفع في توجيه الارادة الى الصالح مـن الاعمال(١٣) . وإن تلك السياسة الصوفية اضرت من وجه واحسنت من وجوه ، اضرت حين قصرت الشخصية الخلقية على الحياة الفردية وقضت بأن يصـم الرجل اذنيه في اكثر الاحيان عما يجري في المجتمع من اخبار الجد والابـداع واحسنت حين ربطت مصير الفرد بمجاهدة الاهواء ومحاربة الشهوات واقنعته ان لا غنى له عن ترقب الفيض الالهي في جميع اللحظات وراضته على احتقار المغانم الدنيوية والايمان بأن المغنم الحق هو الاتصال بالمبدع الاول الذي وهب الروح لكل موجود(١٤) وقد خلق الصوفية في ميدان دراسة النفس وميولهـا وآفاتها عن طريق التأمل والاستبطان ثروة سيكولوجية اخلاقية رائعة تشهد لهم برقة الحس ودقة التحليل وعمق النظر فيمايعتلج في النفس من اهواء ونزعات(١٥) في حين يرى ابن الجوزي في كتابه تلبيس ابليس ان الصوفية في سلوكهم الخاص ومجاهداتهم النفسـية ورياضاتهم الروحية انما يريدون اقسار النفس علـى

(١٢) التصوف الثورة الروحية في الاسلام ــ الدكتور ابو العلا عفيفي ــ دار الشعب بيروت ص١٢٤
(١٣) التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق د. زكي مبارك الجزء الثاني ــ المكتبـة العصـرية بيروت ص ١١٨ .
(١٤) التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق د. زكي مبارك الجـزء الثاني ــ المكتبـة العصرية بيروت ص ١١٩ .
(١٥) التصوف الثورة الروحية في الاسلام ــ الدكتور ــابو العلا عفيفي ــ دار الشعب بيروت ص١٢٥

التخلي عن طباعها وارغامها علـى الخروج عـن حدودها الصحيحة وصفاتها المعقولـة(١٦) .

والصحيح ان الصوفية قد غالوا في عدائهم للنفس والجسد وابتدعوا من الاساليب التربوية اقساها واتبعوا مع النفس والجسد كـل الوان التعذيب والحرمان السـهر المتواصل والجوع الشاق والوقوف الطويل والتعبد الشديد ، يقول الجنيد « ما أخذنا التصوف عن القيل والقال لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المالوفات والمستحسنات »(١٧) وكان الجنيد يدخل كل يوم حانوته ويسبل الستر ويصلي اربعمائة ركعة ثم يعود الى بيته »(١٨) ومـن اخبار الشبلي أن مجاهداته كانت في بدايته فوق الحد(١٩) وجاء عنه انه اكتحل بكذا وكذا من الملح ليعتاد السـهر ولا يأخذه النوم(٢٠) وقال سهل بن عبد الله : « لا يصبح التعبـد لاحد حتى لا يجوع من اربعة اشياء من الجوع والعري والفقر والذل »(٢١) .

ويقول ابو علي الروذباري : « اذا قال الصوفي بعد خمسـة ايام انا جائع فالزموه السوق ومروه بالكسب واعلم ان اصل المجاهدة وملاكها فطم النفس عن المالوفات وحملها على خلاف هواها في عموم الاوقات ، وللنفس صفتان مانعتان لها من الخير انهماك في الشهوات وامتناع عن الطاعات »(٢٢) .

واخذ السّري جلدة ذراعه ومدها فلم تمتد ثم قال وعزته تعالى لو قلت ان هذه الجلدة يبست على هذا العظم من محبته لصدقت ثم غشي عليه»(٢٣) وسئل ابو يزيد باي شيء وجدت هذه المعرفة فقال : ببطن جائع وبدن عار »(٢٤) .

وكما حرم الصوفية انفسهم لذيذ النوم وواصلوا السهر واستعانوا بالملح والحديد المحمى(٢٥) فقد حرموا انفسهم راحة البدن فارهقوا اجسامهم بالتعب

---

(١٦) تلبيس ابليس ـ ابن الجوزي حققه وخرج احاديثه خير الدين علي دار الوعي العربي بيروت .

(١٧) الرسالة القشيرية في علم التصوف ـ القشيري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ص ١٩ .

(١٨) الرسالة القشيرية في علم التصوف ـ القشيري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ص ١٩ .

(١٩) الرسالة القشيرية في علم التصوف ـ القشيري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ص ٢٥ .

(٢٠) الرسالة القشيرية في علم التصوف ـ القشيري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ص ٢٦ .

(٢١) الرسالة القشيرية في علم التصوف ـ القشيري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ص ٩١ .

(٢٢) الرسالة القشيرية في علم التصوف ـ القشيري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ص ٤٩ .

(٢٣) الرسالة القشيرية في علم التصوف ـ القشيري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ص ٤٩ .

(٢٤) الرسالة القشيرية في علم التصوف ـ القشيري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ص ١٤ .

(٢٥) قال الشبلي : « كنت اول بدايتي اذا غلبني النوم اكتحلت بالملح فلما ازداد علي الامر احميت الميل فاكتحل به » . مكاشفة القلوب المقرب الى حضرة علام الغيوب ـ للغزالي ـ مكتبة الجمهورية العربية ، مصر ـ ص ٢٨ .

وعدم الاستلقاء وباتخاذهم جلسات غير مريحة تسبب خدرا ومشقة ، فما كانوا يستلقون ولا يتمددون ، مما يدل على وجود مازوشية ظالمة تسيطر على عقولهم وتستحوذ على نفوسهم للسلوك العدائي للنفس والجسد تحت تأثير هوس التعبد والتطهر يقول الجنيد : « ما رايت أعبد من السري اتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤي مضطجعا الا في علة الموت »(٢٦) .

وقرات من بعضهم انه كان يربط رقبته بحبل الى السقف على طول قامته ويبقى كل الليل واقفا يردد اذكاره وأوراده حتى اذا غلبه النعاس وارتخت اعضاؤه أيقظه الحبل المشدود في رقبته(٢٧) .

وبعضهم كان يقف على رجل واحدة او جلسة واحدة لساعات طويلة ويبقى في العراء لا يحتمي من شمس ولا يتقي من برد(٢٨) قال ابراهيم بن فاتك : «دخلت يوما على الحلاج في بيت له على غفلة منه فرايته قائما على هامة راسه »(٢٩) . وقال ابو بكر الدقاق : خرجت في وسط السنة الى مكة وانا حدث السن في وسطي نصف جل وعلى كتفي نصف جل فرمدت عيني في الطريق وكنت امسح دموعي بالجل فاقرح الجل الموضع فكان يخرج الدم مع الدموع فمن شدة الارادة وقوة سروري بحالي لم افرق بين الدموع والدم وذهبت عيني في تلك الحجة وكانت الشمس اذا اثرت في بدني قبلت يدي ووضعتها على عيني سرورا مني بالبلاء »(٣٠) .

لقد سيطرت على الصوفية مازوشية وهيمنت على جميع حركاتهم وزينت لهم العذاب والتعذيب على انه لذة وعبادة يتقربون بها الى الله مع ان الفرق كبير بين الصبر على المصيبة المستجلبة بفعل الانسان وتدبيره مما تعتبر ايذاء لا يرتضيه الشرع ويعاقب عليه .

---

(٢٦) الرسالة القشيرية في علم التصوف ـ القشيري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ص ١٠٠ .

(٢٧) كان حسين الحلاج قيد نفسه من كعبه الى ركبته بثلاث عشر قيدا « وكان يصلي مع ذلك كل يوم وليلة الف ركعة » مكاشفة القلوب المقرب الى حضرة علام الغيوب ـ للغزالي ـ مكتبة الجمهورية العربية ـ مصر ـ ص ٢٨ .

(٢٨) الحلاج شهيد التصوف الاسلامي طه عبد الباقي سرور ص ٩٩ .

(٢٩) الحلاج شهيد التصوف الاسلامي طه عبد الباقي سرور ص ١٠٦ .

(٣٠) تلبيس ابليس ـ ابن الجوزي حققه وخرج احاديثه خير الدين علي دار الوعي العربي بيروت ص ٢٤٦ . « وقد جاء في الصحيح ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال : ما ينبغي للمؤمن ان يذل نفسه قالوا وكيف يذل نفسه يا رسول الله قال يتحمل من البلاء ما لا يطيق » تفسير ابن كثير عند تفسيره سورة المائدة .

لقد افرط الصوفية فيما يحسبونه مجاهدة ورياضة يتقربون بها الى الله ويتعبدونه بذلك مع ان الصوفية قوة هائلة في الاخلاق لا ريب في ذلك ولكن معاذ الحق ان يغيب عنا انهم لم يكونوا دائما موفقين فقد كانت لهم هنوات وهفوات واستطاع فريق منهم ان يلحق بالعالم الاسلامي ضررا غير قليل(٢١) . بما اذكوا في نفوس الناس الانهزام امام الحياة والانسحاب السلبي امام النفس بلا ارادة بلا اختيار بلا موقف يعمل دوما على قمع ارادته وعلى شل عقله وكبت رغبته . واول مقام المريد عندهم ارادة الحق باسقاط ارادته(٢٢) وقد قيل لابي يزيد ماتريد قال اريد الا اريد(٢٣) وقال بعضهم لي منذ اربعين سنة اشتهي ان لااشتهي لاترك ما اشتهي فلا اجد ما اشتهي(٢٤) وقال الجنيد : « التصوف ترك الاختيار »(٢٥) .

وارادة بدء طريق السالكين وهي اسم لاول منزلة القاصدين الى الله تعالى وانما سميت هذه الصفة ارادة لان الارادة مقدمة كل امر مما لم يرد العبد شيئا لم يفعله .... ولكن المريد في عرف هذه الطائفة من لا إرادة له فمن لم يتجرد عن ارادته لا يكون مريدا(٢٦) .

« نظر ابو تراب الى صوفي مد يده الى قشر البطيخ وكان قد طوى ثلاثة ايام فقال له : تمد يدك الى قشر البطيخ انت لا يصلح لك التصوف »الزم السوق«(٢٧) ويقول ابو تراب النخشبي : « ماتمنت نفسي علي قط الا مرة واحدة تمنت علي خبزا وبيضا وانا في سفري فعدلت عن الطريق الى قرية فوثب رجل وتعلق بي وقال كان هذا مع اللصوص . فبطحوني وضربوني سبعين خشبة فوقف

(٢١) التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق ــ د.زكي مبارك ــ الجزء الاول ــ المكتبة العصرية ــ بيروت ص ٣٣ .

(٢٢) الرسالة القشيرية في علم التصوف ــ القشيري ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت ص ٩٣ .

(٢٣) التنوير في اسقاط التدبير لابن عطاء الله السكندري ــ مجمع البحوث الاسلامية العدد ٢٩ ص ١١٠ .

(٢٤) التنوير في اسقاط التدبير لابن عطاء الله السكندري ــ مجمع البحوث الاسلامية العدد ٢٩ ص ١٢٣ .

(٢٥) مكاشفة القلوب المقرب الى حضرة علام الغيوب للغزالي ــ مكتبة الجمهورية العربية ــ مصر ص ٢٣ .

(٢٦) الرسالة القشيرية في علم التصوف ــ القشيري ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت ص ٩٢ .

(٢٧) تلبيس ابليس لابن الجوزي ــ حققه وخرج احاديثه خير الدين علي ــ دار الوعي العربي ــ بيروت ص ٢٣٣ .

علينا رجل صوفي فصرخ وقال ويحكم هذا ابو تراب النخشبي فحلوني واعتذروا الي وادخلني الرجل منزله وقدم الي" خبزا وبيضا فقلت كلها بعد سبعين جلدة »(٣٨) .

خلال حياته كلها لم تتمن عليه نفسه الا مرة واحدة تجرات وطلبت منه تحقيق شهوة تأمين اكلة متواضعة خبز وبيض لكنها كبيرة عند الصوفي لا من حيث قيمتها وانما من حيث دلالتها وقيمتها النفسية اذ انها تدل على وجود الارادة والرغبة وهذه اشياء يجب ان تكونمعدومةوميتة عند الصوفي لانالصوفي لا ارادة له ولا اختيار فيستوي عنده الطلب الصغير والطلب الكبير التافه وذو القيمة فقد جاء في اخبار بشر الحافي انه اشتهى الباقلا سنين فلم يأكله ، فرؤي في المنام بعد وفاته فقيل له ما فعل الله بك فقال : غفر لي وقال كل يا من لم يأكل واشرب يا من لم يشرب(٣٩) .

وكما عمل الصوفية على قمع المطالب النفسية ومحق ارادتها ورفض رغباتها وكبت تطلعها فقد عملوا على اذلالها بشكل مميت يخرجها عن مفهوم التربية وتعويدها التواضع وتعليمها لين الجانب والسماحة وتعاملوا معها بشكل مذل بكل ما تحمله كلمة الذل من معنى وروح ضعة يصل الى حد الرغبة بالتحقير مما يدل على وجود نفسية مازوشية متعمقة في النفس الصوفية ككل لذا تنتشي بالاذلال وتكون نشوتها عظيمة بقدر ما تكون ممارسة الاخرين لإذلالها كبيرة وشديدة وان اختفى ذلك خلف دعوة المجاهدة وتهذيب النفس وتربيتها .

قال ابراهيم بن ادهم : ما سررت في اسلامي الا ثلاث مرات مرة كنت في سفينة وفيها رجل مضحاك كان يقول كنا نأخذ العلج في بلاد الترك هكذا ، وكان يأخذ بشعر راسي ويهزني فيسرني ذلك لانه لم يكن في تلك السفينة احد احقرني عينيه مني والاخرى وكنت عليلا في مسجد فدخل المؤذن وقال اخرج فلم اطق فأخذ برجلي وجرني الى خارج المسجد ، والثالثة كنت بالشام وعلي فرو فنظرت فيه فلم اميز بين شعره وبين القمل لكثرته فسرني ذلك .

وفي حكاية اخرى عنه قال : ما سررت بشيء كسروري اني كنت يوما جالسا فجاء انسان وبال علي" »(٤٠) .

(٣٨) الرسالة القشيرية في علم التصوف ــ القشيري ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت ص ٢٧ .

(٣٩) الرسالة القشيرية في علم التصوف ــ القشيري ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت ص ١١ .

(٤٠) الرسالة القشيرية في علم التصوف ــ القشيري ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت ص ٧٠ .

ودخل الحسين بن منصور مكة في ابتداء امره فجهدنا حتى اخذنا مرقعته قال السوسي اخذنا

←

ويعتبر ابراهيم بن ادهم منظر الذل ومطبقه بشكل عملي وحياتي فاننا نراه يقول لرجل في الطواف يعلمه ويرشده ويبين له اصول طريق السالكين ويبصره بمجاهدات الواصلين يقول له : اعلم انك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات اولاها تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة والثانية تغلق باب العز وتفتح باب الذل والثالثة تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد ، الرابعة تغلق باب النوم وتفتح باب السهر والخامسة تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر والسادسة تغلق باب الامل وتفتح باب الاستعداد للموت »(٤١) .

مجموعة من النصائح والارشادات الصوفية ، والتطبيقات النفسية العملية واحدة منها فقط تجعل الانسان قلقا متوترا عرضة للاصابة بالامراض النفسية وتلبسه حالةمن الاكتئابوالتوفز التي تشل تفكيره وتعطله عن وظيفته الاجتماعية وان بابا واحدا من ابواب ابن ادهم اذا فتح على الانسان وولج فيه يكفي لان يجعله متوفزا محبطا يلاحقه الخوف والترقب قلقا تسيطر عليه اوهام الخور والتماوت ، ان ابواب ابن ادهم تفضي الى فراغ حضاري ، والى تيه اجتماعي والى ضياع انساني وتفضي الى عالم من التهويمات وحالات المرض النفسي .

يقول فاتح بن عثمان التكروري وهو رجل قدم مراكش الى دمياط على قدم التجريد وسقى بها الماء في الاسواق احتسابا ... وكان ينام في الجامع يقول : لو علمت بدمياط مكانا أفضل من الجامع لاقمت به ولو علمت في الارض بلدا يكون فيه الفقير أخمل من دمياط لرحلت اليه واقمت به »(٤٢) .

وقال بعضهم رأيت فقيرا يجود بنفسه غريبا والذباب على وجهه فجلست اذب الذباب عن وجهه ففتح عينيه وقال من هذا ، انا منذ كذا سنة في طلب وقت يصفو لي فلم يبق الا الآن جئت انت توقع نفسك فيه ، مر عافاك الله تعالى(٤٣) .

منها قملة فوزناها فاذا بها نصف دانق من كثرة رياضته وشدة مجاهدته .
حركة التصوف الاسلامي محمد ياسر شرف ــ منشورات وزارة الثقافة السورية ص ١٩١ نقلا عن البغدادي في تاريخ بغداد .
قد يكون في الامر مغالاة ومبالغة ونحن لا يهمنا كبر القملة ولا وزنها انما يهمنا من القصة قولهم من كثرة رياضته وشدة مجاهدته .

(٤١) الرسالة القشيرية في علم التصوف ــ القشيري ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت ص ٨ .

(٤٢) التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق د. زكي مبارك الجزء الاول المكتبة العصرية ــ بيروت ص ٢٦٦ .

(٤٣) الرسالة القشيرية في علم التصوف ــ القشيري ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت ص ١٢٨ .

وهانت عليهم انفسهم وصفوت في اعينهم فبدت بصورة باهتة لا قيمـة لها ولا احترام حتى ان بعضهم اذا اراد ان يعرف على نفسه او يوقع كتابا أو خطابا يزيله بقوله ! « افقر الورى واحقر من ترمى ويزيد بعضهم متواضعا ومتفاخرا فيقول : خويدم الاعتاب » الى آخر هذه الكلمات والعبارات التي تحمل عفن الموت ، وخجل الذل ، وضيـاع المصطلحات واختلاط التعابـير فيصبح الجبن حكمـة . والبخل اقتصـادا ؛ والـذل تواضعا ، والضعف مســامحة .

لقد ناصب الصوفية النفس العداء ، فحقروها بكل وسيلة ، وعذبوها بكل اسلوب ، واحبطوها بكل طريقة متناسين انه من يهن يسهل الهوان عليه . وشغل الصوفية بتربية النفس الى حد الهوس والمرض فما تركوا من وسيلة الا جربوها ، ولا طريقة الا استعملوها حتى انهم اتخذوا من الكـلاب أساتذة ومعلمين يصاحبونهم ويعاشرونهم ويتعلمون منهـم ما يعليهم في طريـق التقى مرتبة ومكانة .

حكي عن بعضهم انه رأى كلابا في كهف في بعض الجبال مقيمـة فيه لا تخرج منه ولا تدخل البلد الا يوما واحدا في الاسبوع تدخل فتأكل من المزابل ثم تعود الى مكانها وهكذا دأبها فأقام معها مدة يخرج معها يوم خروجهـا الى البلد ويأكل معها من المزابل مما يحصل له أكله ثم يعود معها الى الجبل فحصل له بتلك «الكلاب رياضة وآداب »(٤٤) .

وروي أن أويسا القرني كان يقتات من المزابل ويكتسي منها فنبحه يومـا كلب على مزبلة فقال له اوينس كل مما يليك وانا آكل مما يليني ولا تنبحني فان جزت على الصراط فانا خير منك والا فانت خير مني ، وكان اهله يقولون هو مجنون واقاربه يستخفون به ويستهزؤن والصغار به يتولعون وبالحجارة له يرجمـون»(٤٥) .

لماذا هذه الدونية ، لماذا هذا الصغار ، هل هو تواضع ، هل هو بساطة، هل هو من خفض الجناح للمؤمنين ، اي رياضة روحية يتعلمها المرء من الكلاب، اي آداب سلوكية يقتبسها الانسان من الكلاب ؛ اي اسوة حسـنة يتبعهـا الانسـان اقتداء بالكلاب .

(٤٤) روض الـرياحين في مناقب الصـالحين ـ الحكاية الرابعة والاربعون بعد المائة ص ١٦١ .

(٤٥) روض الرياحين في مناقب الصـالحين ـ الحكاية الخامسة والاربعون بعد المائة ص ١٦١ .

انه تواضع سخيف ، وتربية ذليلة ، وتقى مزيف ، وآداب تبقى مهمـا علت بمستوى ومرتبة الكلاب تاباها روح الاسلام ، وترفضها عظمة الاسلام ، وتنكرها عزة الإسلام .

« نظر عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى شاب قد نكس راسه فقال له ياهذا ارفع راسك فان الخشوع لا يزيد على مافي القلب فمن اظهر للنـاس خشوعا فوق مافي قلبه فانما اظهر نفاقا على نفاق »(٤٦) . وروي أن رجـلا تنفس عند عمر بن الخطاب كانه يتحازن فلكزه عمر او قال لكمه(٤٧) .

ويروى ايضا ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه راى رجلا يصلي وقـد اظهر التخشع والتذلل ولوى براسه . فعلاه بالدرة وهو يصلي وقال له لا تمت علينا ديننا اماتك الله ، لان التماوت قبل الموت هروب وضيع من مهمة المرء في الوجود وتكول عن حمل تكاليف الحياة وجهالة باسرار الحكمة العليا ، وهـذا التماوت لا يمكن أن يكون دينا اذ الدين حركة اصلاح للحياة اذا شردت وتوجيه لقواها الدائبة كي تعرف ربها وتتقيه(٤٨) لذا فان المتصوفة يحملون اوزار هذا التخريب الفكري في العقل الاسلامي وهذه البلبلة النفسية التي جعلت القافلة الاسلامية تنحاز جانبا في الحياة بينما الاجناس الاخرى تمرمر السحاب(٤٩) .

وكما عادى الصوفية النفس لانها راس الشرور واشد الاعداءمكرا وخديعة، واكثرها اسلحة واقواها فتكا وترديا . فقد حارب الصوفية على جبهة الدنيا ، عادوها حتى اهملوها ، وكرهوها الى حد القطيعة ، ودعوها الى درجة التهم ، قاتلوها بالدعاية والممارسة ، لكنهم في النهاية ضعفوا وانهزموا بعد سنين مـن الاشغال والانشغال وبعثرة القوى وضياع الجهود فلاقى المجتمع والامة من هذه المداوة كل تخلف وتأخر .

نحن لا ننكر ان الصوفية نشاوا في بيئات غلب عليها الفساد ، فساد الخلق والدين وما كانت المعاملات بين الناس في العهود الماضية الا ضربـا من الختل والعدوان(٥٠) .

---

(٤٦) تلبيس ابليس ـ ابن الجوزي ـ حققه وخرج احاديثه خير الدين علي دار الوعي العربي بيروت ص ٢٢٥

(٤٧) تلبيس ابليس ـ ابن الجوزي ـ حققه وخرج احاديثه خير الدين علي دار الوعي العربي بيروت ص ٢٢٦ .

(٤٨) كيف نفهم الاسلام. محمد الغزالي ، دار الكتب الحديثة ـ مصر ـ ص ٥٢

(٤٩) كيف نفهم الاسلام. محمد الغزالي ، دار الكتب الحديثة ـ مصر ـ ص ٥٥

(٥٠) التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق . د. زكي مبارك ، الجزء الثاني المكتبة العصرية ـ بيروت ص ١١٠

لقد نشأ الصوفية في ازمـان لم يكن لغير الحاكم المستبد المسيطر امر يطاع ، وكانت الدسائس والوشايات اساس الحل والعقد في قصور الخلفاء والامراء والوزراء وكان الندمان والمحاسيب هم محور الحركة والسكون واصل الادبار والاقبال على نحو ما يقع احيانا كثيرة في هذا الزمان فكيف ننكر ان يكون اسراف الصوفية في ذم الدنيا أثرا من آثار ذلك الاضطراب في السياسة والخلق والدين(٥١) . ومع هذا لا نرى ان ذلك يشفع للصوفية في شدة معاداتهم خاصة اذا اخذت منحى اجتماعيا ودعوة عامة يكون انعكاسها خرابا ودمارا وتخلفا من هنا كان صحيحا قولنا ان معاداة الدنيا سقوط فيها ، والتخلي عن الدنيا فشل فيها ، والانتصار على الدنيا يكون بامتلاكها . والانتصار فيها يكون باستخدام ما فيها لمنفعة من فيها من بشر ومجتمعات . ولا ينتصر على الدنيا باهمالها وتخطيها ، ومعاداة الدنيا سقوط فيها ، والانسحاب من الدنيا انسحاب من الانسانية ، انسحاب من الحياة ، ارتكاس في الذل ، وارتماء على ابواب الصدقات وما تعافه نفوس المترفين من جماعات وامم ودول ، وان انخدع الناس بأن الرهافة الاخلاقية ، ومسؤولية الكرامة الانسانية تستدعي الترفع عن الدنيا وما فيها مع ان الفرق كبير بين الترفع عن الدنيا والانهزام امامها بين ترك الدنايا فيها والعجز عن امتلاكها .

عندما ترك بشر الحافي دنياه وتجارته الرابحة طلبا لانقاذ نفسه كان ذلك دليل انهزام وعندما غادر ابراهيم بن ادهم ملكه وسلطانه لم يترفع عن الدنيا انما فشل فيها وانهزم امامها !

وكونه لم يتمكن من امتلاكها وتسخيرها لما يجب ان تسخر من اجله دليل انهزام فانه تركها ليمتلكها غيره ويستغلها كما يريد هو لا كما يجب ان يكون .

ان فرار الصوفية واهلها يدل على ثلاثة امور . . كما يوضح ذلك الدكتور زكي مبارك(٥٢) :

الاول : شعورهم بالتبعة الاخلاقية التي تمنعهم من الانغماس فيها .

الثاني : ضعفهم عن مقاومة الرذائل الاجتماعية مما اضطروا للهروب منها خوفا من التلوث بها والخضوع لها .

الثالث : فساد ما نشأوا فيه من البيئات الدينية والمعاشية .

(٥١) التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق . د. زكي مبارك ، الجزء الثاني المكتبة العصرية ـ بيروت ص ١١١

(٥٢) التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق . د. زكي مبارك ، الجزء الثاني ـ المكتبة العصرية ـ بيروت ص ١١٢

قال عبد الله بن منازل قلت لابي صالح اوصني فقال ان استطعت ان لا تغضب لشيء من الدنيا فافعل(٥٣) وقال الفضيل لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت علي ولا احاسب بها لكنت اتقذرها كما يتقذر احدكم الجيفة اذا مر بها ان تصيب ثوبه »(٥٤) .

ان اسراف الصوفية في ذم الدنيا هو الشاهد على انحرافهم في فهم الاخلاق وهو كذلك الشاهد على ان قواعد الاخلاق اقيمت في الاغلب على الاهواء الذاتية فنحن نرضى عن الدنيا ساعة ونغضب ساعات(٥٥) .

ان اشنع غلطة اقترفها الصوفية هي التنفير من الدنيا والدعوة الى هجر ما فيها من الطيبات واصرارهم على اقناع الناس بأنهم يلدون للموت ويبنون للخراب(٥٦) ولا يشفع لهم انما يقلدون ويأتمرون بدعوة القرآن لزم الدنيا وانها لا تغني من الآخرة شيئا وانها متاع الغرور ولعب ولهو وتكاثر فالقرآن انما ينفر هنا من الدنيا التي هي بمعناها الواسع الحرام والظلم والاستغلال وذلك بدلالة الآيات الاخرى التي تأمر بالعمل والكسب واكل الطيبات وانه : قل من حرم زينة الله والطيبات من الرزق وانه كلوا واشربوا ولا تسرفوا واعملوا صالحا وان وظيفة الانسان انه خليفة وانه معمر هذه الدنيا .

فكيف غاب عنهم وجه الخير في هذه الهموم السود التي يعانيها اشراف الرجال وكيف غفلوا عن المغانم النفسية التي يظفر بها من يحارب الخسة والدناءة والاسفاف . ان فرص الجهاد لا تتاح الا لمن ينغمس في الدنيا ويشهد ما يقع فيه الدنيويون من محاربة الشرف والصدق والنبل ولو استمع العالم الى نصائح الصوفية لضاعت اصول كثيرة من الخير والحق والجمال(٥٧) . الم يقل الغزالي في كتابه ميزان العمل : « ان السالك لسبيل الله يعرض عن الدنيا اعراضا لو ساواه الناس كلهم فيه لخرب العالم »(٥٨) .

(٥٣) الرسالة القشيرية في علم التصوف ــ القشيري ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت ص ١٨
(٥٤) الرسالة القشيرية في علم التصوف ــ القشيري ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت ص ٩
(٥٥) التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق . د. زكي مبارك ، الجزء الثاني ــ المكتبة العصرية ــ بيروت ص ١٠٦
(٥٦) التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق . د. زكي مبارك ، الجزء الثاني ــ المكتبة العصرية ــ بيروت ص ١٠٦
(٥٧) التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق . د. زكي مبارك ، الجزء الثاني ــ المكتبة العصرية ــ بيروت ص ١٠٦
(٥٨) كيف نفهم الاسلام ــ محمد الغزالي ــ دار الكتب الحديثة ــ مصر ــ ص ٥٦

وكان الظن بالصوفية وهم من اهل البصائر والقلوب ان يعرفوا قيمة هـذه الدنيا ، هذا الملك الذي ضيعه أهله . كان الظن بهـم أن يجاهدوا ما فيه مـن شهوات وأباطيل ولكنهم آثروا الهرب والانزواء وصاروا يعرفون من أنهار الجنة ما لا يعرفون من انهار هذا العالم ، ويعلمون من أبواب جهنم ما لا يعرفون مـن أسباب انحطاط الامم وضعف الشعوب ، ويدركون من نعيم الآخرة ما لا يدركون من معنى الملك والقوة في هذا الوجود(٥٩) .

واسراف الصوفية في ذم الدنيا لا يخلو من غفلة وجهل فللدنيا فتنة روحية وفي الكفاح في مناكبها سحر واشراق والعليل هو الذي لا يدرك جمال الوجود ولا يعرف ان / القبح نفسه فيه شعر وجمال وان دمامة الاخلاق فيها فرص نورانية لمن يعرف على اي اساس بنيت هذه الدنيا الفيحاء /(٦٠) .

وخادع الصوفية انفسهم بأنهم يبتعدون عن ملعونة ملعون ما فيها ، وانما هي جيفة طلابها كلاب وان السلامة فيها ترك ما فيها ، وان ما فاتهم بترك الدنيا لا يساوي كثيرا وخسارتهم بها لا تعادل شيئا انما هو شيء بسيط تافه ، قـال أبو حازم : « /انما بيني وبين الملوك يوم واحد ، اما امس فلا يجدون لذته وانا وهم من غد على وجل ، وانما هو اليوم فما عسى أن يكون اليوم / »(٦١) .

والصوفية انشغلوا عن الدنيا حتى انشغلوا عن أنفسهم وهجروا الدنيا حتى نسـوا أهليهم وأولادهم وغابوا عن الدنيا فغابوا عمن حولهم . روي عن علي بن الحسين انه كان في سجوده فوقع حريق في داره فلم ينصرف عن صلاته فسئل عن حاله فقال الهتني النار الكبرى عن هذه النار »(٦٢) .

ويحكى عن بعضهم انه كان يعبر عليه أولاده في داره فيقول أولاد من هؤلاء أولاد من هؤلاء فيقال له اولادك فكان لا يعرفهم حتى يعرّف بهم لاشتغاله باللـه تعالى(٦٣) فان له عبادا أشغلهم به عن كل شيء ولم يشغلهم عنـه شيء اذهـل

(٥٩) التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق . د. زكي مبارك ، الجزء الثاني ــ المطبعة العصرية ــ بيروت ص ١٠٧

(٦٠) التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق . د. زكي مبارك ، الجزء الثاني ــ المطبعة العصرية ــ بيـروت ص ١٠٦

(٦١) التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق . د. زكي مبارك ، الجزء الثاني ــ المطبعة العصرية ــ بيـروت ص ٨٦

(٦٢) الرسالة القشيرية في علم التصوف ــ القشيري ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت ص ٣٧ .

(٦٣) التنوير في اسقاط التدبير ــ ابن عطاء الله السكندري ــ مجمع البحوث الاسلامية العدد ٢٩ ص ٣٦٧

عقولهم عظمته ، وادهش نفوسهم هيبته فاستقر في أسرارهم وده ومحبته(٦٤) . وكان بعض المشايخ يقول في اولاده اذا رآهم هؤلاء الايتام وان كان أبوهم حيا(٦٥) .

اعلن الصوفية الزهد واظهروا الفقر ، وكما دعوا الى الزهد فقد دعوا الى الفقر وحببوا للناس الفقر وقدموه لهم بحلة التقرب الى الله والتحلي بتقوى الله وان التصوف الا تملك شيئا ولا يملكك شيء .

زهدوا بالمناصب وزهدوا بالمكانة ، وزهدوا بالمال ونظروا باحتقار اليه ، بل ان بعضهم نظر الى الزهد ذاته بعين الغضب وعدم الرضا قال الشبلي : « الزهد غفلة لان الدنيا لا شيء والزهد في لا شيء غفلة(٦٦) والزهد لا يكون الا في الحلال الموجود اما الحرام والشبهة فتركه واجب »(٦٧) .

وان اول صوفي تعمق في البحث عن عيوب النفس وآفات الاعمال واغوار العبادات هو الحارث المحاسبي وهذا الرجل الذي كان قدوة لجميع الصوفية كان من اعداء الحال ولم تكن عداوته للحال عداوة هينة لانه ضرب على الوتر الحساس حين ذكر المسلمين بفقر الرسول وهو يتحدث من فقر النبي حجة على شر الغنى واضراره بخير الدنيا والدين(٦٨) ولو ان الصوفية درسوا الطبيعة الانسانية حق الدرس لتغير موقفهم في فهم الفقر لو انهم عرفوا ان الفقير لا يصلح لقيادة النهضات الاجتماعية والسياسية والخلقية لايقنوا أن الغنى سلاح ماض في ايدي المصلحين(٦٩) وان الدعوة الى الفقر تنافي الادب وتنافي الايمان . وان الدعوة

(٦٤) التنوير في اسقاط التدبير ـ ابن عطاء الله السكندري ـ مجمع البحوث الاسلامية العدد ٢٩ ص ٣٦٦

(٦٥) التنوير في اسقاط التدبير ـ ابن عطاء الله السكندري ـ مجمع البحوث الاسلامية العدد ٢٩ ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨

(٦٦) التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق . د. زكي مبارك ، الجزء الثاني ـ المطبعة العصرية ـ بيروت ص ١٢٩

(٦٧) التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق . د. زكي مبارك ، الجزء الثاني ـ المطبعة العصرية ـ بيروت ص ١٢٩ وجاء في الصفحة ١٠٥ من كتاب التصوف الاسلامي : زارت رابعة العدوية اصحابها فذكروا الدنيا فاقبلوا على ذمها فقالت اسكتوا عن ذكرها فلولا موقعها من قلوبكم ما اكثرتم من ذكرها الا ان من احب شيئا اكثر من ذكره .

(٦٨) التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق . د. زكي مبارك ، الجزء الثاني ـ المطبعة العصرية ـ بيروت ص ١٤٧

(٦٩) التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق د. زكي مبارك الجزء الثاني المطبعة العصرية بيروت ص ١٤٩

الى الفقر هي السوس الذي قضى على عظام المسلمين وجعلهم من اذل الشعوب بعد ان كانوا من اقوى الاعزاء(٧٠) وان جانب الضعف في الاخلاق الصوفية انها تجعل الفقر مما يجب ان يرغب فيه جميع الناس ولو عقل الصوفية لعرفوا ان للفقر خلقة بشعة لا يطمع في التعرف اليها رجل كريم(٧١) .

مع انه لا يغيب عن بالنا ان هناك زهداً كريما وزهداً ساميا يطاول العلا ، انه زهد الترفع عن الثروة المجبولة بماء الحياء ، زهد الكرامة الانسانية الذي يرفض ذل التمرغ امام اعتاب المال ويغشى امام البريق الخادع الذي يكون ثمنه الانسان ذاته ، ولا يغيب عن بالنا ان هناك فقراً بفضل الغنى ويحتقر المال المصاغ من دماء الابرياء وكد المتعبين / انه فقر العفة والاباء ، الفقر الايجابي الذي يتخطى كل اغراء ، ويستهزىء بكل اغواء / .

من هنا يمكننا ان ندرك ان الصوفية حين دعوا الى الفقر والورع والزهد لم يكونوا عابثين وانما كانوا يدافعون عن الكرامة الانسانية التي لا تضيع ولا تمتهن إلا في اسواق المنافع وحفظ الكرامة هو الحجر الأول في صرح الاخلاق(٧٢) وندرك ايضا ان الصوفية الصادقين لا يؤثرون الفقر الا فرارا من المال المشوب بالشبهات والخوف على النفس والقلب والضمير من ادناس الحرام ، هو خوف نبيل لا يستشعره غير صحاح القلوب(٧٣) .

هذا ان احسنا الظن واخذنا الامر بشكل تجريدي وكطرح نظري محض لكن المنعكس النفسي والتطبيق العملي يعطيان نتائج سلبية اضرت بالحياة الاجتماعية والاقتصادية وخلفت فيهما ضعفا وتأخراً وتبعية .

واهم مظاهر معاداة الدنيا الزهد بالمال والجاه وبالتالي ترك العمل بدعوة التجرد والتوكل والمجاهدة قال يوسف بن الحسين « اذا رأيت المريد يشتغل

(٧٠) التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق د. زكي مبارك الجزء الثاني الطبعة العصرية بيروت ص ١٤٩ — ١٥٠ .

(٧١) التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق د. زكي مبارك الجزء الثاني الطبعة العصرية بيروت ص ١٤٨

(٧٢) التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق د. زكي مبارك الجزء الثاني الطبعة العصرية بيروت ص ١٥٢

(٧٣) التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق د. زكي مبارك الجزء الثاني الطبعة العصرية بيروت ص ١٥٣

بالرخص والكسب فليس يجيء منه شيء »(٧٤) وقد سئل احمد بن حنبل عن قوم لا يعلمون ويقولون نحن المتوكلون فقال هؤلاء مبتدعون(٧٥) .

وقيل للشيخ ابي مدين رحمه الله : « يا سيدي ما لنا نرى المشايخ يدخلون في الاسباب وانت لا تدخل فيها فقال « يا اخي انصفونا » : « الدنيا دار الله ونحن ضيوفه وقد قال عليه الصلاة والسلام : الضيافة ثلاثة ايام قلنا عند الله ثلاثة ايام ضيافة . وقد قال تعالى : وان يوماً عند ربك كالف سنة مما تعدون » قلنا عند الله ثلاثة آلاف سنة ضيافة عدة اقامتنا والدنيا منهـا وهو مكمل ذلك بفضله في الدار الآخرة وزائد على ذلك الخلود الدائم »(٧٦)

سال شقيق البلخي ، مرة هؤلاء الذين يتحلقون منصتين الى عظته ارايتم ان اماتكم الله اليوم يطالبكم بصلاة غد قالوا لا يوم لا نعيش فيه كيف يطالبنا بصلاته فقال شقيق فكما لا يطالبكم بصلاة غد فانتم لا تطلبوا منه رزق غد عسى الا تصيروا الى غد(٧٧) .

وكان شائعا ان من نعم الله على المصريين ان سخر لهم الاجانب يقومون عنهم بالاعمال الاقتصادية والمالية حتى يتفرغوا هم « المصريين » لعبادة الله(٧٨) فنتج عن انسحاب الصوفية من الحياة الاقتصادية ضعف وتبعية ذاقت ويلاتها العهود وجعلت الامة تتأخر عن ركب الحياة وتتخلف عن التقدم الحضاري سنين لم يعد من السهل اللحاق به واستلام زمام قيادتـه او مجاراته ، ان مسؤولية الصوفية مسؤولية تاريخية صعبة انهم يتحملون / وزر خور الامة العربية والاسلامية ويتحملون مسؤولية التخلف الحضاري بما يزينونه للناس من حب للعزلة وعزوف عن العمل والمشاركة الفعلية في عملية البناء الحضاري .

عمل الصوفية على خلق وايجاد طبقة عاطلة عن العمل ، طبقة طفيلية تتغذى من تعب الآخرين والصوفية ان لم تعمل على تأخر البلاد فانها لم تعمل

(٧٤) الرسالة القشيرية في علم التصوف — القشيري . دار الكتاب العربي بيروت ص ٩٣

(٧٥) تلبيس ابليس لابن الجوزي حققه وخرج احاديث خير الدين علي دار الوعي العربي بيروت ص ٣١٩

(٧٦) التنوير في اسقاط التدبير لابن عطاء الله السكندري ، مجمع البحوث الاسلامية العدد ٢٩ ص ٧٥ — ٧٦

(٧٧) الصوفية والاسلام — نيكلسون — ترجمة نور الدين شريبة مكتبة الخانجي ص ٨

(٧٨) العقلية الصوفية ونفسانية التصوف دار الطليعة د. علي زيعور ص ١١٧

على تقدمها . وقد بلغ الكسل بالصوفي ان عجز عن اطعام نفسه وعن فتح فمه وعن تأمين قوته ؛ قال ابن صديق دخلنا المصيصة مع حاتم الاصم فعقد انه لا يأكل منها شيئاً الا حتى يفتح فمه ويوضع فيه والا ما يأكل فقال لاصحابه تفرقوا وجلس فاقام تسعة ايام لا يأكل فيها شيئاً فلما كان في اليوم العاشر جاء اليه انسان فوضع بين يديه شيئاً يؤكل فقال كل فلم يجبه فقال له ثلاثاً فلم يجبه فقال هذا مجنون فاصلح لقمة واشار بها الى فمه فلم يفتح فمه ولم يتكلم فاخرج مفتاحاً كان معه فقال له كل وفتح فمه بالمفتاح ودس اللقمة في فمه فاكل ثم قال له ان احببت ان ينفعك الله به فاطعم اولئك واشار الى اصحابه » (٧٩) .

ان نعلق على هذه القصة وانما يكفي ان نتصور مجرياتها وتسلسلها ونتخيل جلسة الشيخ والمحاورة التي جرت بينه وبين الرجل ونقف على الصورة الكاريكاتيرية وهي اخراج المفتاح وفتحه فم الشيخ ووضع اللقمة فيه ، فان في ذلك ابلغ الوضوح والبيان للمستوى الذي وصلت اليه الامة من خلال قادتها الروحيين وموجهيها الشعبيين خاصة اذا عرفنا قيمة ومكانة حاتم الاصم في عالم التصوف .

ومما يثير الحيرة والتساؤل وجود بعض المشايخ لا يأكلون مع الآخرين ولا يعملون فيأكلون من كد يمينهم ويبقون الايام بلا طعام . ترى بانتظار من هم ينتظرون فهل يطمعون ان تأتيهم الملائكة لتطعمهم وتسقيهم ؛ لقد اقام ابو الحسين النصيبي بالحرم اياماً مع اصحاب لهم سبعة لم يأكلوا فخرج بعض اصحابه ليتطهر فرأى قشر بطيخ فأخذه فأكله فرآه انسان فاتبعه بشيء وجاء برفق ووضعه بين يدي القوم فقال الشيخ من جنى منكم هذه الجناية ؟ فقال الرجل انا وجدت قشر البطيخ فأكلته فقال كن مع جنايتك ومع هذا الرفق . وخرج من الحرم ومعه اصحابه وتبعه الرجل فقال الم اقل لك كن مع جنايتك فقال الرجل انا تائب الى الله تعالى مما جرى مني فقال الشيخ لا كلام بعد التوبة(٨٠) .

وكما انهزم الصوفية امام الحياة وانسحبوا من الدنيا يندبون ويعولون ، وعليهم مرقعات وهم جوعى ويهرشون وقد علا الذباب وجوههم والافواه ؛ كذلك

(٧٩) تلبيس ابليس ابن الجوزي حققه وخرج احاديثه خير الدين علي ــ دار الوعي العربي بيروت ص ٣٥٣

(٨٠) تلبيس ابليس ابن الجوزي حققه وخرج احاديثه خير الدين علي ــ دار الوعي العربي بيروت ص ٢٣٣

انسحب الصوفية وانهزموا امام السلطان واذ هم قد عجزوا عن مقاومته فقد هادنوه او وعظوه ورغبوه بالآخرة وذموا له الدنيا . وذلك عندما اصغى لهم الحكام واذنوا لهم بالدخول وسمحوا لهم بالكلام .

اما في عصور السيطرة والقمع فاكثر ما كان باستطاعتهم فعله انهم اعتبروا سوط الله ينتقم به وينتقم منه ، انه عذاب نازل بما كسبت ايدي الناس .

انهزم الصوفية امام الحاكم المستبد وانهزموا امام القائد الغازي ، والسؤال الذي يثير الإستغراب هو / لماذا نحاكم الصوفية ونعيرهم بانهزامهم امام السلطان ونذكرهم بانسحابهم امام المستعمر مع انهم ليسوا وحدهم من انهزم ، بل الامة كلها انهزمت ورضخت والسلاطين انفسهم انسحبوا ورضخوا واستكانوا فلماذا الصوفية وحدهم يدفعون الضريبة ، لماذا لا تتقاسم الامة كلها المسؤولية .

تتحمل الصوفية القسم الاكبر من المسؤولية وتنصب عليها سهام النقد بسبب من مكانتها ومركزها الاجتماعي القائد ، فالصوفية هم قادة المجتمع بلا منازع ولهم السيطرة الجماهيرية العامة تدين لهم بالولاء المطلق والتوجيه العام والانصياع الكامل وقد تخطى دور الصوفية القيادي دور اي فئة او تنظيم او حزب سياسي خلال اكثر العصور التاريخية لم يغلب سلطانهم الا سلطان الخليفة ، بل ان سلطان الخليفة قوي بسلطانهم وعز بتاييدهم / .

من هذه المكانة تحمل الصوفية مسؤولية الهزيمة امام السلطان ومسؤولية الانسحاب الاجتماعي ومسؤولية التقاعس عن مقاومة الاحتلال وجيوش الغزو .

مع انه يجب ان نفرق بين محاربة السلطان . ورد العدوان وانه ليس سواء من يتقاعس عن الجهاد ضد سلطان البلاد الظالم ، وبين من يقعد عن الجهاد ضد المحتل والغازي المغتصب والمستعمر الآثم .

بين من يهدد لقمته ... ومن يهدد حياته
بين من يهدد حياته ... ومن يهدد امته
بين من يهدد امته ... ومن يهدد دينه

والمتصوفة وخاصة كبارهم لم نلمس لهم حمية ، ولم نر لهم جهاداً ولم نقرا لهم استشهاداً . وانهم وان وعظوا السلطان فقد تغافلوا عن الدفاع عن البلاد امام غزوات الاعداء من تتار وفرنجة وصليبيين ، واننا إن وجدنا عذرا لمن امتنع عن مقاومة السلطان والخروج عليه والعمل على اسقاطه متذرعا باسباب كثيرة واعذار عديدة من كونه متاولاً ، او مختاراً اهون الشرين او راغبا عن توريط واعذار

في فتن داخلية يصبح فيها الحليم حيراناً(٨١) فاننا غير ملتمسين للصوفية اعذاراً عن تقاعسهم في محاربة جحافل الغزو والاحتلال وتهديد البلاد بالسقوط في قبضة المستعمر الاجنبي .

الموقف الصوفي والسلطان :

كان للصوفية حيال السلطان وحاكم البلاد موقفان سلبي وايجابي ، الموقف السلبي الذي اتخذ عدة مظاهر ، مظهر يشف عن ايجابية بينما هي في الحقيقة سلبية مقنعة وتبدت في النصح والموعظة ، ومظهر واضح السلبية تبدى بالمهادنة او السكوت او الانشغال وامتد هذا المظهر على مدى التاريخ كله ، والعهود الطويلة وهو السلوكية العامة .

أما الموقف الايجابي فقد اتخذ الصورة العملية التنظيمية التي تعمل من اجل مقاومة سلطان البلاد كعمل انقلابي تجهل برنامجه السياسي وارضيته الفكرية وقد تجلى ذلك في حركة / الحلاج / / والسهروردي / وكانت دعواتهما صرخات مكبوتة ضاعت في زحام الحياة ولقاءات ضعيفة لم تستطع ان تقف في وجه اول العقبات .

للصوفية مواقف شجاعة من خلال الوعظ ونصح الخليفة بتقوى الله ولينظر حوله هل يجد احداً من الملوك وان الدنيا لا تساوي عند الله شربة ماء ، مواعظ تخويفية تدور حول المواضيع التربوية والسلوكيات العامة دون التطرق الى العمل السياسي وخصوصية الحكم وسياسة الدولة واعمالها وقد جاء اكثرها مع هارون الرشيد الامر الذي يثير لدينا كثيراً من الشكوك والتساؤل حول صحة هذه المواعظ وهذه المقابلات مع هارون الرشيد لانه يجب الا تغيب عن بالنا الضجة الكبيرة التي اثارها الرشيد حول تقاه وهواه ، وتعبده ومجونه / والف ليلة وليلة ليست عنا ببعيد / .

والسؤال يطرح نفسه ترى هل وضع الكتاب هذه المواعظ والنصائح واختلقوها ليعوضوا بها نقص المواقف الايجابية في استنكار الظلم والانحراف

(٨١) نحن ضد التخريب والارهاب والدموية ، وضد التغيير الاحمر . لان ذلك يفتح باب الفتنة ويسوغ للاخرين انتهاج طريق القتل ، وعرفت سورية الحركات الانقلابية وويلاتها ، وعانت من العنف السياسي وشروره ، مما رسخ فينا رفض كل ارهاب وتقتيل . وجعلنا اميل الى التغيير السلمي مع اننا نفرق بين الموعظة والعمل السياسي وارجو ان تكون لنا عودة لاشباع البحث دراسة وتعميقا .

الدولة ، ام انهم ارادوا ان ينبهوا الناس بشكل غير مباشر الى ضرورة وعي الشعب ومراقبة الحكام ومحاسبتهم فاستخدموا الاسقاط التاريخي ليحركوا الواقع الحاضر ويذكوا في النفوس ملكة النقد السياسي وممارسة الرقابة الشعبية ام تراهم ارادوا ان يرفعوا عن الرشيد تهم الانحراف والمجون ليظهروه بمظهر التقي الذي يخشع لكلام الوعظ ويذرف الدموع لنصح الناصحين وكل ذلك وارد احتماله او محتمل وروده .

ويعيد الدكتور زكي مبارك شجاعة الزهاد والوعاظ الى امرين :

١ ـ شجاعة اولئك الزهاد وقدرتهم على الجهر بكلمة الحق .

٢ ـ صلاحية بعض الخلفاء والملوك لاستماع نصح الناصحين من اهل البر والتقوى واحتيالهم على من ينهاهم عن المنكر ويأمرهم بالمعروف(٨٢) .

ونحن وان كنا لا ننكر ما ذهب اليه الدكتور زكي مبارك . لكننا نرى ان السبب الاهم هو خلو هؤلاء الزهاد ، وبراءة الوعاظ من الدعوة السياسية المنظمة التي تتجه الى اساس الحكم وتعمل بشكل فعلي ضد السلطان أو ضد مراكز القوى في الدولة او العمل جهارا على مخالفة سياسة الحاكم وطريقته في ادارة البلاد او الوقوف في وجهه فقد قيل : كان سبب موت ابن عطاء انه دخل على الوزير . فكلمه الوزير بكلام غليظ فقال ابن عطاء اهدأ يا رجل فأمر فضرب بخفه على رأسه فمات منه(٨٣) .

ويضيف الدكتور زكي مبارك ان تقريب الحكام للزهاد ليس من قبيل الدين بل هو نوع من السياسة ولعله يقصد انهم بذلك يمتصون نقمة الزهاد والوعاظ ويصادرون عليهم تحركاتهم ويفرغون شحنة انفعالهم ويشتتون نشاطهم .

ولا يخفي الدكتور مبارك شكه في قصص الوعاظ للحكام ويرجح انها وضعت لغاية من غايات المعارضين ودليل هذا الترجيح عنده ان القائل مجهول والواعظ نكرة فهو احد الزهاد وان اغفال اسم الواعظ اسقاط لتأثيره واضعاف لموقفه وان الموعظة تأتي بلغة قوية جزلة وطويلة فلا يعقل ان تسمع وتحفظ من مرة

(٨٢) راجع كتاب التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق د. زكي مبارك ـ الجزء الثاني ـ المطبعة العصرية بيروت فصل الشجاعة الادبية ص ٨٦ وما بعدها .

(٨٣) الرسالة القشيرية في علم التصوف ـ القشيري ـ دار الكتاب العربي بيروت ص ١٢٩ .وجاء في تلبيس ابليس لابن الجوزي ص ٢٠٧ « ان بعض الصوفية دخل على بعض الامراء الظلمة فوعظه فاعطاه شيئا فقبله فقال الامير كلنا صيادون وانما الشباك تختلف » .

واحدة خاصة وانها جاءت دون سابق تخطيط او تحضير ودون ترتيب مسبق للقاء وثالث الاسباب ان هذا الحديث من وضع رجل ثائر كان يكره بني امية وبني العباس(٨٤) .

ويعتبر الشعراني من اكثر الكتاب الصوفية الذين دافعوا عن مهادنة الصوفية للحكام بل حض بشكل واضح على طلب الدعاء من السلاطين والامراء وكبار رجال الدولة وانه ينبغي لنا اذا اجتمعنا بسلطان او أمير أو كبير في قومه ان نسأله ان يدعو لنا ولو كان غير صالح فان الله تعالى يستحي ان يرد دعاء هؤلاء الاكابر بين قومهم ورعيتهم ويخجلهم (٨٥) .

ويصرح الشعراني انه اخذ علينا العهد ان لا نتصدر لازالة منكرات الولاة الا ان كان معنا تصريف فيهم والا آذونا ونفونا من البلاد واحوجونا الى الاستخفاء زمانا طويلا(٨٦) .

ويناقش الدكتور زكي مبارك آراء الشعراني حول هذا الموضوع بقوله(٨٧) : « وعذر الشعراني يبدو معقولا لان الواعظين لا يسمح لهم حين يقاومون الحكام . وفاته ان الراي العام يتكون من تلك الكلمات الصغيرة التي ينقلها المفكرون من مكان الى مكان واعنف الحكام واصلبهم لا يقدر على الوقوف في وجوه الناس حين يغضبون وهل تقدر وانت سيد على تلمر الخدم في بيتك ، ان الذين يصانعون الحكام الظالمين باسم السياسة وتدبر الواقب قوم جبناء يسترون جبنهم بتصنع الحكمة وبعد النظر ومرونة العقل وهذه الشمائل المصقولة لا تنبت الا في قلوب الضعفاء » .

ويحلل الدكتور علي زيعور العلاقة الصوفية بالسلطة والممنوع على طريقة التحليل النفسي من خلال رموز القصص ودلالالتها الجوانية لقصة الشرطي الظالم الذي رؤي في المنام في ثياب خضر مما يدل على دخوله الجنة مع ان الجنيد رفض الصلاة عليه يقول الدكتور زيعور(٨٨) « يرى التحليل الذاتاني (وفق العوامل

(٨٤) راجع التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق د. زكي مبارك الجزء الثاني المطبعة العصرية بيروت ص ٩٨ — ٩٩ .

(٨٥) راجع التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق د. زكي مبارك الجزء الثاني المطبعة العصرية ص ٢٥٠ نقلا عن البحر المورود ص ٢٩٢ .

(٨٦) راجع التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق د. زكي مبارك الجزء الثاني المطبعة العصرية ص ٢٥١ — ٢٥٢ .

(٨٧) راجع التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق د. زكي مبارك الجزء الثاني المطبعة العصرية ص ٢٥١ .

(٨٨) الكرامة الصوفية والاسطورة والحلم د. علي زيعور دار الطليعة بيروت ص ٢٢١ .

الذاتية) في ظهور الشرطي هنا ما يدفع للاعتقاد بأن اتجاهات داخلية في شخصية الحالم لا تسير وفق القواعد او التمثلات الاجتماعية وبالتالي فالجنيد يتصدى للسلطة أو انه يقف موقفا سلبيا منها ويخاف من اكتشافها لذلك ، لا يمثل الشرطي هنا الوازع الاخلاقي او الادبي الذي يحارب اتجاه اللص أو المذنب في النفسية وليس هو المراقبة كما يعرفها التحليل النفسي ولا الخفير على المثل والقيم انه يعبر هنا عن ان الجنيد يهتم بعالم الممنوع لا عن الانا العليا في الشخصية الصوفية . لكن التفسير الموضوعاتي اقرب للواقع اي ان القضية هنا لارتباطها العضوي بالمجتمع تظهر تجسيدا لنزعة الارجاء (عدم محاكمة السلطة بارجاء ذلك لعالم الغيب) والسلبية والتواكل ان الشرطي رغم تسلطه يدخل الجنة بعفو الله ويلبس الثياب الخضر (رمز الحياة الخالدة) في النعيم فهو بعلم الحفاظ على قيم دينية هي في خدمة الحاكمين وتقول بالايحاء والتقنع مهما فعلت السلطة فالله سيعفو عنها انه يتوب عن المطرودين والمذنبين ايضا وهذا تبرير وتنظيف لصفحة اولي الامر وفي جميع الاحوال فالكرامة هذه دعوة للإغضاء بل وللتخلي عن المطالبة بالعدل والحق ، هي ارجائية الاتجاه والتعليم مهما بدا للوهلة الاولى انها تجسد التسامح او مبادىء خلقية انها تقاوم الذهنية الايجابية والرد المباشر ومن النوافل الاشارة الى ما خلفته مثل هذه الرواية الصوفية من اواليات سلبية في الوعي الجماعي العربي انها هنا اذا وعينا بطرائق مجابهة التصوف للمجتمع تخدم السلطة وتعمق الانهزامية وتمهد للانحلالية والاستسلام المتواكل ونظراؤها من الكرامات كثير ومشدد على التجمل والصبر والتحمل وعلى انتظار الثمار الحسنة لهذا الشقار الارضي » .

ومن المآخذ التي تؤخذ على الغزالي موقفه من السلاجقة فقد قيل ان السلاجقة وخاصة في آخر عهد الغزالي ـ كانوا يحكمون بالغلبة وعلى اساس العنصرية التركية ولم يصلوا الحكم بالمبايعة ولم يتبعوا فيه نظام الشورى ومع ذلك لم يجابههم الغزالي بل وقف منهم موقفا اقل ما يقال فيه انه سلبي(٨٩) .

أما الجانب الآخر من مواقف الصوفية تجاه السلطة وهو الجانب الرافض العدائي فلقد كان للصوفية موقف معارض للسلطة موقف قام بلباس صوفي وروح ثورية خاضت غمار السياسة وعملت بشكل منظم على تشكيل قوة معارضة لكنها قاصرة عن الوعي الديمقراطي وهذا القصور ليس وقفا على الصوفية وحدها انما هو السمة العامة لكل الفترة التاريخية المعاصرة لتلك الاحداث لا تعرف من

(٨٩) الغزالي والتصوف الاسلامي ــ الدكتور احمد الشرباصي ــ دار الهلال ص ١٢١ .

المعارضة واختلاف الراي الا الخلاف الدموي وشقاق العدائي ولا حكم كالسيف الذي هو أصدق انباء من الكتب وقديما سبق السيف العذل .

ولقد تمثل هذا الموقف العدائي للسلطة في عملين سياسيين كان محور كل منهما صوفي كبير في تاريخ التصوف كل منهما صاحب مدرسة تركت آثارها وفكرها واضحا في التصوف الاول الحلاج والثاني السهروردي اللذان قتلتهما السلطة بعد ان استصدرت فتاوى المشايخ بكفرهما وحل قتلهما حتى من بعض الصوفية وبعد ان الصقت بهما التهم الشنيعة حاكمتهما محاكمة صورية تمثل قمة المأساة الانسانية(٩٠) .

ولن نكون سذجا الى الحد الذي نقبل معه الغبن فنصدق ان قتل الحلاج واعدام السهروردي كان بدافع ديني بسبب تهم في العقيدة فانه ما كان للغيرة الدينية وجود وراء عملية القتل وان السبب الحقيقي الكامن وراء ذلك كله هو خطر سياسي خشيت السلطة من تفاقمه ، ودعوة سياسية خشيت السلطة من انتشارها وعمل سياسي ـ بغض النظر عن تقييم هذه الدعوة وهذا العمل خافت السلطة من نجاحه فانتهزت له اسبابا عقائدية واخترعت له تهما فكرية ترضي الشعور الديني الشعبي وتؤمن غطاء جماهيريا يؤيد ويبارك عملية الاعدام بذريعة تخليص الدين من الهرطقة ودعوات الزيغ والزندقة وليس ادل على ذلك من ترك بقية الصوفية الذين يقولون مثل قول الحلاج ويؤمنون بما يؤمن به السهروردي ، ولو ان الناس تقتل بسبب الافكار والمبادىء التي يؤمنون بها والتي تخالف ما عليه الناس والاخرون لما بقي على ظهر الارض من احد .

لقد كان قتلهما تدبيرا وقائيا من السلطة ارادت ان تقضي به على مصادر الخوف والقلق فلقد كان الحلاج جسورا على السلاطين يروم انقلاب البلاد(٩١) ويروي امام الحرمين ـ الجويني ـ ان الحلاج كان يريد قلب الدولة والتعرض لافساد المملكة(٩٢) وكان الحلاج في نظر الخلافة العباسية هو الزعيم الصوفي الذي يهدد سلطانها ونفوذها ويؤلب الجماهير ضد مظاهر الترف والاسراف والشهوات العالية . في محافلها وقصورها(٩٣) فلقد طالب الحلاج باصلاح الادارة

---

(٩٠) الحلاج شهيد التصوف الاسلامي ـ طه عبد الباقي سرور ـ مطبعة نهضة مصر ص ٢٨ . قال الجنيد : انني ارى كثيرا من فضول الكلام فيما يقول الحسين بن منصور .

(٩١) الحلاج شهيد التصوف الاسلامي طه عبد الباقي سرور مطبعة نهضة مصر ص ١٢ .

(٩٢) الحلاج شهيد التصوف الاسلامي طه عبد الباقي سرور مطبعة نهضة مصر ص ١٣ .

(٩٣) الحلاج شهيد التصوف الاسلامي طه عبد الباقي سرور مطبعة نهضة مصر ص ١٥ .

الحكومية في جرأة غير مسبوقة ونادى باقامة حكومة اسلامية حقا ووزارة كما يقول تحكم بالحق والعدل بين الناس وهاجم عمال الخراج وطالب كما يقول بخلافة تشعر بمسؤوليتها امام الله جل جلاله مما يجعل الله يرضى عن قيام المسلمين بفروض دينهم من صلاة وحج وصيام(٩٤) .

لهذا يقول المستشرق نيكلسون في كتابه الصوفية في الاسلام « إن قتل الحلاج املته دوافع سياسية لا تعرف الرحمة(٩٥) وروى انه كان في اول امره يدعو الى الرضا من آل محمد(٩٦) وقيل انه كان على اتصال وثيق بالقرامطة ولما اكثر التطواف في بلاد الخلافة الاسلامية وهو يحمل الدعوة الشيعية والدعوة القرمطية عدته الدولة خطرا عليها وارادت التخلص منه(٩٧) وقد جاء انه كان يلازمه في سعره الشاق الطويل اكثر من اربعمائة من صفوة المريدين السالكين ولما وجه الجماهير المعتقدة بدعوته والمنضوية داخل تنظيمه الوجهة السياسية الصحيحة استطاعت ان تطيح بحكم المقتدر وتعلن ابن المعتز خليفة للمسلمين لكنها ثورة لم تنجح وخلافة لم تدم سوى يوم وليلة انهارت بعدها ومما يدلناعلى مشاركة الحلاج بهذه الثورة الامور التالية(٩٨) .

١ ـ توجيه الحلاج رسالة الى الوزير حسين حمدان الذي تولى القيادة العسكرية لابن المعتز .

ـ القاء القبض على الحلاج واتباعه كأول امر صدر فور فشل الثورة واستلام المقتدر .

اما شهاب الدين يحيى بن حبش السهروردي المعروف بالمقتول او بالحكيم المقتول قتله الملك الظاهر بن صلاح الدين الايوبي بحلب (في ٥ رجب ٥٨٧ هـ ـ ١٩ تموز ١١٩١) وعمره ثمانية وثلاثون عاما على الاغلب ويقال ان صلاح الدين نفسه أمر بقتله اما التهمة التي نسبت اليه فهي الالحاد والقول بأقوال الاقدمين (الفلاسفة اليونانيين) ولكن يبدو ان السبب الحقيقي وراء قتله

(٩٤) الحلاج شهيد التصوف الاسلامي طه عبد الباقي سرور مطبعة نهضة مصر ص ١٦ .
(٩٥) الحلاج شهيد التصوف الاسلامي طه عبد الباقي سرور مطبعة نهضة مصر ص ١٤ .
(٩٦) التصوف في الاسلام عمر فروخ ص ٦٨ وجاء في رسالة ابن القارح المطبوعة مع رسالة الغفران دار كرم بدمشق ص ١٧ عن الحلاج انه كان يظهر مذاهب الشيعة للملوك ومذاهب الصوفية للعامة .
(٩٧) التصوف في الاسلام عمر فروخ ص ٦٩ .
(٩٨) الحلاج شهيد التصوف الاسلامي طه عبد الباقي سرور مطبعة نهضة مصر ص ٦٥ .

بالصورة البشعة التي تمت بها هو انه اثار شكوك الدولة القائمة بكثرة تطوافه وبنشاطه السياسي كما كان شأن الحلاج تماما . ويؤكد لنا ذلك قول الشيخ سيف الدين الآمدي قال : « اجتمعت بالسهروردي في حلب فقال لي : لابد ان املك الارض فقلت لعلك تعني العلم فقال لا وكان لا يرجع عما وقع في نفسه ان يملك الارض فعلا(٩٩) .

موقف الصوفية من الغزو الخارجي :

كما انهزم الصوفية على الجبهة الداخلية في معركتهم ضد السلطان مع ان الصحيح لم تكن هناك اصلا معركة انما هي علاقة وموقف لهذا من الاجدر ان نقول انسحبوا من موقفهم وتخاذلوا امام الحكام والامراء كذلك فقد انهزموا على الجبهة الخارجية امام الغزو التتري وحملات الصليبيين واننا ليشتد عجبنا اذ نعلم ان حجة الاسلام ابا حامد الغزالي ــ الذي وقف نفسه وعلمه على خدمة الدين لحفظ الايمان على العامة ــ شهد القدس تسقط في ايدي الافرنج الصليبيين وعاش اثنتي عشرة سنة بعد ذلك ولم يشر الى هذا الحادث العظيم ولو انه اهاب بسكان العراق وفارس وبلاد الترك لنصرة اخوانهم في الشام لنفر مئات الالوف منهم للجهاد في سبيل الله ولو فروا اذن على العرب والاسلام عصورا مملوءة بالكفاح وقرونا زاخرة بالجهل والدمار وما علل الغزالي عن ذلك الا لانه كان في ذلك الحين قد انقلب صوفيا او اقتنع على الاقل بأن الصوفية سبيل من سبل الحياة بل هي اشد تلك السبل واسعدها .

وكذلك عاش عمر بن الفارض ومحيي الدين بن عربي في ابان الحرب الصليبية ولم يرد لتلك الحروب ذكر في آثارهما وبينما كان الافرنج يغيرون على المنصورة في مصر (٦٤٧ هـ ــ ١٢٤٩ م) تنادى المتصوفة ليقرأوا رسالة القشيري ويتجادلوا في كرامات الاولياء(١٠٠) .

والمتصوفة يعللون سلوكهم ورضاهم بما ينزل بقومهم من المصائب بأن هذه المصائب عقاب من الله للمذنبين من خلقه فاذا كان الله قد سلط على قوم ظالما فليس لاحد أن يقاوم ارادة الله او ان يتأفف منها (١٠١) .

وحتى لانبخس الصوفية حقهم فاننا لاننفي وجود مشاركة رجال التصوف في المعارك والحروب مع الافرنج والصليبيين وان لم تأتنا اخبار واسماء من

(٩٩) التصوف الاسلامي عمر فروخ دار الكتاب العربي بيروت ص٨١ــ٨٢ نقلا عن وفيات الاعيان.
(١٠٠) التصوف الاسلامي عمر فروخ دار الكتاب العربي بيروت ص ٩ .
(١٠١) التصوف الاسلامي عمر فروخ دار الكتاب العربي بيروت ص ٩ .

شارك في القتال والدفاع عن البلاد وان لم يظهر ذلك في كتبهم او تاريخهم او ادبياتهم(١٠٢) فاننا لا نستطيع نفي ذلك وان كنا نترقمه على المستوى الشخصي والمشاركة الفردية .

وقد ورد في كتاب الرسالة القشيرية(١٠٣) ذكر لمشاركة احد الصوفية في غزاة وقتال عسكر الروم لكن الخبر جاء مجردا من السياق الذي يضفي عليه اهمية بمكانة الجهاد في الاسلام وبعيدا عن الشحن الانفعالية التي تعالج مواضيع ومعاني الجهاد وجاء غفلا من اسم الصوفي الذي باع روحه ونفسه في سبيل الله وانخرط في صفوف المؤمنين الذين يقاتلون فينتصرون او يستشهدون وجاء مجردا من اسم المعركة التي دارت رحاها بين دعاة الاسلام والكفرة وان اغفال ذلك كله يضعف من قيمة الموضوع وقيمة الشاهد .

والشعراني في كتابه لواقح الانوار القدسية في بيان العهود المحمدية(١٠٤) يذكر الجهاد لكننا نراه يأخذه من الجانب السلبي او الجانب الآمن فقط الجهاد لا بمعنى المشاركة العملية في المعارك والقتال والتضحية بالنفس خاصة ، انما الجهاد بمعناه الواسع مثل الرباط ، وإخلاف القتاري في اهله خيراً او تبييت النية والدعاء بطلب الشهادة ، وما ذلك الا لان الصوفية تسيطر عليهم فكرة المجاهدة بالمعنى السلبي ايضا متناسين ان الجهاد بمعناه القتالي هو ابرز مظاهر المجاهدة وهو المعيار الحقيقي والعملي للصدق في المجاهدة لان النفس تأبى القتال وتخاف الموت ومجاهدتها تكون بالانتصار على الخوف والجبن وذلك بأن تخوض غمار المعارك والحروب . كما ان المجاهدة الحقيقية ليست بالعزلة وترك الناس وشرورهم انما بالمشاركة الاجتماعية والقضاء على الشرور وضرب المثل في الاستقامة في التعامل مع المال والعمل والناس ، ويأتي الجهاد بالنفس

---

(١٠٢) الغريب والمثير للدهشة والتساؤل ان الغزالي لم يفرد في كتابه الضخم ـ احياء علوم الدين ـ فصلا او عنوانا لبحث الجهاد في الاسلام ويرى البحاثة عمر فروخ ويوافقه الدكتور علي زيعور الى حد كبير على ان الغزالي اصيب بمرض نفسي (الكنظ) وذلك ما جعل الكتابات الغزالية متفاوتة القيمة ومرتبطة بالمرض العقلي للامام ـ كتاب العقلية الصوفية ونفسانية التصوف د. علي زيعور ـ دار الطليعة بيروت ص ١٣٠ هامش (٢) .

(١٠٣) الرسالة القشيرية في علم التصوف ـ القشيري ـ دار الكتاب العربي بيروت ص ٦١ .

(١٠٤) لواقح الانوار القدسية في بيان العهود المحمدية ـ عبد الوهاب الشعراني ـ مصطفى البابي الحلبي ـ مصر ـ ص ٢٤٧ وما بعدها .

والتضحية بالروح راس كل جهاد وفوق كل مجاهدة وهو الجهاد الحقيقي مع النفس وهو الجهاد الاكبر والكبير(١٠٥).

وكتعويض عن شعور الصوفية بالذنب لتقاعسهم عن المشاركة الفعلية في جهاد الافرنج والصليبيين الذين غزو البلاد وأسروا المقاتلين فاننا نرى الصوفية نسبوا لانفسهم مشاركة يعتبرونها شيئاً مميزا لا مثيل له ولا احد يقدر عليه وذلك ليس بالانخراط في صفوف المجاهدين وقتال الاعداء وتحقيق النصر وانما عن طريق الكرامات(١٠٦) وجلب الاسرى وفكهم من اغلالهم والقيود فقد نسبوا الى السيد احمد البدوي اختصاص انقاذ الاسرى واعادتهم الى اهليهم رغم القيود التي يرسفون فيها ورغم الحيطة والمراقبة المشددة عليهم فانه يكفي ان يلهج الاسير بالاستغاثة والاستنجاد بالسيد البدوي حتى ينقذه ويجد نفسه ملقى على منارة المسجد وقد غاب عن الوعي من الدهشة وتأثير الخطفة والطيران(١٠٧) وذكر السبكي أن الشيخ عز الدين بن مهذب السلمي الدمشقي ورد على مصر فلما كانت وقعة المنصورة ورأى حال المسلمين نادى بأعلى صوته

---

(١٠٥) قال شيخ الاسلام الامام ابن تيمية رحمه الله تعالى : واما الحديث الذي يرويه بعضهم انه قال في غزوة تبوك « رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر » لا اصل له ولم يروه احدمن اهل المعرفة باقوال النبي صلى الله عليه وسلم وافعاله . راجع كتاب التصوف بين الحق والخلق ـ محمد فهر شقفه ص ١١٨ وجاء في الهامش .. قال الحافظ ابن حجر في تسديد القوس عن حديث (رجعنا من الجهاد الاصغر ..) هو مشهور على الالسنة وهو من كلام ابراهيم بـن عبلة وقـال الوالي رواه البيهقي بسند ضعيف عن جابر . نقلا عن عوارف المعارف على هامش الاحياء ج (١) ص ٥٦ .

(١٠٦) الاعتقاد في الكرامات عزاء كبير للفقراء فهم يخلقون لانفسهم دنيا من المجد الموهوم يعوضون بها ما ضاع عليهم من حظوظ الحياة ومن المؤكد أن هذه الوساوس لا تسود الا في عصور الضعف السياسي والاقتصادي حين تصبح الامة وهي فارغة الايدي من سلطان الجاه والمال ومن ذلك راينا المسلمين في عصور قوتهم لا يعرفون غير الواقع مع ان الصلاح كان من اغلب الصفات ثم رأيناهم في عصور الانحطاط يصدقون كل شيء ويلقون زمامهم الى كل مخلوق عساهم ينسون ما هم فيه من شظف العيش ونكد الشقا .. التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق د. زكي مبارك الجزء الثاني ـ المطبعة العصرية بيروت ص ٢٣٥ .

وسوف ندرس ظاهرة الكرامات الصوفية والارتباطات الاوليائية مـن خلال المدارس الاجتماعية وعلى النفس التحليلي .

(١٠٧) السيد احمد البدوي د. سعيد عبد الفتاح عاشور ـ اعلام العرب العدد ـ ٥٨ ـ ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

مشيرا الى الريح ، يـا ريح خذيهم فعادت الريح على مراكب الفرنج فكسرتها وكان الفتح (نصر المسلمين) وغرق اكثر الفرنج(١٠٨) .

وفي ختام بحثي اني لارجو كما رجا الدكتور صادق جلال العظم « ان يكون التفكير العربي الواعي قد وصل الى مرحلة تجاوز فيهـا اعتبار النقد مجرد عملية تجريح او تعداد لعيوب ومتاعب ونقائص لا تنتهي . أي ان يكون قد حقق مستوى يعتبر على اساسه النقد انـه التحليل الدقيق بغيـة تحديد مواطن الضعف واسباب العجز والمؤثرات المؤدية الى وجود العيوب والنقائص ؛ وكل نقد يلتزم بهذا المفهوم لا بد ان يكون هادفاً في تدرجه ، وايجابيا في حصيلته مهما بدا لاول وهلة سلبيا وقاسيا(١٠٩) .



(١٠٨) التصوف في الاسلام عمر فروخ دار الكتاب العربي بيروت ص ٩ .
(١٠٩) النقد الذاتي بعد الهزيمة ــ الدكتور صادق جلال العظم ــ دار الطليعة بيروت ص ٧ .

←

مصادر ومراجع البحث

ابن الجوزي : تلبيس ابليس .. حققه وخرّج احاديثه خير الدين علي ـ دار الوعي العربي بيروت .

ابن عطاء الله السكندري: التنوير في اسقاط التدبير ـ مجمع البحوث الاسلامية ـ العدد/٢٩/ .

ابو العلا عفيفي : التصوف الثورة الروحية في الاسلام ـ دار الشعب بيروت .

احمد الشرباصي : الغزالي والتصوف الاسلامي ـ دار الهلال .

د. زكي مبارك : التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق الجزء ١ ـ ٢ المكتبة العصرية بيروت.

د. سعيد عبد الفتاح عاشور : السيد احمد البدوي ـ اعلام العرب العدد ٥٨ .

د. صادق جلال العظم : النقد الذاتي بعد الهزيمة ـ دار الطليعة ـ بيروت .

طه عبد الباقي سرور : الحلاج شهيد التصوف الاسلامي ـ مطبعة .

عبد الباري النووي : بين التصوف والحياة ـ مكتبة دار القلم .

عبد الوهاب الشعراني : لواقح الانوار القدسية في بيان العهود المحمدية . مصطفى البابي الحلبي .

د. علي زيعور : العقلية الصوفية ونفسانية التصوف ـ دار الطليعة ـ بيروت .

د. علي زيعور : الكرامة الصوفية والاسطورة والحلم ـ دار الطليعة ـ بيروت .

عمر فروخ : التصوف في الاسلام ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت .

الغزالي : مكاشفة القلوب المقرب الى حضرة علام الغيوب ـ مكتبة الجمهورية العربية ـ مصر.

القشيري : الرسالة القشيرية في علم التصوف ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت .

محمد الغزالي : كيف نفهم الاسلام ـ دار الكتب الحديثة ـ مصر .

محمد ياسر شرف : حركة التصوف الاسلامي ـ منشورات وزارة الثقافة السورية .

نيكلسون : الصوفية في الاسلام ـ ترجمة نور الدين شريبة ـ مكتبة الخانجي .

اليافعي : روض الرياحين في مناقب الصالحين .

★ ★ ★

الدراسات والبحوث

نموذج فيزيائي للتصرف أو معادلة السعادة

باسل فرحات

مقدمة :

لا يزال تفسير الظواهر النفسية ممتنع على التفكير الرياضي الاستنتاجي ، كما هو حال سواها من فروع العلم ، ولذا « فان هنالك فراغا في هذا النوع من العلوم ينتظر نموذجا يصيغه الحدس ، معتمدا المنطق التجريبي » بوانكاريه ، مملئا لهذا الفراغ ، افترض نموذجا يفسر فيزيائيا نفسية الفرد بدوافعها وامكانياتها ، مما يمكننا من فهمها قياسيا وموضوعيا .

المدخل :

ان حلم كل عالم وفنان ـ وهذه الاحلام الايجابية هي من العوامل الرئيسية في التطور ـ هو مجتمع منسجم ديناميكي وسعيد. والسبيل الى تحقيق هذا الحلم هو اكتشاف نموذج تنتظم فيه المعلومات المعاصرة ، يساعدنا على فهم دوافع التصرف وكيفية تفاعلها ، مما يمكننا من التدخل فيه ، تدخلا واعيا والتحكم فيه ، لان من أراد التحكم بالطبيعة وجب عليه اكتشاف قوانينها والرضوخ لها (برجسون) .

ولما كانت الطبيعة مكتوبة بلغة رياضية (غاليليو) « صار حلم كل عالم بحاثة هو ان يضع الظواهر في معادلات » ، الا ان الظواهر النفسية ، الفردية منها والجماعية ، لم يطلها الاسلوب العلمي الرياضي الاستنتاجي ، لانطباعنا الخاطىء باننا امام ظاهرة نظامها الاساسي عدم التحديد ، بينما الواقع هو اننا امام ظاهرة نظامها صعوبة تحديدها عمليا ، وليس عدم قابليتها للتحديد. ولذا « فمن الضروري ان نذكر هنا انه حتى الفيزياء نفسها لم تصل مباشرة الى مستوى الاستنتاج الرياضي ، بل تطورت بشكل تراكمي ، مارة بكثير من التفسيرات الخاطئة ، ولكنها كانت تتقدم باستمرار ، مما شجع « سيدمان » على ان يكتب : احب ان ارى علم النفس يحرق المراحل » . ولانه « من المسلم به انه يجب ان تكون جميع الانظمة الحياتية مبنية على مبادىء فيزيائية كيميائية ، وسيتم اثبات هذا بالتدريج » . اذن لا بد ان « نضع نظاما ما يزال غير ملموس حيث الفوضى ظاهرة مباشرة . » وهذا النموذج المقترح هو محاولة لحرق المراحل واكتشاف نظام لما نعتقده فوضى .

واذا انسجم هذا النموذج ومعطيات الواقع ، سيمكننا من نقل العلوم الانسانية الى علوم صحيحة متى فككنا طلاسم سجل تجارب الحياة ومعلوماتها المكتوبة في مورّثات الاحياء ، بأبجدية الكهارب ولغة الكيمياء ، فيتحول المجهول الى معلوم ، ونكتشف نظاما حيث نرى فوضى ، ونفهم الظواهر النفسية بالاستنتاج والقياس ، مما يمكننا من التحكم في تصرفنا، اذ « ان الفائدة الوحيدة لجميع العلوم هي انها تمكننا من السيطرة على الظواهر المقبلة وتوجيهها لما نرغب بواسطة اسبابها » (هوم) .

ولتحقيق ذلك يكفي أن نعترف ان التصرف ظاهرة طبيعية علينا ان نجد تفسيرها ضمن النظريات العلمية السائدة ، والا بطلت هذه النظريات اذا قصرت

عن تفسير جميع الظواهر ضمن « نموذج يتألف من شبكة منسجمة منطقيا من المفاهيم التي تجمع بين المعطيات والملاحظة » .

ومن المفيد ان نذكر هنا ، باختصار تطور المعرفة وتفسيرها ، للتأكد بأننا بحاجة الى اكتشاف قوانين فيزيائية للتصرف اذ تتطور المعرفة من ملاحظة الظواهر ، الى تصنيفها ، ثم تفسيرها بنموذج يضع نظاما يمكننا من فهم تسلسلها والسيطرة عليها والتحكم فيها .

بدأ الانسان يفسر ظواهر الكون بنموذج ميثولوجي (خرافي) ، فتخيل ان لكل ظاهرة سببا مستقلا ، يتلاعب به واحد شبيه له ، فكانت الآلهة التي تلهو بالطبيعة اعتباطا . وبتراكم الخبرات والمعلومات ، ظهر أفراد ذوو عقليات قادرة على التجريد والتفكير الشمولي ، انما لا يزالون ذاتيين في مراجعهم وأحكامهم ، فتخيلوا نظاما مثاليا يتزايد انسجاما وشمولا ، مكنهم « بالمنطق السائد » أو النموذج المتبع ، من تفسير سبب ومصدر وحتى غاية الظواهر والوجود . فكان عصر الفلسفة التي مدت سلطانها على فروع المعرفة بسعة ويقين يتناسبان وشمول النموذج الفلسفي المقترح . هكذا كنا في القرون الوسطى .

ثم ظهر بالتتابع أفراد ذوو عقليات تحليلية ، موضوعية ، نقادة ، فحاولوا فهم كل ظاهرة ، ليس بمنطق النموذج السائد ، ولكن حسب نتائج التجارب التي غالبا ما أوصلت الى استنتاجات تخالف كلية التفسيرات السابقة ، ففتحت فجوات خطيرة في المسلمات والمعتقدات السائدة ، أدت الى اهتزاز وانهيار المفاهيم « المنطقية » ، مما نتج عنه تغيير وانقلاب في الانظمة الاجتماعية السائدة المبنية على هذه المفاهيم وقويت بالتدريج سيطرة التجريد المنطلق من الواقع ، فازداد تأثير العلماء ، مما شجع ظهور أفراد ذوي عقليات شمولية ، تخيلوا بالحدس نماذج نظرية مكنتهم من تفسير مجموعة أوسع من الظواهر ، وبدقة متزايدة ، فكانت نظريات الجاذبية والنسبية والكمومية .

الا ان حقل العلوم الاستنتاجية الرياضية بقي مقتصرا على الظواهر الفيزيائية وبعض الظواهر الحياتية ، تاركا الظواهر النفسية بعيدة عن هذا التفكير ، وذلك لنسبية صعوبة تفسيرها ، ولكن « جميع الانشطة الانسانية سيوضحها يوما البحث العلمي وفق معلوماتنا المعاصرة » ولذا فان شريحة كبيرة من الدارسين في هذا الحقل وثقوا « ان علم النفس ، ليكون موضوعيا ، يجب ان يبنى على الملاحظة ، وان يفسر بنموذج يكتشف نظاما حيث نعتقد بوجود مجرد صدفة وفوضى ، لان ملكة اكتشاف نظام للظواهر هي مظهر أساسي للتفكير

التجريدي » . « ونصل الى هـذا الهدف من خلال نموذج ينقلنا من مفهوم اللغة المنطقية الى مفهوم اللغة التجريدية لبقية العلوم » ، وبناء على ذلك يصح القول « بأن الفيزياء وعلم النفس هما مظهران مختلفان لحقيقة واحدة ، نراها من زوايا مختلفة » .

وسبيلنا للوصول الى هذه اللغة التجريدية هو نموذج مبني على النظريات الميكانيكية والنسبية والكمومية ، لانها تتكامل ولا تتنافى ، كما يحدث للمناهج الفلسفية المثالية . وهكذا فانه « لاجل قصير أم بعيد ، فان الفيزياء النووية وعلم اللاوعي سيقتربان باستمرار ، لان كليهما يسيران نحو حقل تجريدي وان استقل كل منهما عن الآخر ، وسارا في اتجاهين متناقضين ، فمحاولتنا اليوم قد تظهر تهورا ، ولكني واثق اننا في الاتجاه الصحيح » ولذا « فان جميع افكارنا المؤقتة في علم النفس ستبنى يوما على قاعدة عضوية .

« الا ان النموذج المقترح ، اي نموذج ، مهما ظهر بانه غير منطقي ، لا بد من تجربته ، لان جميع اعمـال العلم الابداعية اوصلته الى فرضيات ، غالبا ما خالفت المعطيات التي بدات بها . » و « لان منطق الاختراع غالبا ما يشكل رفضا للمنطق المتداول . » « لذا صار من الافضل اهمال كل نماذج الماضي ، لان النموذج الجديد ليس بتحسين للقديم . » و « لأنه لا يوجد اي اسـلوب منطقي يوصلنا الى معرفة قوانين الكون . »

النموذج :

تطوّر الانسـان ، خلال الزمن ، حيوانا اجتماعيا ، فتوزع بين دافعين ، متناقضين ظاهرا ، متممين لبعضهما فعلا ، هما الدافع الفردي والدافـع الاجتماعي ، مثبتا « ان مشكلة الحياة الصعبة هي انها تتطلب ، باستمرار ، التوفيق الحيّ بين الاضداد ، والتي لا يمكن التوفيق بينهـا بالمعنى الضيق للمنطق » ، ويشكل هذان الدافعان توازنا ديناميكيا ــ بين معلومات المورّثات شبه الثابتة ، المتغلبة نصيبا ، وبين ثقافة متراكمة ــ حصيلته التصرف .

فالتصرف ظاهرة لنشاط جسم حي يتألف من اعضاء ، تشكلها خلايا ، قوامها جزيئات تتألف من ذرات ، يلازمها حقل كهرطيسي ، فالتصرّف ظاهرة ، ككل الظواهر ، من المجرة الى الكهرب ، قوامه حقل كهرطيسي يرمز فيه الى الدافعين ، الفردي والاجتماعي ، خطان متقاطعان ، يرمز الشاقولي منهما الى الدافع الفردي ، نجد في منطقته السالبة الغريزة ، التي هي ضمان دوام

الفرد والنوع، ونجد في منطقته الموجبة الذكاء ، وهو المقدرة على تحديد هدف وتخيل مخطط والمقدرة على تنفيذه ويرمز الخط الافقي الى الدافع الاجتماعي تمثله العاطفة في المنطقة السالبة ، وهي تضامن لا واع ، عفوي ، مع الغير ، ويمثله الوجدان في المنطقة الموجبة ، والذي هو موقف واع ، هادف ، لفائدة المجتمع ، افراد و جماعة ، ويتسع مفهوم المجتمع عند الفرد بنسبة تطوره ؛ فكلما ازداد تخلفا ، ضاقت حدود مجتمعه وتصلبت ، وكلما ازداد تطورا ، اتسعت حدود مجتمعه بمرونة ، وتنتقل في هذا الحقل الكهرطيسي « نقطة » ــ قد تكون حقلا مركزا ــ هي محصلة تفاعل الوظائف الاربع ، ترمز اليها خطوط تبتدأ من نقطة ١ ــ ٢ ــ ٣ ــ ٤ في المدار وتتقاطع اما ضمنه او في اقصاه ــ انظر الرسم .

وتسهيلا للدراسة يمكننا تسمية هذه الظواهر الاربع ــ الغريزة والذكاء والعاطفة والوجدان ــ بالوظائف الرئيسية . ولذا فان هذا النموذج يؤيد الراي « ان الحدس والاستنتاج يشكلان زوجا من المتناقضات ووظيفتين متكاملتين » .

ويتكون مدار المرء عند اندماج الخليتين الجنسيتين للوالدين ، وفي كل منهما ٢٣ صبغية ، تحوي كل واحدة منها عددا فلكيا من المورثات ــ معلومات الحياة ــ « وينتج عن هذا الاندماج اكثر من الف مليار احتمال » ، محددا بالتالي فردية الانسان الجديد وامكانياته وحاجاته . ولذا فمن المستبعد جدا ان نجد في الناس ، وعددهم يقارب ٦ مليارات نسمة ، فردين ذوي مدارين متطابقين . وتحمل هذه الخلية الجديدة معلومات الحياة منذ وجدت ، مكتوبة برموز الحامض النووي ــ ا ، د ، ، ن ، ــ والتي تنتظر شامبوليونا جديدا(*) يفك رموزها ، مثبتا بذلك « ان الانسان يحمل كل تاريخه وتاريخ الانسانية والحياة » .

فهذه الخلية الجديدة ، التي تحدد مدار الفرد بتوزيعها الوظائف الاربع تحدد بالتبعية ، فرديته ونفسيته ، بما فيها من واع ولا واع ودوافع وامكانيات وحاجات ، مؤيدة بذلك القول « لا يمكنني ان افسر مسبقا الاسباب التي تحملني على اعتبار هذه الوظائف اساسية » .

وتحسن الملاحظة هنا ان اندماج الخليتين لا يشكل مزيجا او خليطا ، بل مركبا ، مما لا يمكننا اليوم ، من اي تدخل فيه لتغيير شخصية الفرد . ولذا

(*) العالم الفرنسي الذي فك رموز اللغة الهيروغليفية المصرية القديمة .

« فمن الثابت اليوم أن تغيير مقومات الفرد تلحق ضـررا بحسـن السير الفيزيولوجي للجسـم » .

ولغلبة وظيفة او وظيفتين في المدار ، صار هذا المدار اهليلجي الشكل ، واتسم التصرف دوما بالتوتر النسبي وعدم التوازن بين الوظائف . فكلما اقترب المدار ، اذن ، من الدائرة ازداد التصرف اتزانا وهدوءا .

فالنموذج المقترح هو حقل كهرطيسي ، فيه مدار اهليلجي ، ضمنه ، في مكان ما ، « حقل مركز » وخطان متقاطعان عاموديا ، احد محرقي المدار ثابت على نقطة تقاطع الخطين ، والمحرق الآخر على نقطة ما من الحقل الكهرطيسي على مدار حلزوني ، محرقه كذلك على نقطة تقاطع الخطين ، والمحرق الثاني للمدار يتحرك قليلا بتفاعله مع البيئة (انظر الرسم) .

ان ابعاد محوري المدار ، ومكان محرقه شبه المتحرك ، ونظام حركة نقطة « الحقل المركز » في المدار ، تحدد ، في كل لحظة ، التفاعل بين وظائف الفرد الاربع ، مما يحدد تصرفه ، بتغلب وظيفة او وظيفتين ، ويجعل من كل فرد نظاما او مجموعة مستقلة ، له مراجعه الخاصة ، وارتكاساته ، وقيمه المميزة فاذا ما يعتبره الواحد صحيحا او عادلا ، قد يعتبره سواه جهلا او ظلما .

وبما ان الافراد يختلفون في موروثاتهم ، ولو قليلا ، كان لكل فرد مدار يختلف عن سواه ، فصار يختلف عن سواه في الحاجات والامكانيات فالمواقف . ولما كان النجاح والسعادة هما حصيلة انسجام الفرد مع بيئته ، صار لزاما ، ليكون المرء ناجحا او سعيدا ، ان يقدم له المجتمع بيئة خاصة بمداره .

فالتصرف اذن ظاهرة مصدرها تفاعل المرء مع البيئة وفق المعادلة التالية :

المدار + البيئة ← التصرف

ولما كان هدف التربية والتوجيه والثقافة هو التحكم في التصرف ، لتامين سعادة الفرد ونجاحه في مجتمع منسجم هادف لسعادة الجميع ، ولما كان المدار ثابتا ، ولا يمكننا التحكم فيه ، صار لزاما علينا تغيير بيئة الفرد بما يتناسب ومداره لنصل الى التحكم في التصرف .

ان هذا النموذج يفسر دوافع التصرف الانساني في جميع مظاهره واطواره ، العادي منه والطارىء ، الـواعي منه واللاواعي ، الفردي منه والجمـاعي ، كما يلـي :

من كان المحرك المتحرك لمداره على خط الغريزة ، كان مسيرا بدوافع اللذات المباشرة ، ميزته الحاجة الى التمتع المباشر باللذات ، وقلة الشعور بالغير .

ومن كان المحرك المتحرك لمداره على خط العاطفة ، كان ساذجا ، يثق بالغير بغفلة ، حاجته ارضاء الغير ، مما يعرضه للاحباط والتعلق بالوهم .

ومن كان المحرك المتحرك لمداره على خط الذكاء ، غلبت عليه القدرة على فهم تسلسل الظواهر والتحكم في هذا التسلسل لاستغلال الواقع لمصلحته .

ومن كان المحرك المتحرك لمداره على خط الوجدان ، غلب عليه التمسك بالقيم السائدة ، مع محاولة فرضها على الغير .

ومن كان المحرك المتحرك لمداره بين خطي الوجدان والغريزة صار في مجال سالب ، يغلب عليه التصرف اللاواعي ـ الاندفاع ـ فهو مسير باللذات والاخلاق ، ميزته التسليم بالقيم المتعارفة وعدم الشعور بالضمان ، وبالتالي التعلق برمز او عقيدة او زعيم ، واغلب الناس بمدارهم في هذا الحقل .

ومن كان المحرك المتحرك لمداره بين خطي الغريزة والعاطفة ، صار في مجال موجب ، تغلب عليه التصرف الواعي ـ الارادة ـ والقدرة على فهم القيم الضمان ، فهو استغلالي محافظ ، ونجد في هذا الحقل قادة المجتمع ، من اصغر تنظيم الى اكبره ومن ابسطه الى اكثره تعقيدا .

ومن كان المحرك المتحرك لمداره بين خطي العاطفة والذكاء ، صار في مجال سالب : فهو متوتر ، شديد الحساسية ، سريع الالتقاط ، سهل التواصل ، تغلب عليه الغرابة والذوق الفني والاستقلال في تقييم الظواهر الاجتماعية .

ومن كان المحرك المتحرك لمداره بين خطي الذكاء والوجدان ، صار في حقل موجب ، تغلب عليه التصرف الواعي ـ الادارة ـ والقدرة على فهم القيم والنظريات لمقدرته على التجريد ، اعلى مراحل التفكير ، مما يجعل منه قيما على المجتمع .

تنطبق هذه الصفات على افراد ومجتمعات محافظة ، تكاد ان تكون متوقفة الزمن ، الا انه يظهر احيانا ، بالصدفة ، افراد يتجاوزون بيئتهم تسارعا وتطورا ، مع سعة المدار نسبيا ، وغلبة الذكاء والوجدان فيه ، فيشككون بالمعلومات والمفاهيم السائدة ، ويحاولون التأكد من صحتها او صلاحيتها

بالملاحظة المباشرة والاختبار . وغالبا ما يكتشفون فيها فجوات واخطاء تحملهم على اكتشاف نماذج فكرية ونظريات وقوانين جديدة ، فيصيرون روادا للتغيير في المجتمع ، الذي ، لجموده ، — وفق قانون العطالة — يقاومهم حتى بالعنف ولكنه يضطر الى أن يلحق بهم ، فيدخل في مرحلة تطور وازدهار .

كما تظهر في فترات زمنية ، غير قابلة التحديد اليوم ، جماعة قليلة من الناس ، واسعة المدارات يغلب عليهم تفاعل الوجدان مع الذكاء ، فيتحررون من كل تقليد ثقافي او جماعي ، ويطبعون المجتمع بهذه السمات ، بعد ان يقدموا له مراجع جديدة ونموذجا للحياة أفضل من السابق .

وهذا التسارع — ويسمى ثورة — يعوض على المجتمع ما فاته من الزمن ، بالنسبة لتامين حاجاته الجديدة ، او لما سبقته اليه مجتمعات أخرى من تطوير علمي فإنساني . وغاية هذه الجماعة هي زيادة ضمان ورفاه اكبر عدد من الناس ، ضمن قانون الحياة الاساسي وهو : تنظيم متزايد بوعي متزايد .

وينتج عن هذا التسارع في التطور تحول كبير في التصرف الانساني : ينقل المجتمع بكامله ، الى بعد جديد في الزمان — مكان (رسم ٢) فتتغير معطيات المدارات كما يلي :

في الخط الشاقولي ، يضعف تأثير غريزة الضمان ، مما يجعل الافراد اكثر تقبلا للتغييرات ، ولو كلفهم ذلك الكثير من التضحيات ، فينشط دافع الحياة — الغريزة — ليرافق الانطلاقة ، طمعاً بالمزيد مما يرغبون ، ويتحول الذكاء الى مصدر نشيط للتخيلات الايجابية ، التي هي مصدر الاكتشافات والاختراعات والفرضيات والنظريات في جميع حقول المعرفة .

ويغلب في الخط الافقي دافع تحسين النوع ، فتتحول العاطفة الى تضامن مع الغير ، وشعور بالانسجام والجمال ، فيكثر المفكرون الاحرار والفنانون المبدعون ، وينتقل الوجدان الى حالة « الحدس » الذي بامكانه اكتشاف امكانيات في المعطيات مما يؤهل الرواد — الثوار والانبياء — من استشفاف واكتشاف اتجاهات ونماذج جديدة للمجتمع .

وينتقل الذين مدارهم على الخط ب ج من المحافظة على النظام السائد الى التعاون على ادارة النظام الجديد ، فيغلب في القسم ب ا اهل البحث والتوجيه ، وفي القسم ا ج الخبراء الذين يسهرون على تنفيذ المخطط الجديد .

وينتقل الذين مدارهم على الخط د هـ الى التعاون مع النظام الجديد ، فيكثر في القسم د ا الفنانون المستقلون الموجهون ، ويغلب في القسم ا هـ افراد مندفعون لمرافقة الانطلاقة الجديدة .

فيصبح المجتمع ديناميكيا ، نشيطا ، شغوفا بالمستقبل ، لا يقيده منطق متجاوز ، ولا معقول متعارف ، مرجعه الاوحد هو مصلحة وضمان وتطور الافراد ، في مجتمع هدفه اكتشاف الفرديات المتميزة وتنميتها ، ضمن نظام ينبع من غلبة تفاعل الذكاء مع الوجدان .

النتيجة :

ان اول استنتاج يوصلنا اليه هذا النموذج القائل بان الدافعين الاساسيين ـ الفردي والجماعي ـ وما ينتج عنهما من وظائف رئيسية اربع ـ الغريزة والعاطفة والذكاء والوجدان ـ وتفاعلهما مع بعضهما ، يحدد شكل وحجم وموقع المدار هو : ان كل فرد فيه من كل ما في سواه من الافراد ، الا أن توزيع هذه الوظائف ضمن مدار فريد يحدث تركيبا فريدا ، وليس خليطا ، يمكن المربي او الطبيب النفسي ان يتدخل فيه ؛ وذلك للمبدأ التالي : كل مجموعة لها صفات تختلف عن صفات الاجزاء التي تتركب منها . والاستنتاج الثاني هو : ان كل فرد يحمل فردية مختلفة مدى الحياة ، شبه ثابتة ، قد تشوهها بيئة غير ملائمة لها ، او تسارعها بانسجام بيئة مناسبة لها .

فمتى اكتشفنا مدار الفرد ، صار ممكنا استنتاج نفسيته وحاجاته وامكانياته ، اي متى اكتشفنا الطرف الاول من القسم الاول من معادلة السعادة وهو المدار ، وحددنا نتيجة المعادلة ، وهي النجاح او السعادة ، صار من الممكن اكتشاف الطرف الثاني من القسم الاول من المعادلة ؛ اي بيئة خاصة بكل مدار تمكنه من التكيف والتصرف واعيا ، في مجتمع دائم التحول .

ومتى تمكنا من تأمين بيئة مناسبة لكل مدار ، اي لكل فرد ، خف تدريجيا وبتسارع متزايد ، ظهور الخلافات والصدامات ، الفردية والجماعية ، فتتسارع المدنية تطورا ، حيث يؤمن المجتمع لكل فرد الحد الاقصى من حاجاته ، ويساهم الفرد بالحد الاقصى من امكانياته في المجتمع لصالح كليهما .

تعليق :

اذا صح هذا النموذج ، والى ان يأتي افضل منه ، تحتم علينا اكتشاف جهاز ـ وهذا امر ممكن ، ككل الاكتشافات ، وان كان غير متصور اليوم ـ يعطينا مدار الفرد ، اي صورته النفسية ، مما يمكننا من تحديد

شخصيته ، بالنسبة لسواه ، ومعرفة مقدار امكانياته من التأثر بالبيئة والتأثير فيها ، والارجح ، ان التفاعل بين المدارات خاضع لقانون الجاذبية ، فيما يتعلق بالابعاد والاحجام ، فكلما كان المدار كبيرا وواسعا ، كان تأثيره في البيئة أقوى واشد من تأثره بها ، والعكس صحيح ، فكلما كان المدار صغيرا وضيقا كان تأثره بالبيئة اقوى من تأثيره فيها . ونكتشف : بالتبعية ، انسجام الفرد مع غيره ، بنسبة ما بينهم من حقل مشترك في المدارات .

ومتى وصلنا الى هذه المرحلة من التقنية ، يصير بامكاننا نقل العلوم الانسانية الى مستوى العلوم الصحيحة ، في الدقة والاستنتاج والتطبيق ، فيزول ، تقريبا ، الراي الذاتي في علمي النفس والطب ، لاننا سنكتشف ، على الارجح ، في المدار اسباب الاضطرابات النفسية والعضوية ، كما ينتهي في حقل التنظيم الاجتماعي التعسف وسيطرة الاقلية او الاكثرية ، المبنية دوما على آراء ذاتية ، اذ لن يصل الى ممارسة السلطة في المجتمع العلمي الانساني الا من كان مداره مؤهلا له لهذا العمل ، وبعد ان يحصل على الثقافة المؤهلة لممارسة هذا العمل .

أما في العلاقات الانسانية ، الفردية والعامة ، فستصرع عملاق الصدفة والحظ ، بعد أن صرعنا منذ وجدنا ، ابتداء من ابسط الصداقات والزمالة ، مرورا بالزواج ، حتى انتقاء المساعدين والحكام .

وسنلجا الى التخطيط العلمي لصياغة برامج التعليم والتوجيه والحكم . فنبدأ عصر التطور الواعي ، ونقضي على اسباب الاضطرابات والتعقيدوالفشل والاعتداء ، الفردي منها والجماعي .

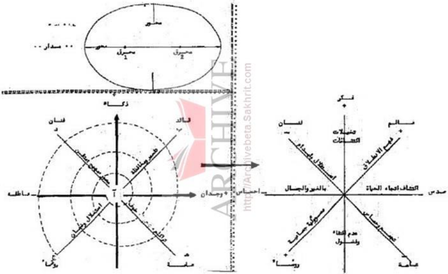
اما في حقل تنظيم المجتمع ، فسيمكننا هذا النموذج ، ان صح ، على تجاوز الاتفاقات القانونية والاخلاقية ، الناتجة عن التجارب والاستقراء ، لنكتشف النظام الموضوعي واخلاق العلم ، حيث نصف موقفا ما بالقانوني او الاخلاقي اذا كان مفيدا للمجتمع ، وبالاجرامي او اللااخلاقي ما كان مضرا به . « وعندئذ يشعر الانســـان أن أساس الاخلاق هو ذاته ، وقوتها هي جزء من طبيعته ، وليست مفروضة عليه من الخارج . » فيســن دساتيره وقوانينه وقيمه ضمن هـذا المفهوم الجديد ، فتنتقل ادارة المجتمع من السياسيين المحترفين والمرتزقة الانتهازيين ، بالنسبة لهذا النموذج ، الى العلماء والحكماء الذين يبدعون نمــاذج جديدة وذوي مدارات واســعة ، يغلب فيهـا الذكاء والوجدان ، والمزودين بثقافة مناسبة ، يساعدهم الخبراء الباحثون والفنانون

المبدعون المعاصرون ، لتصبح السلطة وليدة الاستعداد المسبق لذوي الحساسية مع الغير والتضامن مع المجتمع ، هذا الاستعداد الذي تحدده مورثات المدار .

وهذه النظرة ، وان بدت مثالية ظاهرا ، تنسجم مع القول « اعتقد ان فهم العالم اليوم من خلال الفيزياء الحديثة لا يتلائم والمجتمع الحالي ، الذي لا يعكس حالة التفاعل المتبادل الذي نلاحظه في الطبيعة . ولكي نصل الى هذا التوازن الديناميكي ، علينا بايجاد نظام اجتماعي واقتصادي يختلف تماما عن النظام الحالي ، اي علينا ان نقوم بثورة ثقافية ، بالمعنى الصحيح لهذا التعبير » ، وهذا يؤيد قول كارل ماركس « ان المفكرين اولاد الفيزيائيين » . « فالفيزيائيون بامكانهم اذن ، ان يقدموا لنا الراسمال العلمي لتغيير مواقف وقيم مجتمعنا ، بالسرعة التي نحتاجها ، وفي نظام يسيطر عليه العالم ، يصير من الاسهل علينا اقناع مؤسساتنا الاجتماعية لتقبل تغييرات جذرية ، اذا بنينا ادلتنا على قاعدة علمية » .

وسيكون هذا المجتمع الديناميكي شغوفا بالمستقبل ، مسلحا بالمعرفة الموضوعية ، أولى افضلياته تأمين مستوى من المعيشة يتحسن تصاعديا لجميع افراده ، يدفع بالانسان ، من خلال المجتمع ، الى تطور متسارع ، بينما لا نزال نسير اليوم ، بنفسية اجدادنا البدائيين ، سكان الكهوف ، يسيطر علينا الخوف كما كان يسيطر عليهم ، من العوامل الطبيعية والوحوش وسواهم من المجتمعات الانسانية ، وحتى من بعضهم البعض ، لنتمكن عند ئذ من استغلال التراكم الهائل مما لدينا من المعلومات ، لنصل الى المقدرة على مقارنة الافراد، بعضهم لبعض ، موضوعيا ، فمعرفة امكانياتهم ، لتوظيفها على افضل شكل لصالح المجتمع ، اذ لا تزال معلوماتنا اليوم ، تكاد تنحصر في تحسين الالات للإنتاج ، غير الضروري غالبا ، وللاعتداء والتخريب ، بدلا من استعمالهالاكتشاف الانسان نفسه ، والبيئة التي تؤمن له توازنا ديناميكيا ، في مجتمع انساني ، تخلص من الحاجة والخوف بالعلم وتطبيقه .

* * *



محور
مدار
محرق 1
محرق 2
ذكاء
فنان
قائد
عاطفة
وجدان
احساس
فكر
عالم
حدس
عامة
بالخير والجمال
الكشف اتجاه الحياة

الدراسات والبحوث

الموروث والابتكار

ترجمة: عادل العالم

كان هناك ، على الدوام ، جدل صاخب كلما نوقشت مسألة « الموروث Tradition » و « الإبتكار » . والسبب في ذلك انه حتى اكثر الافراد تنورا في الثقافة يبدو منحازا، بطريقة ما . وتبرز الاختلافات، بشكل خاص ، بين المحافظين « الثابتين على المبدأ » مثل ت. س. إيليوت والمتزمتين من الماركسيين . فالنظرة المتوازنة ، التي تحتل مكانا وسطيا ، مفقودة ، كما قال بوند ذات مرة . فما هو الموروث ؟

لو تفحصنا مضمون هذه الكلمة بشيء من النضج . فان مقوماته . كما سيظهر لنا . هي ابتكارات الماضي التي اصبحت جزءا من الايض(١) الانساني ، لحمة وسداة ميراثنا . ونحن نسلم بصحة الابتكارات القديمة التي تفضي بهـا الحال لان تصبح عادات . وكل ما نفعله . بدون وعي ذاتي ونقد للموروث ، يلائم الاسطورة القديمة العديمة النفع . الكليشة والهراء .

والآن . ما هو الابتكار ؟

ان الابتكار . في تصوري . طريقة جديدة للنظر الى الاشياء في ضـوء الخبرة المحسوسة والمعرفة . انتقال من الاسـطورة القديمة الى الاسـاطير الجديدة . او تجديد للاسطورة القديمة بحيث تكون ملائمة لعصرنا .

فالعنصر الذي يوحد ما بين « الموروث » و « الابتكار » هو : ظاهريا ، الوعي المستمر لدى الانسان . الذي يدمج ذكريات وخبرات الماضي اضافـة الى الافكار والمشاعر القديمة بالمكتسبات الجديدة . وذلك . فان الذاكرة هي العنصر الرئيسي فيما بين ذوات الانسان القديمة والذات الجديدة المعاصرة .

ان الوعي المستمر بين الذوات القديمة والذوات الجديدة وعي مركب ، بقدر ما يتعلق الامر بعملية الثقافة من خلال البقاء كمخلفات . من طموحات عمودية معينة ، انجازات وتبصرات في شكل قيم انسانية . وتبدو هذه دائمة تقريبا . ولذلك يقول البعض : « ان الطبيعة الانسانية لا تتغير ، وعلينا ان نعيش كليا بقيم الماضي الراسخة » .

ولو نظرنا . من جهة أخرى . حتى الى القيم الانسانية الدائمة في سياق التاريخ التي انبثقت في وقتها كثغرات اجتماعية . مهما كانت صغيرة ، مـن خلال الانعطافات الثورية بالماضي . او عن طريق خلق نظام جديد للانتاج ، نجد ان هذه القيم الانسانية الدائمة متحولة ، الى هذا الحد او ذاك ، وينبغي ان نطرقها في حدادة ضميرنا ، كي تتخذ شكل قيم جديدة .

ولو تبنينا الطريقة الثورية . فيمكننا عندئذ ان ننظر الى القيم التقليدية في اطار نوع المجتمع الذي انتجها ، وان نرى ما اذا كانت ستبقى ، تحـت ظروف اجتماعية متغيرة ، قيما مناسبة وقابلة للاستعمال بالنسبة لوقتنـا الحاضر ام لا .

فقد كان تعدد الازواج ، مثلا ، هو القيمة المقبولة في الاساطير القديمة في الملحمة الهندية (ماهابهاراتا) . ويمكن ان يكون الامر قد أصبح هكذا ، لانه

كانت هناك حاجة الى امر حاكمة معينة للاحتفاظ بثروة الارض في الاسـرة نفسـها عن طريق خمسـة اخوة ينجبون اطفالا من زوجة واحدة . ومن ناحية ثانية ، فان احراق المراة من اجل اختبار فضيلتها ، وهو ما يدعى (سـاتي Sati ، قد اصبح ، كما يبدو ، عرفا مقبولا (رامايانا) لالفي سنة خلت ، وحتى فترة متأخرة كالقرن التاسع عشر ، عندما شن المفكر الحديث الكبير ، رام موهان روي ، حملة لالغائه عن طريق القانون . وفي (البهاباباد غيتا) التي الحقت فيما بعد بملحمة (ماهابهاراتا) ، ينصح الإله كريشنا مريده ارجونا اليانروس بالذهاب الى الحرب ضد ابناء عمه الكوروس وفقا لقاعـدة الصواب ضد الخطأ . ويمكنني القـول ان مفكرا حديثا قـد يقبل ، اليوم ، نصيحة كريشنا جديد ويفجر قنبلـة ذرية نتيجة شـعور ذاتي بالانفـراد بالصواب . ولكن اناسا كثيرين لن يتقبلوا قرارات كريشنا الجديد كما تقبل ذلك الجميع تقريبا في عهد (الماهابهاراتا) .

واود ، الآن ، ان افرق بين الاساطير والقيم والمشاعر غير المناسبة عـن طريق وصف العملية الزمنية بطريقة خام وجاهزة . فالقرار القاضي بهـذا يكمن في التقسـيم الهندوسي لعصر الحق وعصر الشر . الا ان هـذا التقسيم الهندوسي للعصور قد تم تصوره لالف سنة خلت . فقد فكر البراهمة(٢) بانهم فقدوا النفوذ ، فاعلنوا ان كل زمن قادم كائن في عملية الانحلال . واستنبطوا اسطورة (فشنوبهايوان) النائم على (سشناي) الملتفة على سطح المياه في خيبة من الطريقة التي سارت بها الامور خطأ في عالم خلقه . وانا ، كهنـدي معاصر ، ارى ان هذا التقسيم المضاعف للزمن خام وجاهز جدا . فلنقسم ، اذا ، قصة الجنس البشري الى ثلاثة ازمنة مختلفة ، وفقا لفصول نمو الثقافة الانسانية . وقد يكون هذا التقسيم خاما وجاهزا جدا ، ولكنه ، كما يبدو ، افتراض اكثر عملية .

فقد كانت هنالك فترة ما قبل تاريخية ، اضافة الى القسم المبكر من مدة الالفي سنة الاولى من التاريخ المعروف ، يمكن ان ندعوها (عصر الآلهة) . فأسلافنا القدماء في الهند ، اليونان ، الصين ، مصر او بابل ، كانوا ، كمـا يبدو ، مهتمين بمقاتلة او استرضاء او تشرب القوى المرعبة في الطبيعة ، او مخاوفهم ، هواجسهم ، وشياطينهم الخاصة المتكاثـرة ، اضافة الى استرضاء حساسياتهم الخاصة ، وقد طوروا جميع الظواهر المرعبة ، المخيفة او الرحيمة المجهولة الى آلهة وارواح واشباح . وهذا النوع من التمثل assimilation يميز اكثر اعضاء الاسرة البشرية عبر عهود التغيير ، من حياة الكهوف والاشجار

والمآوي الحجرية مرورا بالمجتمعات البدوية الى مراحل جمع أو فلاحية الارض. وامكانية السلطة تكمن في ايدي الآلهة : الذين يفترض أنهم يمنحون المطر ومواسم الحصاد الطبيعية ويؤجلون الموت اذا ما صليت راكعا على ركبتيك . وفي تدفقات قصائد وتراتيل الفيداس(٣) The vedas في الدراما الاغريقية : اضافة الى ما في العهد القديم ، فان يراهما الآلهة الاعلى ، زيوس او جوبيتر او تجسداته هؤلاء الآلهة المتنوعة ، هي الحق المطلق الذي يحكم الكون ، يفصل في شؤون البشر ويقرر مصير كل انسان .

وقد استمر قانون (عصر الآلهة) ذلك سليما الى زمننا هذا . فمن السهل ، كما يبدو ، على اغلب الناس ، الذين لا يؤمنون بالطرق التجريبية للعلوم ، ويركزون على غوامض الكون غير المحلولة ، ان يؤكدوا وجود انسان ما ذي لحية كبيرة جالس في اعالي السماء ، او بتجسيد معقول بعض الشيء ، او مبدأ الوحدة ، الذي يمكن تحقيقه بالانسحاب من العالم داخل صومعة . ومع هذا ، فكلما طرح الانسان ، في العهود القديمة والقرون الوسطى ، اسئلة حول الظواهر والاشياء في ذاتها noumena ، كما كان يفعل البوذيون ، انتهى تدريجيا الى رفض واقع الالوهية المطلق وتقبل باعتدال قواعد السلوك مابين الناس لدمج الفرد بالجماعات في علاقات انسانية اعتيادية . وكان غوتاما بوذا(٤) احد أوائل انبياء البشر ، الذي يمكن القول أنه لم يكن لديه برهان على وجود الإله . كما ان الكثير من اوائل العلماء في اليونان ، مثل هيراقليطس ، فيثاغورس ، وحتى ارسطو ، غير واثقين من وجود الإله المتسم بصفات انسانية . وكذلك الحال بالنسبة لبعض رجال النهضة الاوربية العظام في القرن الخامس عشر ، مثل غاليلو ، ليوناردو كوبرنيكوس ، كما يبدو .

وهكذا بقي قانون (عصر الآلهة) . الا ان شعراء في عصر النهضة ، مثل شكسبير ، اخذوا يرون قدرا مجهولا يحكم ، فيما يظهر ، حياة الانسان — هو « الشر المجهول في الناس » . فإياغو(٥) ، زوج ام هاملت وبنات الملك « لير » يتسمون بشيء ما ، شر على نحو غريب يحيط بهم ، يعوق حياة الآخرين .

بعد ئذ ، حوالي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وبينما تستمر قوانين القدر المجهول في ايدي الآلهة ، والقدر المجهول في ايدي الناس الاشرار ، من خلال اساطير شتى ، يبرز ايضا قدر مجهول تماما . انه السلطة Power نفسها ، القائمة على اجهزة المال والجيوش المنظمة .

وقد تنبأ « بروسبيرو » شكسبير بهذه الاسطورة في مسرحية (العاصفة) عن طريق استخدام « إريال » الروح المبدعة ، لاخضـاع الجزيرة واستغلال الانسان القرد (كاليبان) . وفي قصائـد وروايات وقصص فتـرة الثـورة الصناعية في الغرب ، وخاصة في اعمال توماس هاردي ، تنشأ خرافة فيمـا يتعلق بالامكانات المجهولة للمال وملكية قوة الارض . فحياة الناس يحكمها ، بدون أن يدركوا ذلك تماما ، « المضاربون على الهبوط والصعود » في بورصات عواصم العالم العملاقة . فقد اعتقد النساجون في الهند بان الإله كان قـاسياً وقد حكم عليهم بقدرهم ، في حين أن البرلمان البريطاني قد قرر آنذاك ، في الواقع ، عدم استيراد السلع التي انجزها اصحاب معامل النول الاسطورية في دكا ومرشد آباد الى (بريطانيا العظمى) ، بسبب المنافسة التي أبدتها هذه الاقمشة نحو المنسوجات الصناعية المنتجة في البلد الام . اما اليوم ، فـان مجاعة تحدث في افريقيا نتيجة لتخفيض قيمة عملة محلية مرتبطة بالدولار .

لذلك ، وكما هي الحال مع اساطير العالم القديم ، فان القوة المجهولة للآلهة ، اساطير عالم القرون الوسطى وقوة الشر المجهولة في الناس ، تعيـش فيما بيننا كمفاهيم عاطفية ومعتقدات ظلامية وتسويغات معتادة . ولا يبدو أن الاسطورة المعاصرة الجديدة عن الانسان ، باعتباره فرداً حراً ، مدركاًلنفسه من خلال الجماعات ، ستظهر للوجود ، بالرغم من ان هناك ، اليوم ، معرفة اكثر من ذي قبل . فهذه المعرفة ذاتها تستخدم ، في الواقع ، لتعزيز وحماية الاديان الفارقة في القدم والعنصرية والسلطات الطبقية والطائفية . والسلطة التي تتمتع بها قلة من الناس ، بمالها وأباطرتها وجيوشها ، تستخدم ، في الغالب ، ضد القطاعات الاضعف من البشر .

هناك ، في الهند ، تقليد في نقد الموروث انتقص منه المعلمون Pundists السائرون على النهج التقليدي ولم يلاحظه الكثير من المعاصرين .

فقد وقف فياس ، مصنف ملحمة ماهابهاراتا ، ضد خطر الرهبانية ورفض التمييز العنصري ، القائم على نظام الطوائف الاجتماعية ، قائلا : « طائفـة ، طائفة ، لا طائفة هناك ! » وحاول ان يبين ان ليس هناك ما هـو أسمى مـن الانســان .

لقد بقيت قوة الموروث الكابتة عن طريق التلاوة المعتادة للتضرعات الصوفية المقدسة من دون فهم لما تعنيه ، في الغالب ، مخلدة بين الجهلة من الناس بواسطة الكهانة التي اعتمدت في عيشها على تعليم مثل هذه التلاوات .

وقد انتهى الحال بثورة بوذا ضد الارثوذكسية(٦) البراهمية الى النفاد بعد موته عن طريق امتصاص الهندوسية نفسها لبعض معتقدات مذهبه الاساسية فبعد قرون من الكفاح ضد البوذية قضى البراهمة تقريبا على الملك كارشا ، لانه مال نحو الديانة البوذية وعقد مجلس البوذيين الكبير في كانوج عند نهاية القرن السادس بعد الميلاد . وكما هي الحال بالنسبة للاقوام الدرافيدية ، كانت دياناتهم الفولكلورية تقوم على عبادات الخصب والاتصال الحميم بالطبيعة . وعلى الضد من صرامة النظرة الآرية ، فقد تبنى البراهمة اغلب الآلهة المحليين وفسّروهم بطريقتهم الخاصة وجعلوهم جزءا من مجموعة شعائرهم المعقدة . بل انهم خلعوا (اندرا) ، الإله الفيدي ، الكلي القدرة ، لينصبوا (كريشنا) ، بطل قبائل الابهيرا ، راعي البقر ، إلهاً للحب في القرون السابقة للعهد المسيحي اما (شيفا) ، الذي كان محتقرا لدى البراهمة ، خلال قرون ما قبل المسيحية وبعدها ، باعتباره متشردا متوحشا ، والذي كان يتردد على الاجمات والاراضي المشتعلة ، فقد تشربته الديانة الهندوسية وجعلته كهنة الطائفة الشيفيتية Shaivaite تجسيدا محاطا بالتبجيل للاله الاعلى . وقد اقرت الاوليغاركية(٧) البراهمية ، جيلا بعد جيل ، باحترامها للموروث من خلال الاعلان بأن على اعمال الفن والادب المعاصرة الجديدة اعادة سرد القصص القديمة بطريقة اخرى والا فانها ستعتبر تدنيسية . وتعرضت جدة النظرة ، الناشئة من خبرة الناس الجدد المحسوسة ، للتشويه باستمرار واصيب عقل الطالب بالضمور بسبب تمجيد الموروث في نظام التعليم الذي كان همه ، بشكل رئيسي ، اضافة شروح جديدة لتوضيح وتفسير الصيغ القديمة . فقد كان التفكير الاصيل شيئا محرما في الباشالات(٨) Pathshalas الملحقة بالمعابد .

لقد لقي تحجر الفكر التقليدي تشجيعا من الدولة الملكية الاقطاعية ، خاصة في فترة الغزوات الاجنبية ، التي كانت تحدث كل عشرين سنة تقريبا . وكانت صيحة الهندوس الداعية الى جمع الشمل حماية للديانة التقليدية . ولذلك شجع الملوك الكهنة على وضع جدول لانهاية له من الصلوات . فطقسوا كل شيء من الاكل والمشي الى الاستجابة لنداء الطبيعة . فكانت مراسم الميلاد الشعائرية المفصلة تدشن حياة الطفل . وكانت شعائر التلقين التكفيرية ، بربط الخيط المقدس والسير حول النار اثناء الزواج ، والاعراف المعتادة لتكريم الاكبر سنا ، تخنق روح الحياة لدى الشباب . وقد كرست رحلات الحج الى الاماكن المقدسة والصدقات والقرابين لمنفعة طبقة الكهنة . كما ادى تفسير القانون الهندوسي

وخاصة من قبل مانو Manu ، الى التقليل من شأن المراة . وشرع البورانيون Pauranas في تطبيق صيغ صارمة لحماية المجتمع المتفسخ ، لا لشيء الا لانه كان وجها لوجه مع اقتحامات الاسلام الاكثر ديمقراطية .

وقد اقر التقليد الموروث ، على مدى التاريخ المعروف ، النظرية العنصرية الجديدة حول النظام الطائفي ، بتطبيقها ضد المنبوذين(٩) . ولم يرتفع ضدها الا القليل من الاصوات .

ان انبعاث الفنون الابداعية ، الذي اعقب موجة النزعة الانسانية في عهد الغوبتا Gupta ، من القرن الثالث الى القرن الخامس ، هو نوبة الاستراحة القصيرة الوحيدة . التي يبدو انها اعطت لمباهج واحزان الحياة الارضية قيمتها بصورة غالبة . وحتى هذا الجانب لم يكن ، باية حال ، خلوا من النفوذ السلطوي للكهانة البرهمية .

وربما كان للكلمات (كاليداسا)(١٠) صوت مسموع ، لبعض الوقت ، عندما قال بحدة : « ليس كل قديم بالضرورة جيدا . ولا كل الاشعار خالية من العيوب . ان الادب الجيد يتبع اسلوبا خاصا بعد التميز . والهواة وحدهم هم الذين يتبعون الموروث الادبي بدون جدال » .

وكان هناك فيلسوف وشاعر آخر في القرن الخامس بعد الميلاد ، يدعى سيدها سينا ديفاكارا ، وكان برهميا ، ثم تحول الى الجاينية(١١) . وقد قام ، من قبيل الاعتراف بدوغماتيته السابقة ، بكتابة مجموعة من الاشعار على شكل مقالة انتقادية للتقاليد الهندوسية ، قائلا ، « لو تفحصنا التقاليد التي أبستها الاجيال الاقدم ، لوجدنا انها لا يمكن ان تصمد أمام اختبار الزمن . واذا كان هذا صحيحا ، فليس بمقدوري ، اذا ، دعم المفاخر التقليدية لاسلافي الموتى » . وكان مناصرا للعقل المتفتح : « ان وجود القوى المعارضة في الفن ، الادب والفلسفة قائم على اسس متينة . فكيف نحدد ، اذا ، ما هو صائب وما هو خطا ؟ هذا هو الصائب فقط وليس غيره ؟ ان رايا كهذا جدير باولئك الذين جعلهم التعصب جامدين ، وليس بي » .

ويذهب ابعد من هذا في شرحه للامنطقية عبادة القديم لمجرد انه قديم بدون ان يبذل المرء جهدا لاستخلاص ما هو نافع : « لابد للانسان من الجيل الحاضر من ان يصبح ، بعد موته ، قديما في اعين الجيل القادم ، وان يحال الى مرتبة حلقة الاسلاف . بهذه العملية ، يصير الجديد قديما من حين لآخر ، وبالعكس . فاذا كان الامر هكذا ، فكيف يمكننا القول ، من دون اختبار ، ان حقيقة عامة معينة هي قديمة الان ؟ »

الحقيقة ، على اية حال ، هي ان الغزوات الاجنبية كانت متواصلة وان الامراء الاقطاعيين كانوا يرصون صفوف الكهنة الاعلين ، الذين كانوا يسفهون على الدوام ، فكر الشبان الجدد .

وحيث ان المتسللين الجدد لم يفعلوا ، على كل حال ، سوى الانضمام الى طبقة شيوخ القبائل ومالكي الارض الجدد من اهالي الاسرة البطرياركية غير المنقسمة ، مع الكهنة المصاحبين ، بالرغم من العلاقات التجارية المتحسنة مع العالم الخارجي ، فان اي تغيير اساسي لم يحدث .

والواقع ، ان الغزاة الاجانب ، مع كونهم منبوذين وفقا لوجهة النظر الهندوسية ، قد اسسوا انفسهم اوليغاركيات خاصة بهم ووفروا قيمهم القديمة الخاصة . وهكذا استمر كامل البناء الفوقي اللاهوتي للبرهمية . وبقي التاريخ سلسلة من اعمال الآلهة . ولم يكن بوسع الجهد المشترك للمجتمع البشري ان يبدأ مفعوله حتى التأثير الاوربي .

فقد كانت معرفة عصر النهضة ، في الغالب ، على درجة كبيرة من الوضوح في تضادها مع تفسير رجل الدين للعالم ، وعقلانية لدرجة واضحة جدا في تضادها مع اساطير وخرافات البراهمة، بحيث ان هزة افكار الغرب كانت اشق على التحمل من السيطرة الاجنبية ، التي سرعان ما توصلت الاوليغاركيات العليا الى تفاهم معها . فقد تحدى العلم كثيرا من العادات المتفسخة والشعائر العائدة لاسلافنا . وبدات عقليات اصيلة ، كعقلية رام موهان روي ، في التفكير بالحقائق الذهبية في مصادر الفيدانتا(١٢) Vedanta من اجل ربطها بالفكر الغربي العقلاني الجديد . الا ان جمعا من المستشرقين الاوربيين وجد ، لسوء الحظ ، مهربا من فقر الفكر البراغماتي الغربي في فلسفات الهندوس القديمة المقدسة بالنسبة لتلامذتهم في الطبقة الوسطى الجديدة ، الذين لم يكن لديهم اي شيء من المعرفة بالماضي ، والقليل جدا من المعرفة بالحاضر .

ولم يكن من الممكن ملاحظة عبودية Slavishness الكثير من العقول التي ارادت الحرية السياسية ، حتى ما بعد انتقال السلطة من البريطانيين الى ايد هندية . وفي سياق الحاضر، حيث اصبح لزاما علينا رؤية حريات جديدة تماما، بدأ بعض الانسانيين مثل طاغور ، روي ونهرو يتشككون في قدسية الموروث باعتباره موروثا ، وحذروا الشباب من القبول اللاعقلاني للمناهج القديمة اذا لم يكن يراد لطريق التقدم الاجتماعي ان يصبح مسدودا .

ان على اجيال العالم الجديدة ، خاصة في آسيا وافريقيا ، ان تقرر استيراث الماضي بما يشبه طريقة فحص الخيل المهداة من افواهها .

فنحن لا يمكن ان نقبل كل اساطير . خرافات . فلسفات . واخلاقيات عصور الجنس البشري جميعا ، مهما اتسمت بالتمجيد ، اذا لم تكن ملائمة لنا. وقد تحطم بعضنا بالكامل تقريبا تحت وطأة الابانيشادات(١٢) Upanishads والصيغ السحرية للاثارفا فيدا Atharva Veda . ومازال نخبتنا المثقفة تستخدم بعض مثل النبلاء ايام زمان كتعويضات عن نواقص ونقاط ضعف وخيبات الحاضر . فقد كان بعض اسلافنا يبرر تقليد احراق المراة ، واليوم ايضا هناك اقاويل عن قتل شعائري . ان نزعة احياء هذا النوع من الماضي والتوكيد المتغطرس على التمييز الاعتباطي بين « الشرق المثالي » و « الغرب المادي » ؛ قد ظهرا بسبب الوهن الفكري لدى الكثير من العقليات الدخائرية Fundalist لمواجهة تحدي الثورة الصناعية . فنحن نتقبل ملابس الموضة العصرية ، ولكننا نريد التمسك بعقدة من الخيوط الزغبية حتى مع انها قد تعلق بالماكينة التي نعمل عليها .

ليس هناك من شك في ان تراثنا يضم تعبيرات وقيما وتأملات عظيمة معينة منحت الانسان جدة وعمقا . ولابد من ايصال هاتين الخاصيتين الى الآخرين جميعا . فالوعي الاسمى المتحقق في اشكال معينة من الاستسلام ، والتعاطف الذي ولدته بين الناس تعاليم اللاايذاء في مقابل القسوة بالاضافة الى حكمة القلب التي يتسم بها الكثير من شعرائنا وقديسينا ، قد نفذا داخل ادراك اجيال كثيرة بامثال شائعة ، طرائف ، قصص خرافية وحكايات . ومن الواجب مزج هذا مع احاسيسنا الباطنية المعاصرة عن طريق الخبرة المحسوسة والتركيب المباشر .

وعلى كل حال ، ففي كل نكوص في الارتقاء ؛ يصبح من المستحيل انهاض ما في الوعي القديم من كل ساكن ،امتصاص الاضمحلال الكائن داخل عظام المرء، وجعل ذلك جزءا من خبرته الذاتية من دون ضمور في الدوافع الطرية بسبب العادات القديمة . فالماضي ؛ على الاكثر ، مقبول كشعيرة او زخرف او ادعاء . وينبغي للمرء ان يتذكر ان المعرفة الجديدة ، خاصة تلك الناجمة عن العلم التجريبي ، قد افضت الى جعل التاريخ امام تفحص جديد ؛ امام نظر مميز اكثر دقة . فالبقرة ، اليوم ، اكثر من ام مقدسة لنا ، وبامكاننا جعلها تدرجليا اكثر بالتقليل من تكريمها ، ولكن باطعامها على نحو افضل . ولم يعد القتل الشعائري للبشر والماعز والديكة ، اما الالهة ، ممكنا ان يكون اسطورة مقبولة في الهند وافريقيا او امريكا .

واعتقد اننا ، خلال الانتقال من « عصر الآلهة » عبر « عصر الشر في الانسان » والى ما بعد « عصر سلطة المال » ، بحاجة لان نكون يقظين تجاه كل فكر وشعور ومزاج . اذ يمكن لنا ؛ انطلاقا من نزعة الحاجة الى الهرب من

الوقائع . او من الحقيقة المتمثلة في استخدام عادات ميتة ، ان تنتهي للوقوف ضد مصالح التطور القادم لعقل الانسان .

ان افراد حضارتنا التعبين قد تقبلوا الخرافيات القديمة ، في الغالب ، لان التسوية اسهل واقل عناء من النضال من اجل الحقيقة . فالموقف من نقد التراث بشكله هذا من اجل توحيده سيستطلع استجابات جديدة ، وهو امر لا يتقبله الايمان الدوغماتي بفلسفات الفيندانتا ، القليلة النفع والواسعة التوطن المذاهب الوجودية الهندية المتنوعة . او الفلسفات الوضعية المنطقية المحلية .

وقد بدا قدوم الماكينة ، كأداة للثورة الصناعية العالمية ، مشؤوما حتى لأكثر الاشخاص تنورا مثل رسكين وموريس وغاندي . الا اننا رأينا ان من الممكن فصل الماكينة عن الفئات المستغلة واستخدام الابتكارات في التقنيات لخلق الثروة وتوزيعها ، عن طريق المساعدة المتبادلة . ويمكن لهذه الثروة ان تحول المجتمع من خلال الفرص الكافية لتوفير الفراغ الذي يستطيع الفرد من خلاله صقل نفسه واعدادها من اجل تنمية جديدة تماما للرقة في الشعور ، من اجل فلسفات جديدة للتكيف مع العالم المتغير ، من اجل دمج نفسه بالمجال الداخلي والخارجي على حد سواء . ان الخطر الذي يهدد الجنس البشري هو ان النزاعات وعلاقات القوة بين العالم القديم والعالم الجديد تغطي على الهدف الرئيسي لعصرنا هذا ، وهو ان يكون الفرد مسموحا له بالتركيب ما بين الاساطير القديمة اللائمة والوقائع الجديدة لاقامة عصر جديد ممكن للانسان ، حيث يستطيع البشر ان يختبروا ويكتشفوا لانفسهم الحقائق التي يحتاجونها العيش من خلالها . ففي هذه الفترة ، بعد حربين عالميتين هائلتين ، يتهددنا نزاع ثالث ونهائي ، لان الانسان لم يصبح بعد قادرا على نسيان الاساطير القديمة التي تحث على القوة والكراهية والازدراء العنصري . ولذلك ، اصبحنا عاجزين عن تقصير الفجوة ما بين طموحات معرفة عصر النهضة وتحقيق الآمال التي فسحت هذه المعرفة المجال امامها .

وقد اضحت مسببات الخوف والريبة لدى الفرد او الامم والجماعات كبيرة . من انفسهم ومن بعضهم بعضا ، فالفكر مقبول في المجتمع فقط اذا عمل وفق الولاءات الارثذوكسية او وفق واحد من الولاءات الصوفية الزائفة الاكثر معاصرة للعديد من المعتزلات الدينية . ومن الصعب على الشاعر ، كما ارى ، تقبل انسلابه به . ولكن هذا هو ، بالضبط ، الوضع الذي يمكن ان يجعله اكثر فاعلية . وكما قال ماثيو ارنولد قديما : « الشعر نقد الحياة » . وربما كان يعني بذلك ان الشاعر يحيل المشاعر المباشرة ، الافكار الجوهرية والخبرات الشخصية الى نظام من القيم ونفاذ بصيرة سايكولوجية ، من الرؤى الجديدة ابدا ، مستمد من الخبرة الكلية .

ولان مهمة الاتيان باضاءة جديدة الى مناطق القمة مهمة حاذقة ومعقدة ، فان على النخبة المثقفة ان تطور نقدا جديدا ، بامكانه الغاء البعض السيء من مواصفات الماضي وانصاف اكاذيب الحاضر ، وايصال مجتمعاتنا الى مستوى الادراكات الترابطية لما هو حيوي في كل موروث .

عن الطبعة الانكليزية
من مجلة Lotus

اشارات المترجم :

(١) الايض Metabolism : مجموع العمليات المتصلة ببناء البروتوبلازما ودثورها . ويعني به ، هنا ، كامل العملية الحيوية الانسانية .

(٢) البراهمة : ابناء طبقة الكهنوت العليا عند الهندوس . والبراهما ، في الفلسفة الهندوسية تعني الذات العليا ، العلة الاولى ، روح الكون العليا وجوهره .

(٣) فيدا : كل ما يتسم بدرجة أولية من كتابات الهندوسية المقدسة .

(٤) غوتاما بوذا (٥٦٣ ـ ٤٨٣ ق.م) : مؤسس الديانة البوذية التي تقول تعاليمها بان الالم جزء لا يتجزأ من طبيعة الحياة وباستطاعة المرء الخلاص منه بالتطهير الذاتي العقلي والاخلاقي .

(٥) واضح ان الكاتب لا يبدو متفائلا ، هنا . فما يسميه باسطورة الانسان المعاصرة يتحقق ، اليوم ، فعلا في المجتمعات التي سلكت طريق الاشتراكية ، رغم كل ما تواجهه من معوقات موروثة واخرى تخلقها الامبريالية العالمية .

(٦) الارثوذكسية ، هنا ، تعني السير باستقامة رأي على النهج التقليدي الموروث .

(٧) الاوليغاركية : حكم القلة التي همها الاستغلال وتحقيق المنافع الذاتية .

(٨) لم اعثر لهذه الكلمة على معنى ، ربما تعني مؤسسات تعليمية ملحقة بالمعابد .

(٩) المنبوذون : الهندو الذين لا طائفة او طبقة لهم ، او الذين طردوا منهما .

(١٠) كاليداسا : شاعر ودرامي هندوسي من القرن الخامس بعد الميلاد .

(١١) الجاينية : ديانة هندية نشأت في القرن السادس قبل الميلاد تقول بتحرير الروح عن طريق المعرفة ، الايمان القويم والسلوك السليم .

(١٢) الفيدانتا : نظام فلسفي هندوسي مبني على الفيدا التي هي كتب الهندوس الاربعة او واحد منها .

(١٣) الاپانيشادات : الرسائل الفيدية التي تبحث في المشكلات الفلسفية الواسعة .

(١٤) كاتب المقالة روائي هندي بارز ، عضو الاكاديمية الوطنية للفنون الجميلة وإستاذ الفنون والادب .

✶ ✶ ✶

الدراسات والبحوث

علم النفس والأدب

"شخصية أبي العلاء المعري" من خلال شعره

أنور خالد عمر

مقدمة :

لئن صدق احدهم حين قال « ما من ورقتين على اغصان شجر في الغابة تشبه احداها الاخرى شبها تاما ، فان هذا القول اصدق على افراد البشر منه على ورق الشجر . فما من وجهين انسانيين يشبه احدهما الآخر شبها تاما ، حتى ولا توامين متماثلين (اي توامين نشأ من انقسام بيضة واحدة) . ولئن صدق هذا على ملامح الوجه ، فهو على ملامح النفس وسمات الطبع وصفات الخلق اصدق » .

ان ذلك ، يعني ان كل انسان وحيد فريد ، لان لكل فرد طريقة شخصية جدا لادراك الحوادث التي تواجهه . وله كذلك اسلوب خاص يعيش به هذه الحوادث . ويطلق على هذه الفردية اسماء مثل « الشخصية » او « الطبع »، وان كان مفهوم الشخصية اوسع دلالة من مفهوم الطبع .

لقد قامت مدارس واتجاهات عديدة لدراسة الطباع ، وتقوم هذه المدارس على آراء مفادها ان علم الطباع يشكل مفترقا للعلوم الانسانية ، ومفترقا بين فروع علم النفس البنيوي وعلم النفس الفيزيولوجي وعلم النفس الشكلي) وبين اشكال علم النفس الاخرى (التحليل النفسي ، الطب النفسي، علم النفس الاجتماعي ، . انه علم للشخصية بكاملها . ويتناول الطباع المشتركة بين الزوجين ، والجماعات والشعوب .

يزخر الادب ، شعره ونثره ، بتصاوير فنية عن الطباع لشخصيات من التاريخ . فالادب يقدم شخصيات مدروسة في تنوعها وعمقها الادبي . فالطبع يحدد أدب الاديب . او ان ادبه يعكس طبعه . وكان «هبوقراط» قد قال قديما «ان طبع اي انسان يصنع قدره » اي ان اسلوب حياة اي انسان ونمطها يحددهما طبعه .

ومن اشهر المدارس هذه ان لم تكن اشهرها واكملها ، المدرسة الفرنسية التي تزعمها (لوسين) ، وهي المدرسة التي اعتمدنا آراءها في دراستنا لشخصية ابي العلاء المعري .

تعتمد هذه المدرسة في تحديد الطباع على ثلاثة عوامل تكوينية هي : الانفعالية ، الفعالية ، ترجيع الانطباعات . ويضاف اليها خمس صفات تكميلية هي : سعة ساحة الشعور ، قطبية الانوثة والذكورة ، الذكاء ، مركزية الذات ومركزية الآخرين وغلبة بعض الميول (والدوافع) ، نمط البنية الترجيعية .

ـ الانفعالية :

وهي خاصة تجعل الشخص ـ تحت تأثير فكرة او ادراك ـ يضطرب جسميا ونفسيا ، ويترك الانفعال تغيرات حشوية لديه واستجابة للعالم الخارجي . ومن اعراض الانفعالية انها استجابة مبالغ فيها لمواقف بسيطة . الا ان هذه الاستجابة تتعلق بميول الشخص واهتماماته . فالمهتم بموضوع ما ينفعل له . وقد لا تظهر الانفعالية لدى الجميع سافرة ، بل قد يكظمها بعضهم ، وذلك حسب ترجيعيته البعيدة .

فالانفعالية ، بعد ، هي الخاصة الاساسية الاولية في حياة الانسان . فهي الطاقة التي بدونها لا يمكن ان تستمر الحياة . فالانفعالي ينفق طاقة أكثر مما ينفق غير الانفعالي .

ــ اما الفعالية :

فتطلق على شخص يقوم بأفعاله بدافع ذاتي واستعداد داخلي . وأما اذا كان دافع فعل الشخص محرضا خارجيا فهو غير فعال . اي ان الفعالية بمعناها الطباعي ، لا تنطبق ، اذا الا على ذلك الذي يعمل بتأثير استعدادللفعل قائم فيه . وغير الفعال يعمل مغلوبا على امره ، مكرها ، يعمل بمشقة وعناء. وكثيرا ما يتأفف من عمله ويتململ ويتوجع . وخلاصة ، فالفعال ليس هوذلك الذي يعمل كثيرا فحسب ، بل انه ذلك الذي يعمل كثيرا وبسهولة .

ــ الترجيع :

ان كل موقف يترك فينا أثرا او ذكرى . ويبقى هذا الاثر يعمل فينا . فاذا كان الاثر من الماضي البعيد كان الترجيع بعيدا ، اما اذا كان العكس فالترجيع قريب .

فمن كان مشدودا الى الحاضر ناسيا الماضي والمستقبل ، لا بد أن يتجلى تقلب تأثراته في تقلب استجاباته . فهو كثير الحركة، اندفاعي الاستجابة، سريع التغزي ، سهل المصالحة ، متقلب الحب والكره ، شغوف بالانطباعات الجديدة والاصدقاء الجدد وسهل الاقناع ، محب للتغيير ، متنقل بين المهن ، متطلع الى النتائج المباشرة ، مقبل على لذات الطعام ، متلاف مضياع ، ينبغي أن يُركن الى صدق ما يقول لا الى دقة ما يبذل من مواعيد . وهو ذو ترجيع قريب .

أما ذو الترجيع البعيد ، فهو من جميع ما مر من صفات على الطرف الآخر .

وخلاصة القول : إنّ الشخص الذي اذا اسيء اليه ، مثلا ، اضطرب بسرعة ثم يلبث أن يعود الى حالته الاولى من الصفاء ، فهو ذو ترجيع قريب . اما الشخص الذي اسيء اليه اضطرب ببطء ، ثم ظلت الاساءة تفعل في نفسه مدة طويلة ولو في اثناء غياب تصورها عن ساحة الشعور ، فهو ذو ترجيع بعيد .

١ ــ العصبي : انفعالي ــ غير فعال ــ ذو ترجيع قريب . مثاله : بيرون ابو نواس .

٢ ــ العاطفي : انفعالي ــ غير فعال ــ ذو ترجيع بعيد . مثاله : روسو ، ابو العلاء المعري .

٣ ــ الغضوب : انفعالي ــ فعال ــ ذو ترجيع قريب . مثاله . بلزاك المتنبي، ابن سينا ،

٤ ــ الجموح : انفعالي ــ فعال ــ ذو ترجيع بعيد . مثاله : نابليون . عمر بن الخطـــاب .

٥ ــ الدموي : غير انفعالي ــ فعال ــ ذو ترجيع قريب . مثاله : بيكون . الجاحظ . معاوية .

٦ ــ اللمفاوي : غير انفعالي ــ فعال ــ ذو ترجيع بعيد . مثاله : كنط . اديســون . واشنطن .

٧ ــ الهلامي : غير انفعالي ــ غير فعال ــ ذو ترجيع قريب . مثاله : لويس الخامس عشر .

٨ ــ المتبلد : غير انفعالي ــ غير فعال ــ ذو ترجيع بعيد . مثاله : لويس الســادس عشر .

واضافة صفة تكميلية الى هذه الصفات الاساسية . ينتج عدد الطباع حدا يفوق التصور ؛ فاذا اخذنا مثلا الطبع الذي نحن بصدده، وهو العاطفي فنجد فئة العاطفيين تبعا للمقومات التكميلية تزداد فتصبح على النحو التالي :

١ ــ فئة العاطفيين الشبيهين بالعصبيين ، وتنقسم هذه الفئة بدورها الى :

زمرة العاطفيين المتصنعين لضيق ساحة الشعور لديهم . وزمرة الحالمين لسعة ساحة الشعور .

٢ ــ فئة العاطفيين الشبيهين بالخاملين .

٣ ــ فئة العاطفيين الشبيهين بالجموحين .

٤ ــ فئة العاطفيين النموذجيين .

وتتفرع فئة النموذجيين الى :

ــ **زمرة العاطفيين الخائرين .**

ــ **زمرة العاطفيين الحادين .**

ــ **زمرة العاطفيين الودودين .**

ــ **زمرة العاطفيين البخلاء .**

وفئة الشبيهين بالخاملين تتفرع حسب الترجيح الى :

١ ــ **زمرة العاطفيين الهادئين .**

٢ ــ **زمرة العاطفيين الآليين .**

وتتفرع فئة العاطفيين الشبيهين بالجموحين حسب الترجيح الى :

ــ **زمرة العاطفيين الرقاق .**

ــ **زمرة العاطفيين التقاة .**

ــ **زمرة العاطفيين الاخلاقيين .**

ــ **زمرة العاطفيين المذهبيين .**

فاين شاعرنا ، ابو العلاء ، من هذا التصنيف ؟

انه من فئة العاطفيين ذوي الصيغة الطباعية التكوينية التالية :

ــ الانفعالي ــ غير الفعال ــ ذي الترجيح البعيد .

أما الصفات التكميلية والصفات التي تتفرع اليها هذه الصيغة فتتكشف في اثناء دراستنا لادب ابي العلاء .

وللوقوف على دقائق شخصية ابي العلاء ، لا بد من دراسة حياته وظروف معيشته وسلوكه في الحياة .

حياة ابي المعري وعصره :

عصره : كانت بلاد الشام في عصر ابي العلاء مسرحاً للاضطراب والفوضى، تتصارع فيه الدول . وكان من نتيجة ذلك ان عم الفساد في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . بيد ان ذلك لم يقض على الحياة الفكرية . فازدهرت في هذا العصر ــ عصر ابي العلاء ــ العلوم الفلسفية المنقولة عن اليونان والفرس والهند . فكانت التيارات المختلفة من تيارات النقاد المتشككين والفلاسفة الإلهيين والعلماء والمحافظين . . . فلا غرو ، اذا اثرت هذه التيارات السياسية والفكرية في عقل المعري ، فجعلت نثره وشعره مرآة نفسه ومرآة عصره معاً اضافة الى السبب الاساسي وهو تكوينه النفسي والطباعي . لذا فاننا نجد ان طبعه وشخصيته هما اساس سلوكه ومواقفه من الحياة عامة . والعوامل الاجتماعية انما كانت معززة لهذا الاساس .

حياته : ابو العلاء هو احمد بن عبد الله سليمان بن محمد التنوخي المعروف بأبي العلاء المعري . ولد في معرة النعمان سنة/٣٦٣ هـ ٩٧٣ م/. وهو ينتسب

الى بيت علم وادب . وكان جده سليمان قاضي المعرة. وكان أبوه عبد الله شاعراً وامه من اسرة وجيهة .

اصيب المعري بالعمى وهو ابن ثلاث سنوات . ولكن وان غاب بصره كانت بصيرته متقدة . درس العلم والادب على يد إبيه . ثم تابع الدراسة على يد علماء المعرة . تنقل بين مدن الشام كحلب وانطاكية واللاذقية وطرابلس واستفاد من مكتباتها وعلمائها . وقال الشعر وهو صغير .

وفد المعري على بغداد مرتين ظناً منه انه سيجد فيها جو أً من الاستقرار يساعده على متابعة عمله الادبي ، ولكن ظنه خاب ، فلم يجد فيها ما كان يحلم به من تكريم وتقدير . فاتهم بالزندقة . يقال انه جرى ذكر المتنبي عند احد الامراء وكان المعري موجوداً . فانتقص من المتنبي، فدافع عنه ابو العلاء بقوله : لو لم يكن للمتنبي من الشعر الا قوله :

« لك يا منازل في القلوب منازل »

لكفاه فضلا ، فكان ان غضب الامير وامر بأبي العلاء ، فجر من رجله واخرج من المجلس . ثم قال لجلسائه : أتدرون لم اختار الاعمى هذه القصيدة دون غيرها ، فقالوا : السيد اعلم . فقال : لان المتنبي يقول فيها :

وإذا اتتك مذمتي من ناقص ... فهي الشهادة لي بأني كامل

كان المعري جريئاً صريحاً ، معتداً بنفسه وبعيداً عن الرياء . لم يطب له المقام في بغداد . فعاد الى المعرة بسبب مرض امه . إلا انه لم يدركها . فكان الموت اسرع منه اليها. رثاها بقلب باك . لقد تراكمت المآسي على المعري : من عمى وموت امه وابيه وإخفاقه في رحلته الى بغداد ، اضافة الى دمامة خلقه . فآلى على نفسه بعد ذلك ان يلزم بيته طوال ايامه الباقية من عمره ، فسمى نفسه رهين المحابس الثلاثة : محبس العمى والمنزل ومحبس نفسه في جسده. لذلك ، كانت عزلته بعد تفكير طويل وتردد كثير . الا ان عزلته لم تكن فترة ركود وجمود ، اذ فيها نظم لزومياته والف اكثر كتبه ورسائله . وكان الطلاب يقصدونه الى جانب الشعراء والعلماء . .. كان المعري الغني الزاهد يوزع هداياه الكثيرة التي كانت تأتيه على الناس . ويكتفي من مطاعم الحياة بالعدس والتين .

يئس المعري من اصلاح الناس فاعتزلهم . بيد ان آفته وأنفته الى جانب

يأسه هي اسباب عزلته وتوحده . الا ان انطوائيته وطبعه وتكوينه النفسي في الحقيقة وراء عزلته .

كان المعري ذكيا ، قوي الذاكرة . احاط باللغة العربية حتى قيل عنه انه : ما قالت العرب ونطقت بكلمة لم يعرفها ابو العلاء . توفي المعري سنة / ٤٤٩ هـ / بعد مرض دام ثلاثة ايام ، فرثاه الشعراء والفقهاء والمحدثون والصوفية . واوصى ان يكتب على قبره :

هذا جناه ابي علي وما جنيت على احد

صفاته الشخصية : كان المعري مرهف الحس ، حاد الذكاء ، واسع الذاكرة ــ كما ذكرنا ــ قوي الارادة شديد الحرص على بلوغ الكمال ، زاهداً ناسكاً ، يبغض المال ، بعيداً عن الرياء . طعامه العدس والتين وخبز الشعير . فراشه الحصير صيفاً ، واللبد شتاء . يكره شرب الخمر . معرضا عن الزواج لاعتقاده ان الشر في الدنيا غالب على الخير متبرماً بالحياة(١) . ولكنه ، مع ذلك ، كان كريم الاخلاق ، طيب الاعراق ، شديد الحياء ، حريصا على سمعته ، صالحاً ، مخلصا ، مواظبا على العبادة ، مسلما امره الى ربه ، عالما عاملا بعلمه(٢) . ينشر العلم ويخدم الفكر ، يأخذ بالمعقول دون المنقول . وقيل عنه انه : لو رزقه الله جسما غير جسمه ، لكان له شان غير هذا الشان . ولكنه خرج الى العالم بجسم قميء ووجه مشوه ، ففضل ان يسمع الناس عنه ولا يروه ، مردداً قول المثل السائر : « ان تسمع بالمعيدي خير من ان تراه » . بيد انه على الرغم من كل ذلك ، كان شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء في راي بعض النقاد .

هذه نبذة عن شخص ابي العلاء تكشف بعضا من جوانبه وبعضاً من مواقفه في الحياة وخاصة تشاؤمه .

يرد بعض النقاد هذه الجوانب من حياة ابي العلاء الى عوامل خارجية من عمى ومآسٍ وظروف مرّ بها . الا ان الدراسة الطباعية لشخصية ابي العلاء تكشف العوامل الذاتية التي تكون بنيته النفسية. وهذه اهم الصفات الشخصية التي تعكس بنية النفسية ونمطه الطباعي من صورته النفسية :

(١) الا ان هذا الموقف من الزواج والنساء لم يكن نتيجة فلسفة تشاؤمية وملهبية كما عند شوبنهور .

(٢) اختلف النقاد في شخصية ابي العلاء عند هذه النقطة .. منهم من اتهمه بالزندقة ومنهم من نظر اليه بعكس ذلك ، وسيمر معنا ذلك في اختلاف الاراء حوله ، فيما بعد من هذه الدراسة.

ــ **شدة التأذي** : يصنف المعري طباعياً مع العاطفيين . والعاطفي يهتز لجميع الحوادث التي تمس اهتماماته ، وان كانت حوادث يسيرة . إلا ان ترجيعية العاطفي البعيدة تجعله يكبت انفعاله والميل الى الاستجابة . ذلك ان السبب المولد للانفعال ، بدلا من ان يفرغ من إحداث تأثيره وهو على سطح النفس ، وبدلا من ان يتجه الى الخارج ، ينفذ الى قرارة نفسه ويؤثر في اعماقها . فالأذى الصغير يولد في نفسه جرحاً عميقاً لا يندمل . انه سريع العطب . الا انه يكظم انفعاله .

دخل الوزير المنازي على ابي العلاء فسأله : ما هذا الذي يرويه الناس عنك؟

قال : قوم حسدوني فكذبوا علي ، فاجابه المنازي : علام حسدوك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة (يريد بذلك ان يؤذيه) . قال المنازي : قال ابو العلاء : والآخرة ؟ ثم اطرق ولم يكلمني حتى قمت عنه .

وزاره مرة احد القضاة ، فقال له أبو العلاء : لم اهج احداً . قال صدقت ، إلا الانبياء (يريد ان يؤذيه) قال : فتغير لونه .

ــ **تخصص الانفعالية** : ان الترجيع البعيد يمكن العاطفي من وقف الاستجابة ، ويتيح له ان يفكر في الامور التي هزت نفسه وولدت انفعاله ، فيحكم على بعضها بانه تافه ولا يستحق ان يثور له ، فيهدأ الانفعال الذي اضطربت به نفسه ثم يزول (كما حدث للمعري مع المنازي) . ولكنه قد يحكم على بعضها الآخر خطأ او صواباً بانه يستحق ان يهز النفس فيشتد بذلك انفعاله ويقوى (كما حدث له في مجلس الامير حين جر من رجليه) .

ــ **العلاقة بالطبيعة** : كل انسان يدرك الطبيعة وفق طبعه . فالعاطفي كما يشعر بذاته على انها وحدة ثابتة ، كذلك يعني بالطبيعة على انها كل . ولعل عزلة المعري وفقده بصره منذ كان صغيراً جعلاه يقل من صلته بالطبيعة ووصفها .

الشغف بالتامل : يعني التامل تارة ، استسلام الشخص للاحلام على طريق يتنزه فيه وحيداً . ويعني تارة اخرى ، استغراق الشخص ، تبعاً للظروف وعلى غير سابق منهج وتنظيم ، في تأملات اخلاقية عن الانسان ومركزه في العالم وسلوكه ، وكيف ينبغي ان يكون ، وتارة ثالثة ، يعني الريبة والغيرة واختلاق الافكار الوهمية واسناد سوء النية الى الناس بغير حق .

ومن تأملات المعري : يقول :

نــزول كمــا زال آباؤنــا	**ويبقى الزمـــان على ما تــرى**
نهــار يمــر وليــل يكــر	**ونجــم يغــور ونجــم يُــرى**

ويقـــول :

أمســي الذي سرّ على قربــه — **يعجــز أهل الأرض عن رده**

ويقــول :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة — **وحق لسكان البسيطة أن يبكوا**

وعن الجبرية يقول :

كأننــا والزمــان يجــري — **ركـبٌ سـفين بلُجٍّ بحـر**
ركبنا على الأعمار والدهر لجة — **فما صبرت للموج تلك السفائن**

وعن قصور العقل عن الاحاطة بسر القدر ، يقول :

إنما نحن في ضــلال وتعليــل — **فإن كنت ذا يقــين فهاتِه**
لقد علـم الله رب الكمـــال — **بقلــة عقلي وديني ومالـي**

الانطوائية : وهي صفة ذلك الذي يدير ظهره للطبيعة ، للإدراك ، وينطوي على نفسه ، ولا يعنى الا بما يجري في داخله . يقول طه حسين في تجديد ذكرى ابي العلاء (توامه في انصى) : كان ابو العلاء شديد الاعتزاز بنفسه كثير التفكير فيها ، اي كثير الانطواء على نفسه وكثير الشغف بتأملها . يقول ابو العلاء :

وإني وإن كنت الأخير زمانــه — **لآتٍ بما لم تستطعه الأوائــل**

حب العزلة والوحدة : فالانطوائي يحب العزلة والتوحد . عاد ابو العلاء من بغداد حين لم يلق من اهلها ما توقعه ، وظن بهم العداوة ، فعاد الى وحدته وحبس نفسه في بيته لا يقابل احداً بيد انه لم يستمر في الوحدة ، بل عاد يعلم الطلاب وهو يشعر في الوقت نفسه بميل الى الوحدة شديد ويردد قوله :

وفي وحــدة المرء ســتر لــه — **فكن مثل سيفك حلف الربد**

او قوله :

وفي وحدة الانســان اصناف لذة — **وكل صنوف الوحش يجمعها القفر**

ويقول في فضيلة الانفراد ، كذلك :

اذا انفرد الفتى امِنت عليــه — **دنايا ليس يؤمنهـا الخـلاط**
فلا كـذب يقـال ولا نميـم — **ولا غلط يُخـاف ولا غـلاط**
وكـم نهض امرؤ من بين قــوم — **وفي هاديــه مــن خزي عــلاط**

فالوحدة خير جو للانطوائية . ولكن شتان بين وحدة ووحدة . ان كل انسان يحب الوحدة ، احيانا ، لينصرف الى التفكير والعمل . اما المعري فكان ينشد الوحدة ليجد ذاته فيها . تجرحه الاشياء او يجرحهالناس، فيهرب الى العزلة ، ويستغرق في معاناة تجربته الداخلية من اجل ان يتصل بمنابع قوة شخصيته . ولكن لكونه عاطفيا بطبعه ، كان متقلبا بين الوحدة ونشدان المجتمع . كان يهرب من المجتمع واذاه الجارح ، ويشعر اول الامر بلذة عظيمة في الوحدة . ولكن الضجر ما يلبث ان يأخذ بخناقه ، فيتمنى ان يعود الى المجتمع والى طلابه ، ويشجعه على ذلك ان مطامحه تكون قد اختمرت اثناء وحدته ، فيعود الى الناس ليخدمهم . ولكن قد يحرج ثانية ولا يعترف بفضله فيؤذيه كلامهم وموقفهم منه ويظن فيهم العداوة ، ثم يرتد الى الوحدة ، وهكذا وقد مر معنا شعر له في فضيلة الوحدة . ونضيف هنا قوله في لذة الوحدة :

غفرت زمانا في انتكاس مآثم   وعند مليك الناس يلتمس الغفر
وفي وحدة الانسان اصناف لذة   وكل صنوف الوحش يجمعها القفر
وما القبر الا منزل نفرت له   كنوب المنى ثم اطمان بها النفر

ـ **استرجاع الماضي** : ان الشخص الفعال تمده ذاكرته بالمعلومات اللازمة للشروع في عمل ، والعاطفي تمده ذاكرته بما هو في حاجة اليه لتغذية حياته الداخلية . فهو يحن الى الماضي . لقد حن المعري الى المعرة حين ذهب الى بغداد وقال معبرا عن هذا الحنين :

فيا برق ليس الكرخ داري وانما   رماني اليه الدهر منذ ليال
فهل فيك من ماء المعرة قطرة   تغيث بها ظمآن ليس يسال

ولكنه لما عاد الى المعرة كان يذكر ايام بغداد في كثير من الحنين والشوق والاسف . يقول :

يا لهف نفسي على اني رجعت الى   هذي البلاد ولم اهلك ببغداد

نلاحظ هنا عدم استقرار عواطف المعري وتقلبها . الا يعني هذا عدم استقرار نفسي .

وكان المعري يضطرب في موقف ولا يقول شيئا حتى اذا عاد الى هدوئه تكلم . دخل على المعري ذات يوم رجل من قراء المعرة يعرف بابي القاسم فطلب بعض الناس ان يقرأ شيئا من القرآن . فتلا قوله تعالى : « من كان في هذه اعمى فهو في الآخرة اعمى واضل سبيلا » ، وكان يريد ايذاء ابي العلاء ، فاضطرب ابو العلاء ولم يعرف ماذا يقول . ولكنه هجا ابا القاسم بعد ذلك .

ــ **الوسواس** : العاطفي مهيأ للوسواس . وهو ذو مشاعر اخلاقية قوية شكلية بسبب الترجيح البعيد . ومن مظاهر الوسواس : اتهام الذات او النفس وتقريعها بما قد تكون بريئة منه كل البراءة . يقول المعري :

وقد غلب الاحياء في كل وجهة ... هواهم وان كانوا غطارفة غلبا

كلاب تعاوت او تنادت لجيفة ... واحسبني اصبحت الأمهم كلبا

ويقول :

إن مازت الناس اخلاق يقاس بها

فإنهم عند سوء الطبع اسواء

او كان كل بني حواء يشبهني

فبئس ما ولدت للناس حواء

ــ **الكآبة** : والمقصود هنا بالكآبة ليست الكآبة او السوداوية العصبية او المرضية . انما تلك الكآبة القائمة على نظرة فلسفية الى الحياة . فالعاطفي هنا ليس غضبا او ساخطا على الحياة ، لذلك فهو لا يتوجع من مصيره . بل يشكو حظ الانسانية . وليس في هذه الكآبة اسفاف . انها حداد ميتافيزيقي . ولعل دالية ابي العلاء خير ما يستشهد به على هذا النوع من الحداد الذي يرثي فيه حال الانسانية ، يقول :

غير مجد في ملتي واعتقادي ... نوح باك ولا ترنم شاد

وشبيه صوت النعي اذا قيس ... بصوت البشير في كل ناد

صاح ، هذي قبورنا تملأ الأرض ... فاين القبور من عهد عاد

رب لحد قد صار لحدا مرارا ... ضاحك من تزاحم الاضداد

خفف الوطء ما اظن اديم ... الأرض الا من هذه الأجساد

سر ان اسطعت في الهواء رويدا ... لا اختيالا على رفات العباد

لقد حاول بعض النقاد ان يردوا كآبة المعري الى آفته والى حوادث وقعت له في حياته . بل ان في كلام المعري نفسه ما يشير الى ذلك كقوله : انه رهين المحبسين . بيد اننا نلاحظ هنا انه ربما لم يستطع ان يعرف نفسه ولم يكتشفها . ولعل في ذلك يكمن سبب تقلبه في كل ما قاله حسب الظروف التي واجهها . الا ان الحق ، ان كآبة المعري انما تنبع من طبعه العاطفي . وكذلك تفسير كل ادبه وحياته وسلوكه ببنيته النفسية وصيغته الطباعية . ذلك ان

جميع العاطفيين من زمرة المعري يشتركون في صفات نفسية واحدة . اما العوامل الخارجية هي معززات لهذه النفسية وعوامل اضافية لها شانها . وكل تعليل موضوعي يصطنعه إنسان لتبرير ما يعاني من آلام ليس الا تأويلا عقليا لحالة من الكآبة تثوي في أعماق طبعه . وليس السبب الذي يذكره الانسان او تذكره له لتعليل كآبته هو الذي يعللها ، انما الكآبة هي التي تعلل ما يصطنع من الاسباب . اي ان الكآبة سبب وليس نتيجة . وبالتالي فالكآبة من الطبع الكئيب نفسه والثاوي في أعماق ذاته .

ـ الاذعان المسبق للحوادث قبل وقوعها: ان بعض الناس يذعنون لحادث وقع او متوقع الوقوع . غير ان هناك اناسا لا ينتظرون وقوع الحادث المشؤوم حتى يذعنوا له ، بل يسهمون في وقوعه . فهم يذعنون سلفا . مثال ذلك ان ينتقد المرء نفسه للناس قبل ان ينتقدوه ، ومن قبيل هذا الاذعان مثلا امتناع بعض الطلاب عن دخول الامتحان مخافة الرسوب .

يقول المعري في المرأة التي كانت تبكي لفقد ابنها ، لا فائدة من البكاء :

اذا مات ابنها صرخت بجهل ... وماذا تستفيد من الصراخ
ستتبعه ، كعطف الفاء ليست ... بمهل او كثمّ على التراخي

ان وراء الاذعان يأسا . يقول المعري :

حالي حال اليائس الراجي ... وانما ارجع ادراجي
اذا رأيت الخير في رقدتي ... عددتها ليلة معراجي

ـ الخجل : الخجل صفة من صفة الانفعاليين . وجميع الدراسات التي تناولت الخجل تصف الخجول بعين الصفات التي يتصف بها العاطفي ، من ابتعاد عن المجتمع وانطواء على الذات ، واجترار نفسي ، واسراف في تحليل المشاعر واستغراق في الحياة الداخلية ، وزهو ... الخ . وكان المعري شديد الحياء والخجل .

كره البشر : يمكن ان يقال عن الخجل بأنه كره للبشر مؤقت . ويمكن ان يقال عن كره البشر انه خجل دائم . فالعاطفي بانفعاليته وترجيعيته البعيدة يضع مثلا أعلى يريده للانسان مع ملاحظة أنه عاجز عن تحقيق كل ما يود تحقيقه ، فيلوم نفسه على عجزها عن الارتفاع الى مستوى المثل الاعلى ؛ ويقيس الآخرين على نفسه فيلومهم . لذلك ، تراه يقدح ولا يمدح . وهذا هو التنقص من قيمة البشر ، وهذا هو كره البشر . فالناس عند ابي العلاء ـ كما مر معنا ـ كلاب تعاوت او تنادت لجيفة .

ويقول في موضع آخر :

لو غربِلَ الناس كيما يعدموا سقطاً
لما تحصّل شيء في الغرابيل

والانسان عنده فاسد بطبعه،ونفسه مولعة بالشر من قبل قابيل وهابيل. فكان قوة عمياء – في رأيه – مهيمنة على الانسان تسوقه الى الشر رغم ارادته .

يقول :

وما فسدت اخلاقنا باختيارنا — ولكن بامر سببته المقادر
وفي الأصل غش والفروع توابع — وكيف وفاء النجل والأب غادر
فقل للغراب الجون ان كان سامعا — اانت على تغيير لونك قادر

ويقول ايضا :

مضى الزمان ونفس الحي مولعة — بالشر من قبل هابيل وقابيل

ويقول :

تخيّر خلقتنا والشر طبيعة — فما نحتاج فيه الى اختلاف
وقد دُمنا على سوء السجايا — كما دامت قريش على الإيلاف

وهذا الطبع الشرير لا يتغير ، يقول :

تغيّر ملك حمير ثم كسرى — ولم تقبل تغيرها الطباع

والانسان الصالح في راي المعري نادر الوجود : يقول :

حوتنا شرور لاصلاح لمثلها — فان شذّ منا صالح فهو نادر

الا اننا في موقف آخر ، نرى المعري ينقلب في رأيه على عقبيه فينظر الى الانسان على انه خير ويستحق الخير ، ويصبح محبا للبشر بعد ان كان كارها لهم . بل انه يؤثرهم على نفسه بغيرية مطلقة . يقول :

ولو اني حُبيت الخلدَ فرداً — لما احببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت عليّ ولا بارضي — سحائب ليس تنتظم البلادا

ويقول ايضا :

لو كان لي او لغيري قدر انملة
من البسيطة خلت الأمر مشتركاً

التشاؤم : ان ابرز ما يميز شخصية ابي العلاء هو التشاؤم . ولقد وجدنا ان بعض النقاد يردون تشاؤمه الى عوامل خارجية كالعمى والمآسي التي حلت به ، اضافة الى عوامل اجتماعية وفكرية وفلسفية (هندية ـ فارسية يونانية ـ عربية) الا انه قد بينا ان وراء تشاؤمه سببا اساسيا هو طبعه . يتجلى هذا التشاؤم بمظاهر تدل عليه . وأهم هذه المظاهر :

آ ـ احتقار الدنيا ، يقول المعري :

ـ دنياك تكنى بأم دفر لم يكنها الناس ام طيب
ـ دنياك مثل الإناء الخبيث وصاحبها مثل كلب ولغ

ب ـ الزهد والنسك وايثار الفقر : يقول :

الحمد لله وقد اصبحت في دعة ارضى القليل ولا اهتم بالقوت
ومن يَبل بالدنيا وسوء فعالها فليس له إلا التعبّد والنسك

ويقول ايضا :

تعب كلها الحياة فما اعجب إلا من راغب في ازدياد
إن حزناً في ساعة الموت اضعاف سرور في ساعة الميلاد

حـ ـ العزلة والبعد عن النساء وايثار الوحدة : يقول :

هويت انفرادي كيما يخف عمن اعاشر ثقل احتمالي
ـإن صحّ عقلك فالتفرّد نعمة
ونوى الاوانس غاية الإيناس

يدعو المعري الى الامتناع عن الزواج ، لان الحياة ـ في رأيه ـ شقاء . واذا تزوج المرء وانسل اولادا اشقاهم واشقى نفسه بهم . يقول :

النسل فرس لهموم الفتى والعقل مسلوب من الفارس

بيد انه ، وان كان لا بد من الزواج اشباعا للغريزة وصيانة لحياة المرأة ، فليتزوج الفتى ، لكن دون انسال أولاد . ويرى المعري أن خير النساء عنده العواقر يقول :

اذا شئت يوماً وصلة بقرينة فخير نساء العالمين عقيمها

فالمعري عدو للمرأة لانها ، في نظره ، مصدر الشر والفتنة . ولانها غادرة ومتهالكة على لذاتها . والحجاب ضروري لوقاية الرجال من فتنة النساء .

يقـول :

إذا بلـغ الوليـد لديـك عشـراً ... فلا يدخـل على الحـرم الوليد
الا ان النســـاء حبـال غـيٍّ ... بهـن يضيـع الشـرف التليـد

اما تعليم المرأة فشر عنده ، لان القلم بيدها يستحيل الى سهم قاتل لذا . يكفي تعليمها الغزل والنسيج .

ء ـ ممارسة الفضيلة لذاتها ، والحث على التقوى والعفـة والعمـل الصالح والصدقة والصلاة والتوبة . يقول :

ـ فلتفعل النفس الجميل لأنـه ... خـير واحسن لا لاجـل ثوابهـا
ـ تحلَّ بتقوى او تحلَّ بعفـة ... فذلك خـير من سـوار وخلخال
ـ اعمل لأخراك شـروى من يمـوت غـداً ... واداب لدينـــاك مثـــل الفابـر البـاقـي
ـ اذا طرق المسكين دارك فاحبنه ... قليلاً ولو مقـدار حبـة خردل

هـ ـ نقد المجتمع لفقد علمائه وموت حكمائه وتلصص شعرائه وكذب وعاظه ... يقول :

ـ فقـدت في ايامـك العلمـــاء ... وادلهمـت عليهــم الظلمـــاء
غلب المين منذ كان على الخلق ... ومـاتـت بغيظهـا الحكمـــاء
رويدك قد خدعت وانت حر ... بصاحب حيلـة يعـظ النســاء
ـ ومـا شـعراؤكم الا ذئـــاب ... تلصـص في المدائـح والسـباب

ـ محبة الحيوانات وتحريم أكل لحمها : العاطفيون يميلون الى الحيوانات اكثر مما يميلون الى الاطفال . فالحيوانات عندهم جزء من الطبيعة . وقـد عرف المعري بحبه للحيوانات واشفاقه عليها . فقد ناجى بشـعره الديـك والحمامة ورثى الشاة والنحل ، وبكى على الناقة . وقد مرض مرة فوصفوا له الدجاج فامتنع عن اكلها والحوا عليه حتى اظهر الرضا . فلما قدم اليه لمسه بيده فجزع ثم ابى ان يطعمه .

ومن شعره الذي يبين عاطفته نحو الحيوان :

فلا تأكلن مـا اخرج المـاء ظالمـاً ... ولا تبغ قوتاً مـن غريض الذبائح
وابيض امـات ارادت صريحـه ... لاطفالهـا دون الغواني "الصرائح
ولا تفجعن الطـير وهي غوافـل ... بما وضعت فالظلـم شـر القبائح
ودع ضرب النحل الذي بكرت له ... كواسب من ازهار نبـت فوائح
مسحت يدي من كل هذا فليتني ... ابهت لشاني قبل شيب المسائح

ـ **الشعر الفلسفي** : في الشعر الفلسفي يتعانق الانفعال الذي لابد منه لكل شعر ، والتفكير الذي يستند الى الترجيح البعيد . فالشعر الفلسفي خاصة من خصائص العاطفيين من الشعراء . الا ان شعرهم لا يصبح بذلك فلسفة . فهو يشتمل على نظرات فلسفية ، ولكنه لا يتضمن مذهبا فلسفيا بالمعنى الحقيقي . وهذه شواهد على موقف المعري من العقل وقيمته واليقين . لان العقل في رأيه اس الفضائل والاخلاق الفاضلة من موجبات العقل عنده(١) . فاذا تم عقل المرء كان دينا خيرا . يقول :

إذا تفكرت فكـراً لا يمازجـه فساد عقل صحيح هان ما صعبا

فهو يدعو الى اعمال العقل في كل شيء حتى في الشرائع والمذاهب والتقاليد والسياسة . . . يقول :

كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحـه والمســاء

لذلك يفضل المعري المعقول على المنقول من الروايات والاحاديث . يقول :

فشاور العقل واترك غيره هــدرا فالعقل خير مشير ضمـه النادي

ويقــول :

سأتبع من يدعو الى الخير جاهدا وأرحل عنها(٢) ما إمامي سوى عقلي

ويبالغ في تقدير العقل وتعظيمه فيجعله نبيا . يقول :

أيهـا الغر ان خصصت بعقـل فاسألنـه فكـل عقـل نبـــي

الا ان المعري ـ في موضع آخر ـ يتراجع عن رأيه في قيمة العقل فيقلل منها . وهنا ، لا يعطي العقل القيمة التي اعطاها له المعتزلة الذين قالوا بقدرة العقل على معرفة الحقائق الإلهية . اذ ان المعري يشك في امكانية تلك المعرفة فهو من هذه الناحية يقف موقف علماء الدين حين يتكلم عن اركان الدين فيجعلها مسلماً بها بالقلب لا بالعقل . فالعقل عنده يخطىء يقول في ذلك :

سألت عقلي فلم يخبر وقلت لــه سل الرجال فما افتوا ولا عرفوا

ويعود يعترف بالظن والحدس اللذين استبعدهما في البداية . .فيقول :

امـا اليقين ، فـلا يقـين وانمـا اقصى اجتهادي ان اظن واحدسـا

(١) نرى هنا ان المعري قد سبق الفيلسوف الالماني (كانت) الذي يجعل الواجب امرا مطلقا صادرا من الضمير ، والضمير هو العقل في جوهره .

(٢) عنها : اي الروايات والاحاديث .

من هذا الموقف المتناقض من العقل ، نرى تأرجحه بين الزندقة والايمان . فكانت عقدة المعري انه اراد ان يضم الى ايمانه بقلبه ، ايمانه بعقله ، فعجز عن ذلك . فلو اسكت قلبه وانطق عقله لالحد . ولو اسكت عقله وانطق قلبه لآمن . ولكنه لم يستطع ان يرسم الحدود بينهما او ان يوفق بينهما . وصار المعري من ضحايا العقل . فصدق عليه قول بعضهم في (هيجل) : « انه رجل كفر بعقله وآمن بقلبه » . وقد فات المعري ان الايمان : ايمان قلبي وتصديق عقلي.

ـ **التمرد على الاديان مع بقاء الشعور الديني :** ان هذا التمرد ثمرة لموقفه من العقل وعجزه عن التوفيق بين العقل والنقل .

الدين عند المعري ، مشاعر وعواطف من جهة . وعقائد وعبادات وطقوس وتنظيم اجتماعي من جهة اخرى . والعاطفيون يتعلقون بالدين من جهة الاول ويخرجون على وجهه الثاني (وذلك حسب راي المدرسة الفرنسية للطباع) .

الا انه ما يلفت النظر هو ان المعري ، وان كان شديد الايمان بالله ، فان ايمانه لم يكن وجدانيا فحسب . بل كان ايمانا عقليا كذلك . وأهم دليل ، عنده على وجود الله هو الحكمة والعناية الالهية . فالنظام والترتيب في الكون يدلان على وجود خالق حكيم مدبر يقول :

ـ حكم تدل على حكيم قادر متفرد في عزه وكماله
ـ فساد وكون حادثان كلاهما شهيد بأن الخلق صنع حكيم

ويقول :

ـ اقر بان لي ربا قديرا ولا القي بدائعه بجحد

ونجد المعري يؤمن بالحشر تارة ويشك فيه اخرى . يقول بحدوث العالم وفنائه . يقول :

ـ وليس اعتقادي خلق النجوم ولا مذهبي قدم العالم

وفي موضع آخر ينقلب على قوله ويقول بقدم العالم : فيقول :

ـ يا شهب انك في السماء قديمة واثرت للحكماء كل وقار
ـ جائز ان يكون آدم هذا قبله آدم على اثر آدم(١)
ـ وقد زعموا الافلاك يدركها البلى فان كان حقا فالنجاسة كالطهر

(١) لعل المعري هنا قد اخذ من بعض المتصوفة الذين يزعمون ان ادم عليه السلام المذكور قصته خلقه في القران كان مسبوقا بأوادم كثيرين غيره .

وكان يعظم القرآن وينكر جواز النسخ عليه ، ويصفه بعبارات مفعمة بالايمان .

وكان يعظم النبوات والشرائع . الا ان الانبياء والرسل عنده مصلحون اجتماعيون .. يقول :

دعاكـم الـى خير الامـور محمـد فليس العوالي في القنـا كالسوافل
حداكـم على تعظيم من خلق الضحى وشهب الدجـى من طالعات وآفـل

ولكن في هذه المرة ايضا يدور المعري على نفسه دورة باتجاه معاكس فينتقد النبوة ويحاول تفنيدها . ولا يقف المعري عند هذا الحد : اذ يتهم آدم وابناءه بالزنا . ويتهجم على الدين كله . فلما سمع القاضي بشعر ابي العلاء في ذلك ، قال القاضي :

كلـب عـوى بمعـرة النعمـان لمـا خـلا عـن ربقـة الايمـان
امعـرة النعمـان ما انجبـت اذ اخرجت منـك معـرة العميان

لقد كان دين المعري ، اذاً ، دينا مثاليا لا دينا وضعيا . دينا يقوم على العقل والوجدان معاً ــ حسب ما راى نفسه هو ــ ولا يقوم على ممارسة الفرائض

ولكن الغريب انه في موضع آخر يدعو الى الدين بكليته يقول :

نبذتـم الاديـان خلفكـم وليس مـن الحكمة ان تنبـذا

نستنتج مما سبق ، ان المعري قد مر بحالتين ، احداهما حالة عقلية مثالية ، والاخرى حالة عاطفية وجودية ــ حتى اذا تجاذبته الحالتان في وقت واحد ، كل من جهة ، وتساوتا في القوة وقع في الحيرة والتردد والشك ، واعلن حيرته ، وقال محتارا :

اثنـان اهـل الارض . ذو عقـل بلا ديـن . وآخر دين لا عقل لـه

واغرب الغرائب منه ان يعود في موضع آخر الى الدين والايمان وممارسة الفرائض الدينية . ويقول :

وشاهـد خالقـي ان الصلاة لـه اجـلُّ عندي مـن در وياقوت

تلك هي حيرته حيال الدين وتأرجح عقله بين الايمان والزندقة .

ــ موقفه من المصير : رأي المعري من المصير متصل بمذهبه في التشاؤم من الحياة وايمانه بالجبرية ورأيه بطبيعة الانسان التي يراها انها فاسدة والشر فيها يغلب الخير . فهو يائس من الحياة . لان الانسان مسير لا مخير في رأيه . ويرى ان مجيئنا الى العالم باضطرار لا باختيار . يقول :

ـ ولم نحلل بدنيانا اختيارا — ولكن جاء ذلك على اضطرار
ـ وما باختياري ميلادي ولاهرمي — ولا حياتي فهل لي بعد تخيير

وحتى اخلاقنا مقدرة لنا . يقول :

ـوما فسدت اخلاقنا باختيارنا — ولكن بامر سببته المقادر

والعقل لا يستطيع ان يغير او يبدل حكم القدر . لان القدر فوق العقل . يقول :

العقل زين ولكن فوقه قدر — فماله في ابتغاء الرزق تأثير

ولكنه يعود ثانية فينفي هذه الجبرية . لان الانسان مسؤول عن افعاله . والا كيف يعاقبه الله او يحاسبه عليها . والله لا يظلم احدا . يقول :

اذا كان من فعل الكبائر مجبرا — فعقابه ظلم على ما يفعل

الا انه في لزومياته نجد موقفا ثالثا هو موقف التوفيق بين الجبر والاختيار . يقول :

ـ لا تكن جبريا ولا قدريا — واجتهد في توسط بين بينا

اما الشر عند المعري فقد جاء من التقاء الروح بالجسم وانحباسها فيه . يقول :

الجسم والروح من قبل اجتماعهما — كانا وديعين لا هماً ولا سقما

يؤمن المعري ببقاء النفس بعد الموت وخلودها . يقول :

خلق الناس للبقاء فضلّت — امة يحسبونهم للنفاد
انما ينقلون من دار اعمال — الى دار شقوة او رشاد

ويقول ايضا :

قال المنجم والطبيب كلاهما — لا تحشر الاجساد . قلت اليكما
ان صح قولكما فلست بخاسر — او صح قولي فالخسار عليكما(١)

لان الاجساد تحشر ويبعث الاموات :

وقدرة الله حق ليس يعجزها — حشر لجسم ولا بعث لاموات

---

(١) تلاحظ هنا سبق المعري (باسكال) الذي اطلق عبارته المشهورة في الدفاع عن الدين بقوله ويخاطب خصومه : اذا كان لا يوجد اله ، فلست اخسر شيئا . ولكن ان كان موجودا فقد خسرتم كل شيء .

ولكن كعادته يعود فيشك في خلود النفس وحشر الاجساد ويحتار قائلا :

- خذ المرآة واستخبر نجوماً   تمر بمطعم الآري المشور
- تدل على الحمام بلا ارتياب   ولكن لا تدل على النشور
- دفناهم في الارض دفن تيقن   ولا علم بالأرواح غير ظنون
- يحطمنا ريب الزمان كأننا   زجاج ولكن لا يعادله سبك

تلك هي مأساة الانسان ومصيره . يولد ليشقى ويشقى ليموت . فالموت عند المعري راحة للانسان . وهنا يستسلم المعري كليا ويقول : ان وجود الله المهيمن على الدهر والنور المحيط بظلمات الوجود والعقل الهادي الى الرشاد ، كل ذلك يولد في نفوسنا وقلوبنا الطمانينة والرجاء . والله الذي خلق كل شيء قادر على انقاذنا من مخالب الدهر . ومن ادرك مأساة الحياة ولم يقنط من رحمة الله صار اقوى من الموت . لذلك يقول :

إذا كنت بالله المهيمن واثقاً   فسلم إليه الأمر في اللفظ واللحظ

- **الانفجار النفسي** : لدى العاطفي اندفاعات انفجارية نتيجة انفعاليته ، ولكن ترجيعيته البعيدة تلجم الاستجابة . الا ان الانزعاج اذا تكرر واصاب موضعاً حساساً انفجر بعنف شديد يخرج عن حدود اللياقة مثلما حدث للمعري في مجلس الامير . ومن مظاهر الانفجار انقطاع العاطفي فجاة عن الصمت . فهو قادر على الصمت الطويل اذا كان في بيئة لا يحس انها تتعاطف معه . إلا ان الصمت ليس سوى قناع يستر وراءه توتراً نفسياً قوياً يظهر بعنف لدى حصول مناسبة .

- **التردد والحيرة** : العاطفي متردد ومتقلب وكثير الحيرة . وقد بينا حيرة وتردد المعري . هذه الحيرة التي جعلته يتذبذب بين قطبي اي موضوع طرقه بشعره .

- **فقدان المبادهة** : مبدأ المبادهة هو الثقة بالمستقبل . ويكون العاطفي المتشائم غير واثق من المستقبل واخرق فاقداً للحس العملي بسبب انفعاليته وعدم فعاليته . إنه انطوائي يميل الى التفرد والسلبية .

- **كره الجديد** : العاطفي يخاف التجديد . ويخاف تغيير الظروف التي الفها واعتاد عليها وتلاءم معها . وهذا ما ساعد المعري على تحمل السجون الثلاثة بمدة عشرات السنين . وهذه المحابس او السجون هي : محبس العمى ومحبس المنزل ومحبس نفسه في جسده . يقول المعري :

اراني في الثلاثة من سجوني فلا تسال عن النبا النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي وكون النفس في الجسد الخبيث (١)

ـ **السآمة** : كان المعري إمام الشعراء الذين افاضوا في التعبير عن الضجر والسآمة والزهد في الدنيا والملل منها : يقول :

تعب كلها الحياة فما اعجب إلا من راغب في ازدياد
ضجعة الموت رقدة يستريح الجـ ـسم منها والعيش مثل السهاد

واعتبر المعري مجيئه هو الى العالم جناية ارتكبها والده بحقه . لذلك ، زهد في الحياة وتقشف الى ابعد الحدود حتى وصل حد إذلال الذات وقهرها . كل ذلك بسبب طبعه العاطفي الذي هيأه لتلك الحياة البسيطة والمتقشفة وقلة الميل الى المتع الحسية . فكان المعري اقرب الى النسك من اي شيء آخر ، لبس الصوف الخشن . نام على اللبد شتاء وعلى الحصير البردي صيفا . اكتفى في مطعمه بالتين والعدس وخبز الشعير . امتنع عن اكل اللحم واللبن والعسل ، فكان نباتيا مدة تزيد على خمسة واربعين عاماً من عمره . وقصيدته الحائية التي جاء فيها :

ولا تفجعن الطير وهي غوافل بما وضعت فالظلم شر القبائح

دليل على موقفه في الحياة .

ـ **قوة العاطفة الاخلاقية** : لدى العاطفيين عاطفة اخلاقية قوية . فهم يخضعون انفسهم لقواعد ومبادىء مقررة صارمة . ويوفقون بين اقوالهم وافعالهم . ومن اقوال المعري :

ـ إذا فعل الفتى ما عنه ينهى فمن جهتين لا جهة اساء
ـ لو كان لي او لغيري قدر انملة من البسيطة خلت الامر مشتركا

وفي المساواة وعدم التعصب يقول :

لا يفخرن الهاشمي على امرىء من آل بربر

ووجدناه يحث على ممارسة الفضيلة والتقوى والعفة والعمل الصالح والصدقة . . .

(١) فكرة حبس النفس في الجسد (المادة) فكرة هندوكية . وعبر افلاطون عنها بان الروح كانت تحيا حياة علوية مثاليه فسجنت في البدن .

تلك كانت صورة المعري النفسية ، وهي صورة لم تلم بكل تفاصيل حياته النفسية الفنية بالوانها المختلفة . ولم تات الشواهد كذلك كافية تغطي جوانبها المختلفة . إلا انها محاولة لدراسة شخصية المعري من خلال ما قاله هو بالذات من شعر ، من وجهة نظر مدرسة الطباع الفرنسية .

خاتمة : لم يعرف الأدب العربي شخصية جمعت تناقضات مثلما جمعتها شخصية ابي العلاء المعري. شخصية حوت بين جنباتها شتى المذاهب الفلسفية والفكرية من فلسفة هندوكية وفارسية وعربية ويونانية .

لقد تجلت تناقضات المعراي في كل ميدان راده وتكلم فيه . فكان لا يقول براي إلا ويناقضه . كان متقلب المواقف حتى من نفسه . فقد مدحها واعتز بها ثم ما لبث ان هجاها . اعتزل الناس واغلق باب بيته دون طلابه ثم دعاهم لسماع شعره . وثق بالعقل للوصول الى الحقيقة ، بل اعتبره إماماً ونبياً ، ثم اتهمه بالقصور عن ادراك الحقيقة . قال بالمذهب الجبري ثم قال بمذهب الحرية والاختيار . آمن بغيبيات الدين ثم شك فيها . حارب الزواج بشدة لكنه تساهل فيه . وكانت له آراء غريبة عن المجتمع العربي مثل دعوته تصويب انتساب الانسان الى المراة او الولد الى امه يقول في ذلك :

إنما نحن في ضلال وتعليـــل فإن كنت ذا يقين فهاتـه
جهلوا من ابوه إلا ظنونـا وطلا الوحش لا حق بمهاتـه

إلا ان الأمر الذي حير نقاده ، هو حيرته هو بالذات امام الدين فمحسن للظن فيه ياخذ دعوته الى الدين . ومسيء للظن فيه ياخذ قدحه للدين . وكل يجد في شعره ما يؤيد كلامه .

اما تشاؤمه . السمة البارزة في شخصيته ، فلم يكن تشاؤماً منهجياً او مذهبياً منسجماً كما هو التشاؤم عند شوبنهور . ولكن المعري سواء بنى تشاؤمه على مذهب فلسفي ام كان مجرد سمة في شخصيته ، فإنه يلتقي مع المتشائمين المنهجيين امثال شوبنهور في الوصول الى حالة (النيرڤانا) كما في داليته : غير مجد في ملتي واعتقادي . . .

هذه الحالة التي تستوي فيها الأمور ونقائضها : الخير والشر . الموت والحياة ، الحزن والفرح ، اللذة والالم ، الصحة والمرض ، البكاء والترنم او الإنشاد ، طلوع الشمس وغروبها الخ .

نستنتج من كل ما سبق ، ان آراءه جاءت متناثرة على صفحة حياته العقلية . وجاءت عواطفه وانفعالاته مبعثرة في زوايا حياته النفسية . فكانت آراؤه الفلسفية شطحات او حدوساً او نثارات لا يربطها مذهب موحد . وهو لم يقدم نظرة متكاملة للحياة ، ذلك ان آراءه تفتقر الى بناء منطقي متماسك

واســـاس متين يربط بين اجزائهـــا ، مثله في ذلــك مثــل الفيلســوف الالماني (نيتشــه) ، وربما كان الشيء الوحيد الملحوظ في شعره انه كان شـديد الايمان بالله ، يدين بدين مثالي لا وضعي ، ولعله كان يقول بمذهب الالوهية الطبيعي .

عاش المعري كئيباً حزيناً ولديه شعور بالظلم والاضطهاد من الناس ، ربما وصل حد جنون الاضطهاد ، لأن الناس لم يقدروه كما اراد هو لنفســه وسافر من اجله . لقد حسـده الناس وذموه واساءوا اليه . يقول في ذلك :

فاصبحت محســوداً بفضلي كلـــه ... على بعد انصــاري وقلـــة مالي

وقد وصفه ياقوت الرومي في معجمه بالعته والجنون .

خلاصة القول : إن اساس هذه الشخصية الغريبة التي حوت كل هــذه المفارقات ، ومرتكزهـــا هو تكوين نفسي ومزاج وطبـــع ، كانت السمات التي درسناها مظاهر لهذا التكوين . وكان وراء هذا التردد والتأرجح في كل موقف ورأي بين طرفي نقيض ، كيان نفسي ممزق . أما العوامل الخارجية من عمى ومآسٍ حلت بها ، وفوضى اجتماعية وفكرية وسياسية واقتصادية كانت سائدة في عصر المعري ، إنما كانت معززات لتلك الشخصية لتستمر هكذا مدة اكثر من نصف قرن . كان بشار بن برد اعمى ولكنه لم يكن كالمعري ، فقد التزم منهجاً واحــداً لم يتغير .

ولعلنا نستطيع ان نضيف سبباً آخر لتناقضات المعري وهو انه كان يريد ان يقول شعراً جيداً من حيث البناء دون الاهتمام بالموضوع . او ابــة كان يخوض في كل ميدان دون ان يأبه للتناقض ، ليثبت لمنافسيه انه قد جمع علوم زمانه وفنون الاداب .

بيد ان المعري وإن لم يثبت على رأي وموقف ، فقد كان صادقاً مع نفســه . التزم في سلوكه ومعاشه اليومي حياة الزهد والتقشف في المأكل والملبس ، لم يطعم من لذات الدنيا وشهواتها شيئاً ، وعاش ملتزماً بقواعد اخلاقية صارمة فرضها على نفسه . ينفق ماله وما يأتيه من هدايا على الفقراء .

المصـــادر :

- علـم الطبـاع : المدرســة الفرنسيــة ، الدكتور : سامي الدروبي .
- اللزوميـــــات : ابــو العــلاء المعـري .
- تاريخ الفلسفة العربية : الدكتــور جميــل صليبــا .
- ابــو العــلاء المعـري : سـمير صــارم .
- مجلة العلـم العـربي : عـدد حزيـران ١٩٧٧ .

* * *

شعر

اللهب المقفى

ياسين الأيوبي

قصة

« قائمة المسروقات »

سعيد سالم

ابداع

ابـــــداع

شعـــر

اللهـــب المقـــفى

ياســـين الأيـــوبي

- ١ -

لاشيءَ يُرْجَى من زمانكَ يافتى ! ..
خَدَرٌ يَدبُّ بقاعِ روحكَ ..
لا تَعي من امرِه شيئا ..
ولكنَّ الجليدَ يَضجُّ في الأعماق ،
ينهدُّ انتفاضاً ،
يَفتتلي فوّار بركانٍ من الفرحِ المباغتِ
يافتى !...

- ٢ -

صاغَ العذابُ المزدهي في قاع روحكَ
موقداً لتصدُّعِ الغيم المعشّش في سراديب الكآبةِ ..
اين انتَ من الكآبةِ والسّقامُ ؟
ذاكَ الجمالَ الشاهقَ المنصوبُ فوق الوحيِ
والالهامُ ؟ ..

مَرِّغْ جبينكَ بالأَلَقْ
وتَرسّم الأشواقَ تجري فوق مخضوب الأُفقْ !.
مِنْ وَشيها خفقَ الحنينُ بأنملاتِ العازفينْ ..
وشَدَتْ بنفسجةُ الحقولِ ..
على شفاهِ العائدين !..

- ٣ -

جَنَّ الظلامُ .. ،
اختلَّ في البُعْدِ المَدارُ ..
الصوتُ يزحفُ في شرايين الجدارْ !..
لا ترحلي يا أيكةَ قربَ العَشايا !.
جِلبابُها يَطوي دُجَى الأغوارْ ،
قد شارفتْ غَسَقَ المرايا
واجتثلتْ عنقاً رُخاميا
وَوَجْهاً قرمزيا ..
بَحّتِ الأوتارْ
هامتْ عند مَسْراها الوصيفاتُ العرايا ...
مِنْ وجدهنَّ ،
ارتاعتِ الأبصارُ في وجهِ المليكةِ ،
وشَحَتْها قبّةُ القلقِ الهيوليُّ المصَفّى ...
أشرقي في مُقلتيها !
جَرِّحي آذانها وَصلاً هَديرياً
يُقَضْقِضُ خافقيها !..
لا تبرحي الأعماقَ ،،
جُرِّيني إليها ، كيفما كانَ ،
انتزعيني ، من جذوري المُعتِمات ..
ظلّي هناكَ ..
وهاجري في كل ناحٍ من تضاريسي ...
لا تبرحيني ، قَيْدَ حلْم الهُدْبِ في عين السجينْ !

- ٤ -

لاشيءَ يُرجى من وصالٍ او حنينْ ،،
بعدَ انطوائكَ يا فتىً خلفَ السُرادقِ ،
لاتعي الخَدَرَ الذي يَسري بِرَوْعِكَ
عندما يحتلُّ بُرجَكَ فاتحٌ مِن آلفِ آلفٍ ،
لا ترى في الافقِ إلا البَرْقَ
والآنهارْ ...
لنْ تُدرِكَ الوَقْعَ الدفينَ
فأنتَ أنتَ ، الآنَ في الاعصارْ !..
أوثِقْ رِكابَكَ ، إنَّ نوحاً
جَمَّعَ المرساةَ ،
أوشكَ أنْ يَشُقَّ ثرى البحارْ ...

- ٥ -

يا ايها المدفونُ في زَمَنِ التقدمِ والتغيُّرِ ،
لوحةٌ مُرَبَّدةَ الألوانِ والأضواءْ !.
يا ايها المأفونُ
لمْلِمْ مالديكَ ،
فقد تفوزُ بمقعدٍ وَسطَ السفينةِ !..
إختطفْ قَبَساً من الأصداءِ
إنْ فاتتكَ قافلةُ الطيوبِ
وموكبُ الإسراءْ ...
يا ايها الملِكُ البليدُ
توارتِ الدنيا ..
آفِقْ .. كي لاتظلَّ تقيئُوا للذكرياتِ ،
يَسْقُطَنَّ عندكَ ، زَفْرةً في زفرةٍ
تَلْتظي بوَهمِ الحلْمِ والأشلاءْ !!

- ٦ -

يايوسفُ الصديقُ ، مالكَ لاتسافرُ
وَحدَكَ الآنَ ؟..
هي ذي رَاحلتُكَ الخفيفةُ ،
بانتظارٍ ...
وَدَعْ أباكَ ،
فلنْ يَشتقَّ عليهِ بُعدُكَ ..
إنهُ رُبَّانُ سَفرٍ ،
دائمُ التطوافِ ، في صَمتِ المحَارِ ...
هَيِّئْ لنفسِكَ كلَّ أسبابِ التجلَّةِ
والوقارِ ..
واجلسْ على عرشِ الجَمالِ !!..
ذاتَ الجلالةِ ، مهرجانٌ يَختلبُ الأوصالَ !..

لا يستوي الصمتُ الرتيبُ ،
وجوقةٌ جاءتْ من الفردوسِ :
إيقاعٌ وترتيلٌ .. وأنهارُ ابتهالُ
يا مَجدَ معشوقَيْنِ هاما في البراري والقِفارِ !!
مَلِكَيْنِ من نورٍ ونارٍ !..

- ٧ -

يا أيها المَنسيُّ في غَسَقٍ من التذكارِ :
هلاَّ شَددتَ في بَوْحِها الأسرارَ ؟..
حتّى مَ يَفتشاكَ الوجومُ ؟..
لاشيءَ يُرجى من صلاةٍ أظلمتْ فيها النجومُ !..
وَتَسربَلَتْ أنفاسُكَ الحَرّى
باطيافِ الشحوبِ

وانتَ في ظمأ ، وفي صمَمٍ مُريبٌ !..
يالابتعاثِكَ من ركودٍ شارفَ الأعماقَ !
يالاهتدائكَ للبريقِ
يَشعُ في وَجهِ الآديمِ ، يهدهدَ الآفاقَ !!

- ٨ -

لاشيء يُبْرِىءُ سُقمَ روحكَ
في سحيقِ الإغترابْ
مالمْ تشُدُّ وثاقَكَ الأزليَّ
بالصَّخَبِ المُدَوِّي بين أدغالِ الغيابْ
تسمو على الأصالِ ،
يَصدحُ ضوؤها أرَجاً يمانيّاً
يَذُرُّ الحبَّ في الأرْجاءِ ،
يَنْبهرُ الشَّبابُ ...

سافَرْتَ ، أمْ واكبْتَ ظلّكَ
في رقادٍ أدركٍ
تسْجتُ معالمَ ، البلابلُ في وَداعِ الأمسياتِ ..
أشرَعْتَ روحكَ النشيدِ ،
يزُفُّ للدنيا خلاصةَ سَرْمدٍ
من مَرْشفِ الخُلْدِ ...
ام اطرقتْ عيناكَ تستجلي السكونْ
ظِلّلاً تسَرْجَها الظنونُ ،
في هَدأة الحِنْدِ ...
لنْ تعرفَ الايامُ لونَ دجاكَ
مهما نأتْ عنها المعالمُ والرسومُ ..
صُوَرٌ تطرّزها رؤاكَ ،
متخطياً فيها التخومَ !!

* * *

ابـــــداع

قصة

قــائمــة المســروقات

سعـــيد ســالـــم

– ١ –

ذات يوم لفت انتباهي احد زملائي بالعمل الى ان ابني قد اصبح يفوقني طولا وعرضا . اتصلت على الفور بزوجتي لاتاكد مما سمعت . قالت لي انني مجنون ، وانها تحشو في تلك اللحظة ورق العنب بالأرز والبقدونس ، وسوف تضطر بعد هذه المكالمة الى تنظيف سماعة التليفون .

عندما عدت الى المنزل تفحصت الولد جيـدا دون ان يلحظ ، اذ وقفت بجواره فتبين لي صحة ادعاء زميلي . امعنت النظر في صدره وساقيه حيث كانت غابة من الشعر الكثيف تنتصب في حدة على جلده . لمحني الولد فنظر الي بارتياب . اصطنعت على وجهي تقطيبـة لم اكن مقتنعـا بجدواها ، ولكي ابـدد ارتيابـه سألته عن احوال دراسته فاجاب ببساطة :

ــ زفـت يا ابي

ــ الم تجد كلمة انظف من « زفت » هذه كي ترد بها على سؤالي ؟!

ــ اني استخدم التعبير الدقيق عن الحالة كما علمتني .. المدرسة فوضى والمدرسون لا يشرحون شيئا ولا امل في النجاح .

ــ والناظر والادارة والموجهون ووكلاء الوزارة .. اين مسئوليتهم عـن هـذا كلـه ؟

ــ كن عمليا يا ابي كعهدي بك . لا مفر مـن الدروس الخصوصية والا فالعوض على الله .

اذن فهناك اكثر من حقيقة يجب الانتباه اليها جيدا . الاولى ان الزمـن سرقني دون ان الحظه اذ بلغ ابني السـابعة عشر من العمر ، وبينما اخـذت عضلاتي في الضمور وعموم شهواتي في الانكماش وصوتي في الخفوت ، فقـد اخذت عضلاته في التضخم وصوته في الغلظة اما شهواته فلم الحظ مظاهرها بعد الا في نهمه الشديد لالتهام الطعام وربما يستتر .

والحقيقة الثانية هي ان مستقبل الولد بات في خطر ينبغي ان احميه منه ما دمت قد ساهمت في ايجاده بهذه الحياة عقب لحظة حب غير مسؤولة او ربما كانت مسؤولة والله اعلم .. من صميم حقه تجاهي ان اجنبه صحبة اصدقاء السوء سواء من الشمامين او حاملي المدى والجنازير والرؤوس الخاوية ، وان اعبر به شهادته الثانوية ليشق من بعدها طريقه في الحياة كيفما يريد .. وهكذا اجنبه منذ البداية ان يتعرض مثلي للسرقة ثم لا يكتشفها الا بعد فوت الاوان .

ــ ٢ ــ

آلمني كثيرا ان اكتشف لصوصية الزمن في وقت متاخر . لكن الذي خفف من حدة هذا الالم هو شعوري بانها ليست المرة الاولى او الثانية التي يتم فيها نشلي دون ان ادري ، لا في الزمان فقط وانما في المكان ايضا .. وعلى من يشك في صدق شعوري هذا ان يتتبع قصتي الى نهايتها حتى يصدقني ، وبعد ذلك سوف يكتشف انه هو الاخر مسروق فيندهش وينزعج ويثور ويصرخ وينطح الحائط دون جدوى ، ثم لا يملك الا ان يتعاطف معي كخطوة اولى لست ادري كيف ينبغي ان تتبعها خطوات لن تحدث .

على اية حال كان ينبغي ان احسم مسالتي مع الزمن قبل ان اتجه بكليتي الى اي مسـألة اخرى .. دون ان اغادر مقعدي توجهت الى الشرطة وحررت

محضرا ضد الزمن ثم الى المحامي كي ارفع دعوى ضد نفس المتهم . لم اعبأ بنظرات الاشفاق والسخرية لايماني بانني امارس حقا من حقوقي المشروعة في دولة متحضرة . لم تستطع الشرطة كما لم يستطع القضاة حسم خصومتي مع الزمن ، لابد ان هناك وسيلة اخرى .

ــ إعقل يارجل .. الولد يذاكر بالغرفة المجاورة .

ــ فمن يأخذ لي حقي من الزمن ؟!

ــ الزمن لا يخاصم وانما يخضع له .

ــ الا تتقمصك روح افلاطون الا في هذه الليلة المفترجة ؟!

تكررت محاولاتي المتنوعة للقصاص من ذلك اللص غير المرئي دون طائل كان الانزعاج يبلغ بي مداه كلما ادركت انه يواصل سرقتي في تبجح علني بمرور الوقت ، حتى ايقنت في النهاية انه لامفر من الانصياع لفكر زوجتي المسالمة وصمت الشرطة والقضاء . تركت للزمن خصومتي مع الزمن وقلت ان الحياة رغم كل شيء لاتخلو من جمال فتوكلت على الله وانطلقت في رحاب الايام .

- ٣ -

ــ من اين اتيت بالفي جنيه ؟

ــ بعت بقية مصاغي حتى نوفر ميزانية مستقلة للمدرسين .

اخذتني المفاجاة فظللت شاردا في شوارع المدينة حتى قلت لها :

ــ ترى ، هل يقدر ابنك هذه التضحية ؟

ــ هذا لا يهمني في شيء .

وضعتني في موضع دقيق . هي تعلم كم اعارض مبدأ الدروس الخصوصية لاخشية انفاق ، وانما رغبة في ان يعتمد الولد على نفسه . لقد حسمت المسألة بأسلوبها الخاص لتضعني امام الامر الواقع . لم يكن الاستفزاز دافعي حين قلت لها :

ــ ليته يفكر في زيارتك مرة كل شهر بعد عمر طويل .

قالت بثقة آلية مضحكة :

ــ ابني اصيل .

ــ وقد يتحول مثلي الى معاصر بعد ان يتزوج وينجب ، فانا افكر منذ عدة اسابيع في زيارة امي دون ان اجد الفرصة لذلك .

ـ لاوقت للجدل . عليك بالاتصال بالمدرسين في جميع المواد .
ـ جميع المواد ؟!

اسفرت هدنتي الاضطرابية مع الزمن عن حرب سافرة مع اذنابه من اللصوص فراحوا يفتشون في حياتي وينتهكون اقداسي ويهددون طمأنينتي . دق جرس الباب . وائل يسأل عن حمادة وحمادة عند مدرس اللغة العربية . رائحة عطر فاخر تفوح من قميص وائل الفاقع الالوان ممتزجة برائحة عرق نفاذ . يبدو ان هذا الولد الانيق لم يستحم منذ اسبوع على الاقل . سألته ان كان يريد ان يبلغ ابني بشيء حين يحضر فأجاب بان هناك اتفاقا بينهما على انشاء فرقة موسيقية تحمل اسم « الملائكة البيضاء » . رائحة الدخان راسخة في فمه وآثارها على لون اسنانه . منذ عشرات الاعوام طردت امي بالامية صديقا خجولا كان يريد ان يذاكر معي . قالت له بحنان لا يفترق عن الحزم في شيء :

ـ رح يا حبيبي ذاكر عند امك . كل واحد يذاكر وحده احسن .

شعرت بالمهانة امام صديقي . تصورت ان اي تلذذ بالغاء رجولتي . اردت الترفيه عن نفسي . لم يكن التلفزيون قد دخل مصر ، كما لم يكن باستطاعتي أن اغيب عن المنزل ساعات ثلاثا متواصلة اشاهد فيها الوسادة الخالية وفومانشو الجبار . نصحت وائل بتغيير اسم الفرقة المقترح الى « السور السوداء » حتى يكتب لها النجاح ، وكنت على ثقة من رسوب هذا الشاب في المستقبل امام امتحان السرقة .

في يوم آخر جاء وليد ضرغام يسأل عن حمادة عند مدرس الفرنسية والاستاذ ضرغام جاري وصديقي . مسروق هو الآخر يشكو في كل مجلس من زميله الذي تخطاه في الترقية لمجرد انه يحمل مؤهلا عاليا رغم انه لا يفقه شيئا عن عمله . والاستاذ ضرغام صاحب نظرية واضحة في تربية الابناء وتعليمهم . يحدد لوليد عددا من الصفحات في كل كتاب ووقتا محددا لحفظها حتى لو كانت في مادة الرياضة بعد انتهاء الوقت المحدد يمسك بيده حزام بنطلونه ويطلب من وليد تسميع الصفحات بالكلمة ، والغلطة بجلدة على اي مكان في جسده . الغلط كان بأربع جلدات والثلاث غلطات بتسع وهكذا بحيث يتخذ العقاب شكل متوالية هندسية منتظمة . يتباهى ضرغام بأن هذه الوسيلة اتت بثمار طيبة فالولد يحفظ جميع المواد ومن المؤكد انه سيحقق حلم ابيه بأن يصنع منه طبيبا دون ان يسمح لمدرس خصوصي واحد بسرقة حقه في تعليم ابنه بالمجان .

قدمت الشاي لوليد وجلست معه . عرفت ان ميوله ادبية وانه لايكره الفيزياء والكيمياء والرياضيات فحسب ، وانما يكره الحياة ايضا لانه لايريد ان يكون طبيبا ولن يكون كذلك . رغم اشفاقي على وليد فاني اكبرت فيه حصانته ضد السرقة بتحديه الصامت لقرار ابيه ، قال بحياء :

ــ اني احسد حمادة عليك .

تراودني دائما فكرة رائعة استطيع ان انقذ بها هؤلاء الفتية من الاستسلام للسرقة .. ولكن هل أجرؤ على البوح بها ؟!

ـ ٤ ـ

اقتحم السباك خلوتي مطالبا بعشرة جنيهات في مقابل تسليك بالوعة الحمام ، مما جعلني اشعر بدوار غريب . كانت مخارج الحروف من فمه تثير تقززي بشدة . وعلبة المارلبورو البارزة من جيب قميصه الكاوبوي القذر تثير اعصابي بنفس القدر . اخترقت حجب الزمان والمكان فرأيت نفسي اجلس في بيت صغير جميل محاط بأغصان الشجر أقمته بمزرعتي في الصحراء ، اتحاور حول قصيدة رومانسية لشاعر مصري مع شاب ظريف يقوم باصلاح عطل كهربائي طارىء . بعد ان انتهى الشاب من اداء عمله طلب مبلغا رأيته زهيدا بالقياس الى ما بذله من جهد وما ادخله على قلبي من سرور بخلقه الحسن وثقافته الجيدة . عرضت عليه ضعف ما طلب ، لكنه أصر على تقاضي ما حدده من اجر فقط . قبل ان ينصرف سألته بفضول شديد :

ــ ما هي مؤهلاتك الدراسية يا بني ؟

ــ دبلوم فني متوسط في الكهرباء .

ــ ومتى حصلت عليه ؟

ــ عام ٢٠٠٠ م .

لكن فظاظة السباك وسوقيته نشلتني من حلمي الجميل واعادتني الى الزمان والمكان حيث انا مسروق . . ومرة اخرى استسلم للسرقة فأعطي السباك ما يريد لينصرف بعيدا عن وجهي . اقبل حمادة متجهما يلعن المواصلات التي اخرته ساعتين . انا اعرف انه كاذب . اكثر من مرة يتصادف ان اسمع جملا متناثرة من حواراته التليفونية مع وائل يشكو فيها اليه من مرابطتي بالمنزل لمتابعة دروسه ، ويعبر له عن تبرمه الشديد بكثرة نصائحي له حول أمرين

لا يتغيران هما الالتصاق بالمكتب وتجنب أصدقاء السوء .. اكاد اجزم انه كان يستمتع مع صديقه بتدخين سيجارتين ينفثان في دخانهما ظنا راسخا بان الآباء مولعون بسرقة حرية ابنائهم .

حاولت جهدي ان اجعله يقرر مصيره بيده . اطلعته على ما احتفظت به من اوراق منذ كنت في عمره . لم يكن لي اب يوجهني فكنت اضع لنفسي برنامجا اسبوعيا وآخر يوميا . وفي نهاية كل فترة اعطي لنفسي درجة مئوية تمثل نسبة تحقيقي للخطة . اعمل الآن مديرا باحدى الوزارات المسئولة عن تنفيذ الخطط الخمسية والسنوية للدولة . ما احلم به شيء وما اخطط له شيء وما يحدث شيء آخر . يقول لي حمادة ان زمانهم غير زماننا وهذا ما اعرفه ولا حيلة لي فيه . ضاعت من العام عدة اشهر حتى تبين لي فشل خطتي في عقد صداقة معه . قررت التفرغ له بصفة يومية بعد عودتي من العمل دون ان اقع اسيرا لإغراء نظرية ضرغام في التخطيط بالحزام .

— ٥ —

من عاداتي التي لا غنى لي عنها ان انام قليلا بعد الغداء وإلا فقدت السيطرة على جهازي العصبي تماما . إن لم انم لا ارى ولا افهم ولا اسمع .. الذي استجد هذه الايام هو تلك الاصوات البشعة المنكرة التي اسمعها تنادي بالميكروفون لبيع الماكولات ساعة العصر ، لا احد يعترض او حتى يتذمر. اصبح الناس يعتادون اي شيء ويألفونه على الفور مثلما اصبحوا يعتادون نقيضه ويألفونه .. اما انا فبكل ما اوتيت من قدرة على مقاومة الضجيج الذي يغمر الشارع انام ساعة القيلولة وافضلها الف مرة على ان اجلس في النادي بين زملائي منتفخا بالحديث عن ابني الذي سيصبح طبيبا او مهندسا .. مالي انا بمهنته وما هو مبرر الافتخار بها او به ؟.. كل ما علي ان اؤدي واجبي الابوي تجاهه وهو حر بعد ذلك في حياته ككائن انساني مستقل عني تمام الاستقلال . اجمل ما في هذه الفكرة انني توصلت اليها رغم شعوري بالاختناق الشديد وسط الملايين المتزاحمة المتكالبة حول شريط ضيق يوازي نهر النيل المسكين الذي ازهقوه باقدامهم وانهكوه بعقولهم .. ورغم ملل الوظيفة وزعيق ميكروفونات البيض والطماطم نهارا وحفلات الزفاف وذكرى الاربعين ليلا ، ورغم جشع المدرسين الخصوصيين فانني انجح دائما في اقتناص ساعات للنوم. ولعرفاني العميق بتلك النعمة الالهية فان الشيطان لم يستطع يوما ان يقنعني

ـ رغم محاولاته المستميتة ـ ان انتزع حقي من اذناب الزمن بالسرقة مثلما يفعلون ؛ وانا لن انسى همسه لي بين الحين والآخر ان « من يسرق لصا يغفر الله له ذنبه يوم القيامة » .

ـ نفدت الميزانية وبقي على الامتحان شهران

ـ فرصة جهنمية للتخلص من لصوص التعليم

ـ ألا تعرف أن إنهاء الدروس في هذا الوقت الحرج قد يؤدي الى كارثة؟!

الكارثة التي لا تدري بها زوجتي هي ان ثروة عمري قد طارت من يدي بين يوم وليلة . عشرة آلاف جنيه . ادخرتها بدمي وعرقي ثم اودعتها بتلك الشركة اللعينة التي كان يعلن عنها التلفزيون ليلا ونهارا . فرحة ما تمت . ستمائة جنيه تقاضيتها كأرباح على مدى اشهر ثلاثة متتالية ثم خدعني الملتحي ذو الجلباب الفضفاض الأبيض الذي طالما انبهرت برؤية ابتسامته الغامضة تملأ صفحات الجرائد القومية والمعارضة كل يوم . ورغم اني لم انس ذلك اليوم الذي فقدت فيه مالي فاني ما زلت أحمد الله بلا توقف ان لم افجع في صحتي فهي الاخرى مكشوفة للسرقة سواء من الزمن او من غيره من اللصوص .

ـ ٦ ـ

كلما تذكرت ذلك اليوم ركبني شيطان المشي فاظل اجوب الشوارع طولا وعرضا بلا هدف . اسير وسط هؤلاء المتزاحمين الذين يتعاملون مع الأشياء جميعا بمنطق الجاني والضحية في آن واحد ، بينما يبدو عليهم ان اي امر من الأمور لم يعد يعنيهم في شيء على الاطلاق .. وكلما تذكرت ذلك اليوم اللعين طافت بخاطري صورة المزرعة والبيت الذي تحتضنه الأشجار والمسافات الهائلة التي تباعد بينه وبين المدينة . لكن هل اجرؤ أن اصارح احدا بهذه الرغبة ؟!

ـ نعيش في الصحراء . نبدأ حياة جديدة لا يسرقنا فيها احد

نظرت الى زوجتي في إشفاق شديد . قالت كمن تخاطب طفلا حالما :

ـ بعد امتحان الثانوية ان شاء الله

ـ وقفت اخطب في الصحراء الشاسعة دون أن يسمعني احد . « ايها السادة لقد اصبحت حياتي في المدينة مستحيلة بلا سلطة او ثروة . قائمة المسروقات تبدأ بالعمر وتنتهي براحة القيلولة . قائمة اللصوص تبدأ بالزمن

وتنتهي بالغوغاء والانتهازيين » . . كنت اتمنى ان يستمع حمادة ووائل ووليد الى خطبتي لكن احداً منهم لم يحضر . اني ارثي لحالهم ، واللعنة على هؤلاء الهائمين في شوارع المدينة والنائمين في بناياتها والراضعين من لبانها . شعرت بالارتباك الشديد يهاجم حياتي الآمنة . ذهبت الى شقيقي لاقترض منه الف جنيه : تعلل بما لم يكن ينبغي ان يتعلل به . عدت الى الصحراء حيث تخلو من الهائمين والنائمين والراضعين . واصلت إلقاء خطبتي « أيها السادة والعبيد .. لم يبق لي إلا ماء وجهي ، ولن اسمح لاحد منكم ان يسرقه . من يحاول الاقتراب منه سأقتله » !

* * *

آفـاق المعـرفة

الحـرف العـربي
هل هو صعب حقا ؟

هشام عدره

العدمية والقلق في
رباعيات الخيام

احمد الخليل

حديث عن السعادة

ترجمة : محمد حسن ابراهيم

نافذة على العالم

ترجمة واعداد :
كمال فوزي الشرابي

الحرف العربي

هل هو صعب حقاً؟

هشام عدره

الحرف في الكلمة دعامة في صرح ، او هو جذر غرسة ، فكلما كانت الدعامة متينة ، والجذر ريان ، كان البناء متيناً والغرسة جميلة ، مزهرة خلابة ، والحرف هو العامل الاول في تكوين الكلمة ، الذي هذب حتى كان الركن البنـاء في وسائل التعبير والمحادثة بين الشعوب ، فكانت الآداب ، وكانت العلوم والفنون ، والفلسفة والمدنيات . ذلك كله بفضل الحرف حين تبناه الفكر !...

والحرف العربي ، يخلق مشكلة في نظر « دعاة الاصلاح الحرفي » تجب معالجتها وحلها . وهذه المشكلة ــ التي اوجدها هؤلاء ــ هي أن تعلم الحرف العربي صعب ، وانه يعيق ــ هذا مايدعونه ويزعمونه ــ تطور الفكر العربي ونحن مهما جارينا هؤلاء في رغائبهم الاصلاحية ، فإن زعمهم القائل ان حالة الحرف العربي الراهنة تقف دون رقي الفكر العربي ، امر باطل قياساً ومنطقاً: لان العقول المبدعة التي ابدعت نواة الحضارات والعبقريات السالفة والمعاصرة ، كان الحرف العربي في عهدها معدوماً او مشوشاً ، كما كانت وسائل الطباعة والنشر غير موجودة . مع ذلك منح ذووها تلك العقول الفذة ، دنيانا الحاضرة روعة الافكار الحية النامية .

والحرف العربي مذ وجد ، له حركات عديدة ، تلفظ دون أن يساعده حرف آخر ، كما في الفرنسية او الانجليزية مثلا . وهذه ميزه خاصة بالحرف العربي ، وهي ميزة توفر في الكتابة كثيراً من الوقت . فللحرف العربي الحركات الفتح والكسر والضم ، والسكون الذي هو حركة في واقعه . فنحن حين نقرأ الكلمة « كتب » ــ نجدها مؤلفة من ثلاثة احرف هي « ك . ت . ب » ولكل حرف حركة وهذه الحركة تؤلف بطبيعتها حرفاً آخر . تخلص منه الحرف العربي ، وهذه خاصة راقية ، اذ لو رسمنا احرف تلك الكلمة باللاتينية مثلا . لكانت Cataba اي بزيادة ثلاثة احرف على الاصل العربي . فالحرف العربي ، إذاً حرف فيه حركة ، فيما نرى الحرف اللاتيني جامداً ، ولكي يتحرك فلا بد له من حرف آخر يبعث فيه الحركة . ومادام الحرف العربي متحركاً بطبيعته ، فماذا يجدينا إثبات حرف المد مثلا ؟!

والواقع لو ان المرحوم الدكتور طه حسين ــ وهو صاحب اقتراح إثبات احرف المد ــ كان قد اقترح حذفها ، لكان اقرب واقعية الى صميم الهدف الاسمى ، فحين نكتب « مصطفَ » كاسم ، هكذا ، اي بدون الالف اللينة (ى) نجد ان رسمها قريب من حرفيتها ، ذلك لان الحرف الاخير من هذا الرسم ، وهو الفاء ، متحرك بالفتح بطبيعته . ولكننا حين نكتب نفس الاسم بحذف حرف المد ــ كما تقدم او بإثباته « مصطفا » ــ ممدوداً ــ فإننا نعقد الحرف العربي . بالكتابة العربية . تعقيداً مشوشاً . ذلك لان تشابهاً كبيراً سيقع بين الكلمات وسنضطر حكماً وواقعاً ، الى رسم رموز الحركات : « ـَ ـِ ـُ ـْ » على الحرف وإلا تشوشنا وضعنا ، ونحن في كتابتنا الحالية ، في غنى عن رسم الرموز . فعندما نكتب . مثلا : « كان مصطفا يفتش نفراً مصطفاً من الجند » نجد ان

مشكلة جديدة وقعنا فيها ، هي التشابه بين : مصطفا ومصطفاً ، الذي تستغني عنه العربية والحرف العربي ، ولكننا حين نرسم هذا الاسم على حقيقته وبحالته الراهنة « مصطفى » نجده احسن تركيباً ، واجمل سبكاً ، واوضح تمييزاً بينه وبين مشابهه من الاسماء .

من المعلوم ان العربية ليست اللغة الوحيدة التي تثبت فيها حروف لا تقرا ، بل إذا اردنا الدقة العلمية والانصاف اللغوي المقارن لوجدنا ان العربية اقل اللغات العالمية الاخرى التي تلحق مفرداتها حروف تكتب ولا تقرا كما ان ثمة حروفاً تدخل في صميم وتركيب الكلمة ، في الفرنسية والانجليزية خاصة تكتب ولا تقرا وما ذلك الا للتمييز بينها وبين الفاظ اخرى او لمساندة حرف لآخر او اصطلاح قديم الرسوخ .

لقد نقد المرحوم الاستاذ عباس محمود العقاد طريقة الدكتور طه حسين ، هذه ، وابان له خطل طريقته ، فضرب له امثلة عدة ، منها :

لناخذ الفعل « علا » وحرف الجر « على » المنتهي كل منهما بالف مد .. فكيف يستطيع القارىء ان يميز بين الكلمتين ـ حين نكتبهما بالاعتماد على طريقة طه حسين الجديدة ؟

خذ هاتين الجملتين :

« علا الجبل » ، « على الجبل » فايهما تدل على انك إرتفعت على الجبل، او انت فوقه ؟... وايهما فعلية او اسميه ؟.. واي الاسمين مفعول او مجرور؟ وكيف يستطيع القارىء العادي او المبتدىء وحتى المثقف ان يفرق بين معنى الجملتين ؟.. الم يوقعنا المرحوم الدكتور طه حسين بورطة جديدة وهو ان الزمنا برسم حركات الحروف التي نحن بغنى عنها ، والتي تزيد اللغة والكتابة تعقيداً وتشويشاً وابطاء حتى نتمكن من التمييز بين المعنيين ؟!

وكيف نفرق بين الحرفين « إلى » و « إلا » حين يكتبان هكذا « إلا ، إلا » على طريقة طه حسين ؟..

والحق ان انتقاد العقاد طريقة الدكتور حسين ، وجيه ، منطقي ومعقول، خصوصاً وان هذا « الاصلاح » الذي تحمس له عميد الادب العربي ليس بذي فائدة ، بل هو يرمينا في مآزق صعبة . صعب الخلاص منها .

ومثال آخر : كيف نفرق بين الفعلين « قاس » بمعنى « كال » و « قاس » بمعنى تحمل وتجشم ؟.. فاذا لم يبق هذان الفعلان في حالتهما الراهنة، وهي

راقية لغوياً ، فإننا نقحم أنفسنا باختلاط جديد نكتب هذين الفعلين هكذا : قاسا ، قاسا .. وكيف نكتب المثنى من هذه الافعال المنتهية بحروف مد ؟.. قاس ، مثناه : قاسا ...

يقولون بصعوبة كتابة حروف المد . فاين هذه الصعوبة !!.

إن حروف المد هذه ، ليست بمستصعبة الكتابة . فلكل منها قاعدة املائية ثابتة يستعين فيها القارىء والكاتب على رسمها رسماً صحيحاً . فمثلا هناك حروف واسماء وافعال تنتهي بحروف المد المذكورة . يقابلها حروف مشابهة في لغات اخرى . ومن حسن حظ لغتنا ان هذه الحروف والاسماء والافعال فيها ، محدودة معدودة ، اما الافعال والاسماء فثلاثية ورباعية وخماسية وسداسية ، وكل منها ينتهي بقاعدة ثابتة . فغير الثلاثية ، مما يسبق آخرها ياء مفتوحة تكتب بالف ممدودة يحيا ، استحيا .. » وما لا يسبق بهذه الياء برسم بالف لينة على صورة ياء غير منقطة : « استولى ، استوحى ، اجتبى .. » اما الافعال الثلاثية الكتابة حين نعلم ان حرف المد فيها منقلب عن حرف « ى » او « و » .

وإثبات حروف المد هذه ، ليس مبنياً على حاجة لغوية اصلاحية ملحة .. اي ان هذا الاثبات يضر لايفيد ، ويبحث في القشور ويدع الجوهر .. لانني ارى الجوهر في الفكر وليس في اللغة فلغتنا حية متطورة تحتاج الى تنمية الفكر القادر على تذوقها والاستمتاع ببيانها وفصاحتها . واذا كان حرف المد يعيق شيئاً من « التقدم الفكري المزعوم » فكيف هو الحال في اللغات الاخرى التي تحوي حروفاً تكتب وتقرأ حيناً ، وتكتب ولا تقرأ حيناً آخر ؟.. وكيف هو الحال في الافعال الانجليزية المتصرفة من صيغة الامر الى المضارع الى الماضي الى الماضي التام ؟.. هل لتصريف هاتيك الافعال قاعدة ثابتة كما في العربية ؟.. هذه امثلة :

Past participle tense	Past tense	Present tense
Lain	Lay	Lie
Cost	Cost	Cost
Driven	Drove	Drive
Regretted	Regretted	Regret

السنا نرى ان الانجليزية التي آثرها المرحوم سلامة موسى على غيرها من اللغات ، يصطدم بكثير من الصعوبات حين يراد تصريف افعالها الى الازمان المختلفة ؟..

ومع أن علامة الفعل الماضي في الانجليزية هو « ed » فإن حروفا لا عد لها ولا حصر تأتي في نهاية الفعل دالة على الزمن الماضي ...

والصفة في العربية تلازم الموصوف في كل حركاته ، فيما نجد أن سائر اللغات تفتقر الى هذه الخاصة التي هي من أسس محسنات العربية وسهولة كتابتها واعرابها . فالفعل « كسر » مثلا في العربية يكتب هكذا في حالتي البناء للمعلوم وللمجهول ، بينما يضاف اليه حروف وكلمات في الانجليزية حتى يؤدي نفس المعنى :

Break Broken have, had Broken up ....

قد اكون استطردت في هذا الامر ــ حروف المد ــ وانما قصدت من هذه المقارنة البسيطة الحرفية والمعنوية ، لأبين ان ثمة مصاعب لغوية موجودة في اللغات العالمية ، وان الحرف العربي في حالته الراهنة ، حرف مناسب وملائم وان اي ابدال أو تحويل فيه يشوه العربية ، ويفقدها الرونق المضفى على الخط العربي نتيجة قواعد ثابتة .

لو اردنا التسليم بصحة راي المرحوم الدكتور طه حسين ، بصدد اثبات حروف المد ، فمعنى ذلك اننا مهدنا لبتر اللغة العربية بتراً مخجلا ، أو تشويهها بصورة لم يشهد التاريخ لها مثيلا ، اذ لو اردنا تطبيق « طريقة » الدكتور طه حسين ، بلا بد ، تدريجيا ، من الوصول الى نتيجة واقعة هي اسكان اواخر الكلمات العربية ــ وهذا ابسط الاحتمالات ــ او احلال حروف جديدة ، على غرار اللاتينية ، بدل الحركات العربية ، وحينئذ يختلط الحابل بالنابل ، وتفقد العربية حقيقتها وكيانها ونفسها . حيث ان هذه الطريقة المقترحة من قبل طه حسين تقول ، ضمنا ، بكتابة اية كلمة بالعربية حسب نطقها وليس الكلمات المنتهاة بحروف مد فحسب ، ولسوف تكتب هكذا :

فعل ماض مفرد	مضارع مفرد	!مر مفرد
كان	يكون	كن
تصبح : كانا	ياكونو	كون
او تسكن : كانْ	يكونْ	كنْ
جاء	يجيء	تعال
تصبح : جاءا	ياجيئوا	تاعالا
او تسكن : جاءْ	يجيْ	تعالْ
زار	يزور	زر
تصبح : زارا	يزورو	زور
او تسكن : زارْ	يزورْ	زرْ

والامثلة على ذلك كثيرة والغريب في الامر اكثر الكلمات التي يريد الدكتور طه حسين اثبات حروف المد فيها ، ترسم هذه الحروف حسب نطقها :

سما	يسمو	اسم
دعا	يدعو	ادع
رمى	يرمي	ارم
وقى	يقي	ق
دنا	يدنو	ادن ...

ولكن — والحمد لله — فان هذا الاقتراح — إقتراح المرحوم طه حسين — لم يلق اي تجاوب او تشجيع ، وانتهى الى غير رجعة ، وبقيت لغتنا كما كانت خير معوان على رسوخ فكرنا في خضم الحياة الانسانية والمدنية الراقية .

هذا مع تبيان ان في اللغة العربية اسماء محدودة تكتب بحذف حرف او اكثر منها ، وهذه الحروف شاذة في الكتابة وهي : « هذا ، إله ، الرحمن ، لكن ، طه ، اولئك ... » وليس عيبا على العربية ان يتخلل مفرداتها عشرة اسماء شاذة الكتابة ، فما لا ريب فيه ، انه لا توجد لغة سلمت من هذه العلة .

وثمة رأي آخر هو كتابة الحرف العربي منفصلا على غرار اللاتينية المطبوعة وهذا الرأي رغم ان المقصود منه هو الإسراع في الكتابة العربية ، خصوصا على الآلة الكاتبة وتجميل الخط العربي وسهولة تعليمه ، فانه رأي بعيد عن المنطق، ويؤدي الى عكس ما يقصد اليه اصحابه .

تعالوا نكتب كلمة ، اية كلمة ، ولتكن « الكتابة » على طريقة المنفصل « ا ل ك ت ا ب ة » فان اول مانلحظه هو البطء في الكتابة ، واستهلاك كبير في الورق ، وبالتالي صعوبة في القراءة ، فضلا عن اختلاف الحروف وابقاء الكلمة مجزاة ، مفككة ، خطا وطباعة ، جملة وكلمة .

ماذا يقصد اصحاب هذا الاقتراح ؟!

اصحيح انهم يقصدون باقتراحهم الى اصلاح الحرف العربي ؟! .

ما المشكلة اذا ؟! ..

المشكلة ، في رأيي ليست مشكلة حرف وتعليم الحرف ، كلا ، وانما هي مشكلة منهج وبرنامج وطريقة واسلوب : فالجهود المتضافرة البدولة

« لاصلاح الحرف العربي » . وهي تهـدر وتضيع منطقا وواقعا لو تضافـرت لوضع اساليب ووسائل تعليمية اقرب الى مثاليـة تعليم الحرف ، لهان مـا صعب ، وتلاشت اصوات الشكاة .

وفي غمرة هاتيك الشكاوى المتواترة ، وهي قديمة ؛ طالعنا اقتراح المرحوم عبد العزيز فهمي بابدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي ، ابتغاء ايجاد مخرج من هذا « المأزق » الحرج ، المزعوم ، كتابة الحرف العربي وصعوبتها . واعلن عن جائزة كبرى تعادل نصف ثروته الضخمة ، لمن يستطيع أن يلائم بين الحرف اللاتيني ، ذلك لان الحرف العربي انما هو عربي المولد ، عربي النشأة ، عربي ومستشرقين ، فعالجوا الاقتراح ، وحاولوا عبثا ، اخضاع العربية للحـرف اللاتيني ، ذلك لان الحرف العربي انما هو عربي المولد ، عربي النشأة ، عربي التطور ، عربي الطبيعة . وان الحرف اللاتيني عنصر غريب ، دخيل على الحرف العربي ، فكان بديهيا ان تفشل الرغبة ، وان يعتصم الحرف العربي في حـرم طبيعي ، تاريخي ، يصونه من عاديات الزمن ، ويحفظ له كيانه الاصيل الذي خلق له ، وخلقت العربية فيه .

وإذ ظهر ان اقتراح عبد العزيز فهمي من باب المستحيل ، منطقا وواقعا وعملا ، جاء مفكرون آخرون ، يقلبون وجهات النظر ويعملون العقل في اقتراح جديد . وكان بين هؤلاء الدكتور ابو غزالة ، الذي نادى بابقاء الحرف العربي ، شريطة تهذيبه ، وارتأى ان يحذف قسـم من الحرف المفتوح او المعقوف ، بحيث تثبت كتابة الحرف العربي على صورة واحدة . اذ أنه معلوم أن الحرف العربي ، علاوة على حركاته المعهودة يكتب على اشكال متشابهة حينا ، ومختلفة حينا آخر . حين يدخل في تركيب الكلمة ، اي ان الحرف يكتب على حالات تتغاير من حالته الفردية الى التركيبة . ولناخذ على سبيل الدراسـة والنقد ، نموذجا من امثلة الحرف « ب » يرسم هكذا « بـ » اي بحذف الجزء الاخير منه ، وبذلك نكتب « باباز ، بنت ، نبت . . . » ويحذف ايضا الجزء المعقوف من حرف « ع » حيث يصبح « عـ » ، ويكتب : عذب ، لعـ ، بدعـ . . » ومن ملاحظة بسيطة نشاهد ان هذه الصـور الحرفية الجديدة ؛ تشـوه الحرف الاصلي وتزيد في تعقيده ، وتفقده كـل جمال ودقة واتقـان ، ويختلط على القارىء كثير من الاحرف ويصبح الحرف العربي رمز تضليل وابهام ، بعـد ان كان رمز فصاحة وبيان ! . . .

ونحن نعلم ان الحرف اللاتيني يكتب ايضا على صور متعددة بين صغير وكبير ومنمق .

ولعل اخطر حدث في تاريخ الحرف العربي : هو المحاولة التي قام بهــا سعيد عقل ، لاسقاط الحرف العربي ، وهي محاولة كان هدفها مسخ اللغــة العربية حيث تشب ويشب بنوها غرباء عن عروبتهم ، اجانب في استلقاء الهام لغتهم ، والافادة من تراثهم الفكري .

ولكن سقطت هذه المحاولة،كما سقطت كل المحاولات الاخرى،وستسقط كل المحاولات الاخرى ، وستسقط حتما اي محاولة لاحلال الحرف اللاتيني محل الحرف العربي .

* * *

عن وزارة الثقافة سيصدر حديثاً

وضمن سلسلة احياء التراث العربي

نزهة الخاطر وبهجة الناظر

تأليف

شرف الدين موسى بن يوسف الأنصاري

القسم الأول والثاني

حققه

عدنان محمد ابراهيم

آفـاق المعـرفـة

العـدمية والقلق في رباعيات الخيام

أحمد الخليل

يبدو عمر الخيام في رباعياته شغفاً بالخمرة ، محباً للهو وأسبابه . هذا أمر لا ريب فيه . بيد ان توجهه هـذا يرجع ، فيما نعتقد ، الى طبيعة رؤيته الوجودية ، والى موقفه من الوجود الانساني والعالم بشكل عام .

ولـد الخيام ، على الارجح ، في (نيسـابور) ببلاد فارس ، عام (١٠٥١) م ، وتوفي فيها عام (١١٣٢) م(١) .

وقد شهد عصره احداثاً خطيرة ؛ إذ تمكن السلاجقة من التغلب على الدولة الغزنوية في أقصى الشرق الاسلامي ، حوالي عام (١٠٤٠) م ، واستطاعوا القضاء على الدولة البويهية بفارس ، والفوز باعتراف الخليفة العباسي « القائم »(٢) .

هذا في الشرق . وأما في الغرب فقد تمكن الصليبيون من احتلال (انطاكية) ، وتأسيس إمارة في « الرها » ، والاستيلاء على القدس سنة (١٠٩٩) م ، والتوسع في احتلال سواحل بلاد الشام(٣) .

في هذا العصر المضطرب عاش الخيام . وتذكر الروايات انه كان واسع الثقافة ، عالماً باللغة والفقه ، مبدعاً في ميادين الرياضيات والفلك . ويظهر إبداعه هذا في توصله الى حل معادلات من الدرجة الثانية بطرق جبرية وهندسية ، والى إصلاح التقويم الفارسي ايضاً(٤) . .

فالخيام ، إذاً ، ليس مجرد اديب حالم . إنه اديب عالم ، شاعر يحاول اختراق جلد الوجود ، والبحث بعيداً في الأعماق . وهو مصرّ على معرفة الحقيقة ، يتساءل :

لماذا اتيتُ الكونَ ؟ او فيمَ اذهبُ ؟(٥)

وبما أنّ الخيام منقّب عن البدايات ، متطلع الى فهم النهايات ، فلا نشك في انه قد اطال التأمل في صيرورة الوجود الانساني ضمن كلتا صيغتيه ؛ الفردية والاجتماعية . ونعتقد انّ خيبته في مسعاه الإدراكي كانت من وراء عدميته على الصعيدين ؛ العملي والنظري :

يـدٌ ليَ في جـامٍ ، واخرى بمُصحَفٍ
وطـوراً انا الجاني ، وطـوراً انا العَفُ
اعيشُ ومـالي تحت ذا الأفـق مبـدأٌ
فلا مسـلمٌ محضٌ ، ولا كافرٌ صِرْفُ(٦)

وإذا كانت العدمية هي اللاموقف فانها تعني – ولا ريب – كثيراً من القلق والشك والضياع . وهذه أمور يطيل الخيام البحث فيها ؛ ويكثر من الإشارة إليها . وإنها تتجلى بدقة في إطار الموضوعات التالية : الفناء ، الحتمية ، المعرفة ، المجتمع .

الفنــاء :

في الموت يتوضع دائماً الإشكال الوجودي الاعظم ؛ ذاك الذي تتحطم إزاءه كل معاول الارادة الانســانية . وهو الإشكال ذاته الذي حمل الفيلسـوف الوجودي « هيدجر » على ان يعتقد بأن الانسان هو وجود للموت في جوهره(٧) ، وحمل الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد على ان يقول :

الا ايّهــذا الزاجــري احضــرَ الــوغــى
وان اشــهد اللذّات هــل انــت مخلدي ؟
فــإن كنــتَ لا تســتطيعُ دفــعَ منيّتي
فــذرني ابادرْهــا بمــا ملكتْ يــدي(٨)

لقد تيقّن طرفة ان الفناء احد خصائص الهوية البشرية ؛ إنه قدرها الكامن فيها . فهبّ يعارض هذا القدر بالانكباب على اللذات ، وكانت الخمرة في عدادها . وهذا موقف شدّ ما يهفو الخيام اليه . إنه يقول :

اتقولُ : لاتحســو الطلا خــوف الردى ؟
ستموت إن تشــربْ وإن لم تشــربِ(٩)

ويقول ايضاً :

هاتِ المــدامَ ، فاني لســت اعلــم هــل
متى زفرتُ لصدري يرجــع النّفسُ ؟ (١٠)

وبما أن الموت هو نهاية الشوط بالنسبة الى الانسان فالقيــم الطبقيــة والاجتماعية بشكل عام هي محض هراء ، وزيف لا ينبغي التهالك عليها . وكل تفاوت هو في النهاية زائل ، ذلك لانه مصطنع . والحقيقة الوحيدة هي كــون الناس سواسية . وبالموت تبدو هذه الحقيقة ناصعة :

لــئن عمّرت ، صاحي ، الــفَ حــولِ
فســوف تعــاف هــذي الــدارَ قهــراً
وإن تــك ســائلاً او ربَّ تـــاجٍ
فــذان غــداً سيستويــان امــراً (١١)

ثمة روايات تذهب الى ان الخيام كان في مستهل عمره صاحباً لرجلين اصبحا شخصيتين خطيرتين في عالم السياسة ، اما اولهما فهو (نظام الملك) وزير السلاجقة الشهير ، وصاحب المدرسية (النظامية) في بغداد . واما الاخر

فهو (الحسن بن الصبّاح) ، قائد فرقة الحشاشين (الفدائية) ، الذي كـان يدير عمليات الاغتيال من معقله الجبلي في قلعة (الموت) . وقد كان (نظـام الملك) احد ضحاياه . وصحيح أن الخيّام لم يك مغمورا . بيد أنه لـم يغـد مشهورا مثل صاحبيه . ولا نستبعد انه كان في نزعته هذه يجد عزاء له . فهاهو ذا يتخذ الموت منطلقا لمنحى عبثي هروبي صارخ ، قائلا :

إلامَ بهـذا الحـرص تقضـي مـدى العمر
وتصبـح للاثـراء والفقـر فـي فكـر ؟
الا اشربْ ، فعمـرٌ سـوف يعقبه الردى
حقيق بـأن تقضيـه بالنوم والسكر (١٢)

الحتميـة :

والحتمية اشكال وجودي آخر ، طالما حاولت الاديان والفلسفات الكبرى اضاءة جوانبه . والشاعر العظيم يضاهي المؤمن العظيم والفيلسوف العظيم في رحاب القضايا الوجودية الكبرى ، وكذلك كان الخيام في رباعياته . انه يتخذ نقطة البداية في وجود الانسان موقعا للبحث عن توافر شروط الحرية فيدرك انه ليس من خيار ، وينقلب الى نقطة النهاية فيجد الذات الانسانية مستلبة مقهورة ، ايضا . فلا يملك الا ان يندب حظ هذا الكائن البائس :

لـو كنتُ ربَّ اختيـار ما اتيـت الى ال
دنيـا ، ولـم ارتحـل عنهـا ، ولـن ابن
ما كـان اسـعدني لو لـم اجـيء ابـداً
للدهر يومـاً ، ولـم ارحلْ ، ولم اكن(١٣)

غير ان الخيام يرفض ان يظل مسلوب الإرادة . انه يحاول تفجير ينابيع الحرية الثرة في صميم صحراء الحتمية ، ويلوّح بارادته في وجه القدر المحتوم ، عازما على ممارسة صيرورته بالكيفية التي يشاء . فالمهم ان يفرض الانسـان ارادته على العالم من حوله ، ان يترك طابعه على مساره ، أن يبدع خيارا . وكانت الخمرة خياره المفضل :

إن كنتُ قبـلُ اتيت الدنيا بدون اختيار
وسـوف ارحلُ عنهـا غـداً باضطـرار
فقـم نديمي سريعاً ، واعقـد نطاق الإزار
فسوف اغسل همّ الدنيا بصافي العقار(١٤)

المعرفة :

علمنا أن الخيام عالم قدير . ونتوقع من العالم ، كل عالم ، أن يقدّر العقل ويعظّم شأنه ، لكن الخيام في هذا الموضوع يذهب مذهبا عجيبا . انه يحمل على العقل حملات قاسية . بل انه يريد الحياة بعيدا من هذه الملكة . والسكر ، في اعتقاده ، هو الوسيلة المثلى لطرح العقل جانبا :

لم اشربِ الراحَ لاجلِ الطربِ
او تركِ ديني واطراح الادبِ
رمتُ الحياة دون عقلٍ لحظةً
فهمتُ بالسكر لهذا السببِ (١٥)

وليس هذا فحسب . وانما نراه يصف المسترشدين بالعقل بأنهم اسرى وأنهم سيندمون ايما ندم . ويرى ان الغباء هو الموصل الوحيد الى الحقيقة :

إن الألى اضحوا اسارى عقلهمْ
ذهبوا بحسرة فاقدٍ متندّمِ
إشربْ ، وعُد كالأغبياء ، فانهم
صاروا زبيبا في اوان الحِصرمِ (١٦)

ترى هل يحمل الخيام حملته هذه على (العقل) لإيمانه بصحة (النقل) فقط ؟ لا نعتقد ذلك ، لانه كثير الشك في ميدان (النقل) أيضا . ثم أليس هو القائل :

ان الذين ترحّلوا من قبلنا
نزلوا باجداث الغرور وناموا
إشربْ ، وخذ هذي الحقيقة من فمي :
كلّ الذي قالوا لنا اوهامُ (١٧)

اذا ، هل نعد هذا التوجه العرفاني الغريب ضربا من العبث ؟ الحق ان الخيام سرعان ما يفصح عن رأيه في هذه القضية . وذلك حيث يقول :

اذا لم يكن علم اليقين بممكن
لنا ، وانقضاء العمر بالشك خسران
فلا ينبغي ان نترك الراح لحظةً
وسيّان حين الجهل صاحٍ ونشوان (١٨)

فالرجل ، اذاً ، يرفض التلهي بالقشور ، انه يبحث في امور تتعلق بكنه الوجود ، وحقيقة الانسان ، واين الرياضيات والفلك والفلسفة من هذه الآفاق؟ وهكذا بقي الخيام حائرا في مجال الشك . بخلاف الفيلسوف الفرنسي (ديكارت) الذي رأى في الفكر (العقل) منقذا من الشك .

لكن ما هي الوسيلة المعرفية التي مكنت الخيام من ادراك بطلان قيمة (العقل) ؟ انه يسميها (البصيرة) . فيها قد علم انه لم يعلم بعد :

انـي ، وان ذقـتُ الغـرامَ ، وقلّ لي
مـن مبهـم الاسـرار مـا لـم يفهـم
فاليـوم حـين فتحـت عـين بصيرتـي
اصبحـت اعلـم انـني لـم اعلـم(١٩)

ويتراءى لنا ان هذه الملكة العرفانية ، التي يدعوها الخيام (بصيرة) ، هي ذات الملكة التي يدعوها (كروتشه) « حدسا »(١٢٠) ، انها القدرة المعرفية المتأبية على مناهج العقل ، المترفعة عن قوانين المنطق . وانه لما يلفت النظر ان الخيام لم يكن المثقف الوحيد الذي اعلن افلاس العقل في عصره . وانما شاطره في ذلك مثقف اخر كبير هو « ابو حامد الغزالي » (ت ١١١١) م ، كبير اساتذة المدرسة النظامية ، الذي سلط على سدنة العقل (الفلاسفة) كتابه « تهافت الفلاسفة » فاصلاهم بناره ، وبيّن ان (العلم اليقيني) هـو « المنقـذ مـن الضلال »(٢١) في ميادين القضايا الوجودية الاساسية . وعلى حين انتهى اليأس من العقل بالخيام الى الخمرة ، فقد انتهى بالغزالي الى دروب التصوف .

المجتمـع :

واما على الصعيد الاجتماعي فان الخيام يعاني ازمة الانتماء معاناة عميقة ، ولذا نراه مولعا بالعزلة ، نافرا من العلاقات الاجتماعية :

مـا خلـق اللـه راحـة وهنـا
الا لمـن عـاش مفردا عزَبـا
مـن تـرك الانفـراد واقترنـا
فقد جنى بعـد راحة تعبـا(٢٢)

وهو زاهد في الشهرة ، غير طامح الى اعتلاء مراتب المجد . فالشـهرة تعني المغالبة والتنافس ، بل الصراع ، وان من يلتفت الى البحث عن المعضلات الكبيرة في الوجود قلما يعبأ بمثل هذه المشاغل الآنية . ثم ان الشهرة ذاتها لاتريح دائما ، وانما تكون مصدرا غنيا من مصادر القلق ، فالانسان قلق لانه يطمع

فيها ، وهو قلق ايضا بعد امتلاكها ، اذ عليه الاحتفاظ بها . اذا ، ماعلى الخيام الا ان ينزوي ، ان ينسحب من شبكة العلاقات العامة ، ان يدير ظهره للامجاد والشهرة ، لكن يبقى القلق مستفحلا ، ذلك لان الانسان اجتماعي بطبعه :

ان اشتهرتَ فشر الناس انت ، وان
كنتَ انزويتَ فقد عانيتَ وسواسا
لو كنت خضرا او الياسا سعدتَ بان
لا تعرفَنْ ، والا تعرف الناسا(٢٣)

والآن ، ما هي الدوافع والعوامل الكامنة وراء حب الخيام للعزلة ؟ اما الدوافع فهي ذاتية على الغالب ، تتأصل في شخصية الشاعر ومزاجه والمؤهلات الشخصية جانب مهم لا ينبغي تجاهلها في اثناء تقويم هذا الفرد او ذاك . والخيام فيما نرى ، ذو نزعات خاصة في ممارسة الحياة ، فهو مغرم بالغواني ، شغف بالخمرة :

لا عشتُ إلا بالغواني مغرما
وعلى يدي تبر المدام الذائب(٢٤)

كما انه كثير الاختلاف والاخرين في فهم بعض القضايا الدينية . وهذا هو سبب اتهامه بالمروق والالحاد في بعض الاحيان .

واما العوامل التي جرفته الى العزلة فتكمن في العلاقات والقيم الاجتماعية في عصره . وليس من شك في ان وسطه الاجتماعي كان يمور بأسباب الانحلال ، ولم يك يرقى الى المستوى الذي يتطلع اليه انسان شاعر حالم ، ومفكر عالم في الوقت نفسه . بل كان مثل هذا الوسط يقلق الخيام . فالدين غدا لبوساً يخفي التدليس :

وإنما انة السكير في سَحَر
خير من الزهد والتقوى بتدليس (٢٥)

والعهر الصريح ، في رأي الخيام ، افضل من العفاف المصطنع المضلل :

قال شيخ لمومس : انت سكرى

كل آن بصاحب لك وجـد
فاجابت : اني كما قلتَ ، لكنْ
انتَ حقـاً كمـا لـدى الناس تبدو ؟(٢٦)

ثم ان العلاقات الانسانية اضمحلت ، فقدت جمالها ، انقلبت الى اطماع عدوانية مزعجـة :

اختـــرْ بدهـرك قلـة الرفقـاء
واصحبْ بنيـه وانت عنهـم نـاء
فمـن اعتمدتَ عليـه ، ان تنظره في
عين البصيرة ، اعظـمُ الاعـداء(٢٧)

هذا ، وان تهالك الخيام على الخمرة كان ، في جانب منه ، ردا على الانانية المتفشية في المجتمع ، ودواء ناجعا لتضخم الذات :

تـدري لـم اختـرتُ الطلا ؟ كيـلا أرى
يـا صاح ، مثلـك مولعاً فـي ذاتـي(٢٨)

وجملة القول ان الخيام لم يضمن رباعياته نزعاته الذاتية فقط ، وانمـا رسم فيها ابعاد رؤيته للوجود البشري ، وعبر عن موقفه من كوابيس ترهـق كاهل الوعي البشري على الدوام ، مثل الفناء ، والاستلاب ، والعجز المعرفي ، وازمة الانتماء المجتمعي . وقد اختار الخمرة لانها كانت تنجيه مـن سياط العقل ، وتجعله في منأى من الحيرة والضياع :

تقلـل الـراحُ تكبُّـر الورى
وهـي تحـل مشكلات العالم
لو ذاق ابليس المـدام مـرةً
اتـى بالفي سجـدة لآدم(٢٩)

* * *

الحواشي

١ ــ رباعيات الخيام ، تعريب احمد الصافي النجفي ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٨٤ ، ص ١٩ .
٢ ــ تاريخ الشعوب الاسلامية ، كارل بروكلمان ، بيروت ، ط ٦ ، ١٩٧٤ ، ص ٢٧٢ .
٣ ــ المصدر نفسه ، ص ٣٤٦ .
٤ ــ الاعلام ، الزركلي ، بيروت ، ج ٥ ، ٩ ص ١٩ ، ص ٣٨ .
٥ ــ رباعيات الخيام ، ص ٨٢ .
٦ ــ المصدر نفسه ، ص ١٨٣ .
٧ ــ المذاهب الوجودية ، جوليفيه ، ترجمة فؤاد كامل ، الدار العربية ، ص ١٠٢ .
٨ ــ ديوان طرفة بن العبد ، دمشق ، ١٩٧٥ ، ص ٢١ .
٩ ــ رباعيات الخيام ، ص ٨٥ .
١٠ ــ المصدر نفسه ، ص ١٦٤ .
١١ ــ المصدر نفسه ، ص ١٣٥ .
١٢ ــ المصدر نفسه ، ص ١٣١ .
١٣ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٤٦ .
١٤ ــ المصدر نفسه ، ص ١٣٣ .
١٥ ــ المصدر نفسه ، ص ٨٠ .
١٦ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٢٧ .
١٧ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٣٣ .
١٨ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٤٣ .
١٩ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٢٨ .
٢٠ ــ المجمل في فلسفة الفن ، بندتوكروتشه ، ترجمة سامي الدوربي ، دمشق ، ١٩٦٤ ، ص٨ .
٢١ ــ المنقذ من الضلال ، أبو حامد الغزالي ، بيروت ، ١٩٥٩ ، ص ١١ .
٢٢ ــ رباعيات الخيام ، ص ٨٢ .
٢٣ ــ المصدر نفسه ، ص ١٦٦ .
٢٤ ــ المصدر نفسه ، ص ٨٠ .
٢٥ ــ المصدر نفسه ، ص ١٦٤ .
٢٦ ــ المصدر نفسه ، ص ١٢٢ .
٢٧ ــ المصدر نفسه ، ص ٦٩ .
٢٨ ــ المصدر نفسه ، ص ٩٥ .
٢٨ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٢٢ .

✶ ✶ ✶

حديث عن السعادة

ترجمة : محمد حسن ابراهيم

كان احد رجال الثورة الفرنسية الشباب يقول : « ان فكرة السعادة جديدة في اوربا » ، في زمانه .

وكان ذلك الثائر الشاب يريد ، بوصفه هذا للسعادة، ان يفصح عن رفضه الشديد لمفهوم الكنيسة القديم ، فالكنيسة كانت ترى ان التعبير الاسمى عن السعادة يكمن في الاعداد لحياة النعيم في الآخرة ...

ويخالف مفهوم سعادة الحياة الآخرة ، التي تتطلب من الانسان ان يضحي بكل شيء ، كي يستحق الحصول عليها ، مفهوم سعادة الحياة الدنيا .

والسعادة ، حسبما توضح موسوعة ديدرو ، تشكل « حالة او وضعاً من شأنه ان يجعلنا نشتهي دوامه دون تبدل » وهي تختلف عن اللذة التي هي انفعال عابر .

وهناك من يعتبر ان السعادة مماثلة للقناعة المرحة بعيش الكفاف ، اذا جاز القول ، وليس للقناعة التي يمليها الخضوع . كما ان هناك من يروج حكايات تهدف الى اشاعة مقولة : المال لا يصنع السعادة .

بيد اننا عندما نسمع شخصاً معدماً ، يقول مثل هذا القول ، يعترينا شعور بانه يلوذ بالتسليم . اما عندما نسمعه من فم شخص ثري ، فمن حقنا أن نعتبر ان ذلك يفضح ، بشكل من الاشكال ، وعيه انه لا يستحق كل الاستحقاق الاستمتاع بالسعادة ، وأنه يشعر بالحاجة الى ان يتستر عليها ، وهذا مايدفعه لئن يحدد لها موضعا غير موضعه هو .

ولا ريب في ان البشر لا يكفون عن نشدان السعادة والحياة الافضل .

وليس للسعادة ، مكونة من ذرا العيشة الراضية ولحظات اللذة التي تخلف ذكريات ممتعة ، ما يضاهيها في سعادة مسطحة حافلة بالتفاهات وتخلو من لحظات رائعة تنقل صاحبها من دكنة السهول الى اضواء القمم العالية .

لكننا ، مهما قلنا ومهما صنعنا ، لا نستطيع ان نرى سعادة تتحقق في حياة بائسة تفتقر الى مستلزمات العيش .

فعدو السعادة الرئيسي هو الفقر ، مع ذلك ، قد يخطىء من يعتقد ان اشد الناس عسرا ، كالناس الذين هم في اسفل السلم الاجتماعي ، يقفون ، حتما ، في طليعة الذين يقاومون ويناضلون من اجل تغيير المصير الذي فرض عليهم ، ذلك لان الذي يغرق في الاملاق قد يلوذ بالتسليم .

واذا عدنا الى تعريف السعادة في الموسوعة الكبرى نرى أنه قد تضمن الفقرة التالية : « ... ان امتلاك الثروات هو اساس سعادتنا ، الا انه ليس السعادة نفسها . اذ ، الى م يمكن ان تؤول السعادة عندما ينعدم شعورنا بها ، رغم امتلاكنا لمقوماتها ؟ فمجنون آثينا ، الذي كان يعتقد ان كل المراكب التي كانت تصل الى ميناء بيريه ملك له ، كانت تسعده تلك الثروات والاموال ، دون ان يكون مالكا لها . في حين انه قد يكون اصحاب المراكب الحقيقيون يملكونها دون أن يتلذذوا بذلك . » . ونقرأ في الموسوعة الكبرى ، ايضا ، الاسطر التالية التي تتعلق بتنوع اشكال السعادة : « ... ان البخيل

لا يتذوق الا طعم الامل في أن يتمتع بثروانه ، اي ، لا يتذوق الا الشعور بالمتعة التي يحس بها لامتلاكه اياها ، وبذلك يجد نفسه سعيدا . انه ، في الحقيقة ، لا يستخدمها ابدا ، لكنه يجد اللذة في محافظته عليها . وهذه اللذة تؤول الى شعوره بأنها ملكه ، فيجد ، بهذا الشكل ، نفسه سعيدا ، وبما انه يجد نفسه سعيدا ، لماذا ننكر عليه سعادته ؟ أليس لكل انسان الحق بان يكون سعيدا ، وفق ما تقضي بذلك نزواته ؟ ان الشخص الطموح لا يسعى الى تسنم المناصب الا لانه يشعر بلذة في ان يجد نفسه يعلو على الآخرين . وجالب الثار قد لا يأخذ بثاره ابدا ، لولا انه كان يأمل في ان يجلب له الثار ارتياحا ... » .

كل ما ذكر يقلص مفهوم السعادة حتى يؤول الى مفهوم امتلاك الوسائل المادية ، التي يتصرف بها مالكها كما يحلو له ، وبشكل اناني ، في معظم الاحيان . مع ذلك ، لا نستطيع تجاهل الحقيقة التالية ، التي لفت النظر اليها جون دي لابروير : « يوجد ما يخجل في ان يكون المرء سعيدا ، وهو يرى بعض ضروب البؤس » على انه لو وجد خجل حقا ، فمن غير المؤكد ان الذين كان يجب عليهم ان يشعروا به ، قد شعروا به . فهم جد بعيدين عن البؤس حتى انهم لا يرونه . وهذا حقيقي الى حد ان مالكي الثروات يدفعون ، الى السكن في اماكن بعيدة عنهم ، اولئك الذين يصعب عليهم تجنب الضيق ان لم نقل البؤس ، مع انهم هم الذين ينتجون الخيرات التي تستفيد منها قلة من المستغلين .

كان الاشتراكي الطوباوي هنري دي سان سيمون يقول ، « اذا عمل الاغنياء على ازدياد سعادة الفقراء فقد يحققون بذلك تحسين حياتهم الخاصة » لكن ، ما اقل الاغنياء الذين نراهم يتبعون هذه النصيحة .

ويظهر مدى وقاحة الذين يستفيدون من عمل الآخرين ، واقع انهم يدعون ان من يستأثرون بثمار كدهم يعرفون السعادة الحقيقية ، وذلك لانهم يبدون حرصهم الشديد على تجنب حسد السعادة المكذوبة ، التي يؤكدون وجودها في الفاقة ، بنت الاستغلال .

اما ما يتعلق بالافراد ، فلا ريب ان لكل انسان مفهومه الخاص عن السعادة ، كما ان له تطلعاته الخاصة ، وهذا يصح بالنسبة الشخص الذي يحب المغامرة ومواجهة الاخطار ويعشق الاسفار ، والذي قد يمل مللا قاتلا في حياة يسودها الهدوء والعمل المنتظم ، بكل ما يتطلبه من رتابة . ويجب القول بأن رجالا ونساء ، من هذا النوع ، يجدون سعادة في ظروف لايجد فيها آخرون الا المخاطر .

واعتقد ، بهذا الصدد ، ان هناك شيئا من الحقيقة في الجملة التالية ، التي قالها موريس بارّيس : « يوجد ، بالنسبة لكل كائن ، نوع من النشاط يمكنه ان يحقق فيه نفعا للمجتمع ، وفي الوقت نفسه ، يجد فيه سعادة » . الا ان ضراوة قانون الربح قلما تكون متوافقة مع مشاريع كهذه .

لقد فكرت ، دائما ، بأولئك الذين يجرون وراء المغامرات ، وانا اشاهد رجال الويسترن الاميركيين ، الذين يفيض التلفزيون باتخامنا بمرآهم ؛ حيث نرى باحثين عن الذهب وملاكا ، واذا اقتضى الامر ، لصوص مواشي ، يلعبون بمسدساتهم وبنادقهم ، بمهارة فائقة ، لاتفه الاسباب ، في معظم الاحيان .

ويطالعنا ، في جميع الافلام التلفزيونية هذه ، تمجيد العنف ونوع من تأليه القوة . ولا شك في ان افضل المواضيع الوعظية ما كان بامكانها ان تخلف صدى في صفوف « ابطال » ماكوّن ، مع حرب الانفصال ، ملحمة الولايات المتحدة الاميركية ، التي هي البلد الاول ، من البلاد الحديثة ، الذي كرس نفسه للقيام بعملية ابادة ، هي عملية ابادة الهنود . والهنود ما زالوا يصورون بطريقة ، لا تخلو من اللوم ، تبين كيف يباغتون ، بهجمات وحشية ، اميركيين ، قديمي وحديثي العهد ، لا يبغون ، حسبما يراد ان يوحى لنا ، على ما يبدو ، الا ان يعيشوا بسلام ، مع انهم كانوا ، في غالب الاحيان ، قد اتوا ليقيموا في مواضع الهنود الذين طردوا من ارض اسلافهم .

لقد كانت تلك الاحداث تمنح اولئك المغامرين السعادة . وقد كانوا يجيزون لانفسهم الاستئثار بكل الحقوق ويبيحون لها الاستهزاء ، صراحة ، بالقوانين . كانت الشرطة مكونة تكوينا يبيح لها ان تتدخل بشدة في كل ظاهرات العنف العامة . وكان لديها مفاهيم مشوشة عما هو مشروع وعما هو غير مشروع . وكانت نجمة الشريف غالبا ما تحتل مكانها على صدر قاتل مختار ، يرفده العديد من الرجال الخرق . ولم يكن يحتمل ، وجودا كهذا ، كثير من الرجال والنساء الآخرين .

من وجهة النظر التي تتعلق بالنضال الاجتماعي ، تحول صعوبات قصوى دون تحقيق اكتمال سعادة كل انسان .

اما مايخص علاقات البشر العاطفية ، فيستحيل التدخل فيها ، اذ قد نرى شخصا يكن مشاعر حب لشخص آخر لا يبادله الحب . . .

نشير بهذا الصدد الى وجهات نظر مختلفة ، لكل منها مبرر وجودها وتعكس مشاعر خلفت اثرا على مرحلة من مراحل الحياة ، ان لم تقل على الحياة بأكملها .

على سبيل المثال ، عندما كتب هنري باربوس روايته « الجحيم » التي كان طابع اليأس فيها يطغى على طابع حب الحياة ، خط قلمه هذه الاسطر : « كيف يستطيع الانسان ان يكون سعيدا وهو يعيش في دعة تامة وفي صفاء خالص بعيد عن الواقع كما النموذج . نحن مكونون من حاجات لا حد لكثرتها ومن قلب شديد الاضطراب ، فما الذي يبقى لنا اذا حرمنا من كل ما يؤلمنا ؟ » .

اما باربوس كاتب رواية « النار » ، الذي كان قد غدا كاتبا سياسيا ملتزما ، ومكافحا ، ضد الفاشية ، لا يلين ، فقد كان يبدو لي ، عندما تعرفت عليه ، انه قد وجد ، وهو يؤدي رسالته في النضال من اجل الحرية والسلام ، سعادة وفرحا صميميا اعظم مما وجد في حياته السابقة .

ولو قارنا نمط انكار السعادة ، الذي يعبر عن مرحلة من مراحل حياة هنري باربوس ، بفكرة السعادة الانثوية ، كما كانت تتصورها كوليت ، لرأينا بجلاء اختلافا كبيرا . غير انني ارى تعبير كوليت الآتي رائعا : « تعدُّ المرأة نفسها منتسبة الى مساقط رأس عددها المرات التي عاشت فيها حبا سعيدا » .

ونجد بالنسبة لما يتعلق بالسعادة في الحب ، ايضا ، اختلافا واضحا ، كما نجد نقط التقاء ، بين ما كتب ، بهذا الصدد ، شاعر عظيم مثل ڤيرلين ، وشاعر كبير مثل اراغون .

« ــ ما احلى الأيام الجميلة التي قضيناها في سعادة تستعصي على الوصف
حيث كان يتلاقى منا الفمان !
ــ هــذا ممكن .
ــ كم كانت السماء زرقاء ، والأمل عظيماً !
ــ لقد فر الأمل نحو السماء السوداء ، مدحوراً
على هذا الحال كانا يمشيان وسط نبات الشوفان المجنون
ولم يسمع كلامهما إلا الليل . »

ڤيرلين

« لا شيء يمتلكه الانسان ابدا . لا قوته
ولا ضعفه ولا قلبه . وعندما يعتقد
انه يبسط ذراعيه فظاله ظل صليب
وعندما يعتقد انه يضم سعادته فانه يحطمها
فحياته طلاق غريب ومؤلم .
لا يوجد حب سعيد . »

اراغون

لا يوجد حب سعيد ؟ الا يمكن ان يكون هناك شيء من المبالغة في ان يصل الجزم الى هذا الحد .

اقول هذا واعبر عن انني اعتقد ان مجتمعا لم يعد يسود فيه قانون الربح، بكل ضراوته ، وبحرك النشاط الانساني ، قد يصبح ممكنا فيه ؛ ان تختفي بعض المحظورات وبعض مظاهر التمييز الاجتماعي والعنصري ؛ وايضا ، ان يمنح كل انسان حريته التامة في التفكير والتعبير والاتصال ؛ وان يكون احترام حق العمل اكيدا ؛ وان يضمن ، للجميع ، التمكن من الحصول على مستلزمات العيش الكريم وامتلاك القدرة على تحقيق تطورهم الفكري والثقافي ؛ كما يضمن للعائلات ان يتاح لاطفالها وابنائها دور حضانة ورياض اطفال وكل مراحل التعليم ، فلا تسد في وجه البعض ، بفعل نوع من انواع التمييز الاجتماعي يؤدي الى ايقاف تطور ادمغة واعدة ، بسبب وضع الأهل الاقتصادي ، في حين يستطيع آخرون خاملون وكسالى متابعة دراستهم لانهم اغنياء .

بكلمة واحدة : ان زوال وضع اجتماعي ، يزيد الاغنياء غنى والفقراء فقرا، يحمل في طياته خيراً عميماً .

إن فكرة سعادة البشر على الارض ماضية في سيرها ؛ وعلى البشر انفسهم ان يمسكوا بالزمام . فكون هذا الامر يعنيهم له اهمية جوهرية .

◆ ◇ ◆

نافذة على العالم

ترجمة وإعداد :
كمال فوزي الشرابي

آداب

●● جول سوبرفييل Jules Supervielle
في الذكرى الثلاثين لوفاته

تحيي الاوساط الادبية الفرنسية الذكرى الثلاثين لوفاة الشاعر الفرنسي الكبير جول سوبر فييل (١٨٨٤ ـ ١٩٦٠). واسهاما منا في احياء هذه الذكرى وضعنا عنه الدراسة التالية واتبعناها بترجمة لمنتخبات من قصائده :

ولد جول سوبرفييل في مدينة مونتفيديو عاصمة الاورغواي . وكان في الشهر الثامن من عمره عندما عبر المحيط الاطلسي مع والديه لقضاء عطلة في مسقط راسيهما مدينة اولورون ـ سانت ـ ماري عند سفوح جبال البرانس او البيرينه . وكانت العطلة شؤماً عليهما اذ توفي الاب ولحقت به الأم بعد اسبوع متسممين بماء ملوث . حضنته جدته ثم عمه وعمته اللذان عادا به الى مونتفيديو وعمره سنتان لكي يديرا اعمال والده هناك . وقضى في كنفهما ورعايتهما طفولة سعيدة . وما إن اصبح في العاشرة من عمره حتى ارسلاه الى باريس لتلقي علومه فيها .

بدا ينظم الشعر صغيرا ، وفي السادسة عشرة من عمره اصدر ديوانا من ثمان وعشرين صفحة اسماه (ضبابات الماضي ، ١٩٠٠) . وسافر مراراً في اثناء بعض العطل المدرسية الى مسقط راسه مونتفيديو . في عام ١٩٠٢ نال شهادته الثانوية ثم انهى خدمة العلم في مقربة من باريس . ومع ان ساقيه طويلتان فلم يكن يحتمل السير الطويل في المناورات الكبيرة ، كما ان التعب كان يمنعه من النوم باعتباره عصبي المزاج ، لذلك تم نقله الى الخدمة الاضافية . وتركت له خدمته الالزامية انطباعا لا يقل مرارة عن الانطباع الذي خلفته له المدرسة . وكان ميسور الحال لا هموم مادية لديه ، شأنه في ذلك شأن اندره جيد وفاليري لاربو Larbrud ومارسيل بروست . ثم انتسب الى كلية الحقوق ومدرسة العلوم السياسية ، ثم ما لبث بعد عام ونصف ان اهمل دراساته . بيد انه كان مغرما بدراسة اللغات وهكذا حصل على شهادة في اللغة الاسبانية كما اتقن اللغات الانكليزية والايطالية والبرتغالية .

في عامه الثالث والعشرين عاد الى مونتيفيديو وتزوج فيها ، ورزق خلال زواجه بثلاثة صبيان وثلاث بنات . وفي عام ١٩١٠ اصدر مجموعته الشعرية الثانية (كما الأشرعة) . وحين نشبت الحرب العالمية الاولى اعيد الى الخدمة العسكرية وتسلم مراقبة الرسائل المكتوبة باللغات الاجنبية التي يتقنها . ولدى انتهاء الحرب استقر بباريس حيث عرف طعم السعادة مع عائلته ومع انتفاء المصاعب المادية لديه . لكنه كان ذا صحة هشة وحساسية قلقة .

في عام ١٩١٩ اصدر في طبعة نفيسة مجموعته الشعرية الثالثة بعنوان (الدعابة الحزينة) ، وارسلها الى عدد من الكتاب والنقاد فتلقى رسائل تقدير وتشجيع من اندره جيد وبول فاليري . في العام ذاته ، وبناءً على طلبه ، وضع

الشاعر بول فور Fort مقدمة لمجموعته الرابعة (قصائد) وبرز طابعه الشخصي بشكل خاص في مجموعته الخامسة (ارصفة الموانيء ، ١٩٢٢) . ثم اصدر في عام ١٩٢٣ اول عمل نثري له بعنوان (انسان البامبا Pampa ـ السهل المعشوشب) ، وهو عمل مغرق في الخيال وعالم الجنيات . ثم نشر مجموعته الشعرية السادسة (انجذابات ، ١٩٢٥) كما نشر روايته الاولى (سارق الاطفال) . واعلن ان لا صلة شخصية ولا حتى صلة شبه تربطانه بـ « بيغـا Bigua » بطل الرواية . يقول : « انه انسان يسرق الاطفال من شدة حبه لهم . اما انا فلديّ ستة منهم ولا حاجة بي الى سرقتهم » . ويتجلى شقاء بيغـا في أنه اغرم بمراهقة تبناها لكنها احبت شاباً في مثل سنها . وهكذا يرمي بنفسه الى البحر لكنه لا يغرق بل يعاود الظهور في رواية سوبرفييل الثانية (الباقي على قيد الحياة ، ١٩٢٨) وهي تنتهي نهاية مريحة .

في عام ١٩٣٠ اصدر شاعرنا مجموعته الشعرية السابعة بعنوان (المحكوم البريء) ، ومجموعة قصص جميلة عنوانها (طفل البحر العالي ، ١٩٣١) . وفي عام ١٩٣٣ نشر مجموعته الشعرية الثامنة (وورد الينبوع) وتتضمن قصائد بديعة في الحنين الى مدينته الغافية عند اقدام جبال البيرنه .

وادلى بدلوه في عالم المسرح فابدع مسرحية (الحسناء في الغابة ، ١٩٣١) ، ويدور موضوعها حول حكاية عن عالم الجنيات ، ثم مسرحيته الفاتنة وهي من نوع الفانتازيا وعنوانها (الاسرة الاولى ، ١٩٣٢) ويعني بها أسرة آدم وحواء . وفي عام ١٩٣٥ ؛ قدم مسرحيته التاريخية (بوليفار Bolivar) وقد مثلتها فرقة الكوميدي فرانسيز ، ورافقتها الحان الموسيقي الفرنسي داريوس ميلو Milhaud ورقصات باليه من سيرج ليفار Lifar .

على ان فن المسرح لم يجعله يهمل فن الشعر ، وهكذا اصدر مجموعته التاسعة بعنوان (الاصدقاء المجهولون ، ١٩٣٤) ثم العاشرة بعنوان (خرافة العالم ، ١٩٣٨) . وفي العام ذاته نشر حكايات عنوانها الرئيسي (سفينة نوح) .

لم يبعد سوبرفييل كثيراً عن ارض الاوروغواي اذ كان يزورها بالباخرة كل ثلاث او اربع سنين ليقضي فيها فترة طويلة . وفي احدى رحلاته البحرية كتب مؤلفه (روبنصون) . وكان يعتبر الباخرة جزيرة عائمة متنقلة . وفوجيء باشتعال نار الحرب العالمية الثانية وهو في مونتيفيديو فبقي فيها حتى عام ١٩٤٦ . وهناك كتب (قصائد فرنسا التعيسة) وقد صدرت عام ١٩٤١ في

الارجنتين ثم في سويسرا عام ١٩٤٢ في طبعة مزيدة . وفي تلك الحقبة كتب (حكايات الغابة الصغيرة) ونشرها في مكسيكو عام ١٩٤٢ ، كما كتب (اورفيه) ونشرها في سويسرا عام ١٩٤٦ . وقد جمعت هذه النصوص فيما بعد وصدرت في كتاب عنوانه (الخطوات الاولى للكون) وذلك عام ١٩٥٠ .

فرح سوبر فييل كثيراً بتحرر فرنسا من نير الاحتلال النازي، على ان فرحته لم تطل بسبب افلاس المصرف الذي يملكه هو وعائلته ، ووجد نفسه فجأة بلا معين ، وتوجب عليه ان يعيش من العائدات الهزيلة التي كانت كتبه تدرها عليه لولا ان تدخلت حكومة الاورغواي ، التي تعترف بالجنسية المضاعفة لرعاياها ، فعينته ملحقاً ثقافياً في سفارتها بباريس .

في تلك الاثناء كتب مسرحيته الشهيرة (شهرزاد) وقدمت للمرة الاولى في الهواء الطلق على مسرح افينيون Avignon الشهير عام ١٩٤٨ ، فسحرت الجمهور بغرابة موضوعها وتالق اسلوبها . وقد غير الشاعر في بعض الاحداث الاصلية كما وردت في كتاب (الف ليلة وليلة) كما زاد في بعضها الآخر ، وبذلك اضفى على مسرحيته نكهة جديدة . وتتلخص هذه المسرحية في ان السلطان شهريار القادر والجميل والقاسي يحب شهرزاد الوديعة الصافية . لكن هناك طرفاً آخر يتسم بالقبح والفشل والانهزامية هو شاه زينيان شقيق السلطان ، كما ان هناك دينار زاد الخانع والراكع ابداً عند اقدام شهريار . يتناول السلطان ذات ليلة مخدراً قوياً فيخيل اليه ان المسكين شاه زينيان يخطب ود شهرزاد ويرغب في حبها وانها تلاطفه وتسايره ، فيغضب ويأمر بقطع يد كل منهما . تاتي المفاجاة السحرية اذ يختطفهما جواد طائر وينقذهما من العقاب . ثم تجري سلسلة من التحولات والتنكرات فتتيح للسلطان شهريار ان يبرأ من شكه ويعيش حبه لشهرزاد بثقة وهدوء واطمئنان وذلك حين يزول فعل المخدر وتتوضح له براءة المتهمين .

في عام ١٩٤٩ اخرجت روايته (سارق الاطفال) للمسرح فنالت نجاحاً كبيراً خصوصاً وانها ادرجت فيما يسمى « مسرح الحجرة » قياساً على ما يطلق عليه في عالم الالحان « موسيقى الحجرة » . اما روايته (روبنصون) فهي مكتوبة نثراً وشعراً ، وتمكن الجمهور من قراءتها في السنة ذاتها .

بعد تلك الفترة ، تدهورت صحة سوبر فييل اذ كان يشكو من عدم انتظام في خفقان القلب كما كان يشكو من اضطرابات رئوية . وبعد ديوانه (الى الليل)

اتخذ شعره طابعا ارنانيا جديدا . فلقد اصبح الايقاع لديه اكثر سلاسة وعذوبة كما في مجموعته (الذاكرة الناسية ، ١٩٤٩) التي اتبعها بـ (ولادات ، ١٩٥١) ثم بـ (السلّم ، ١٩٥٦) واخيرا بـ (الجسد الفاجع ، ١٩٥٩) . وله اعمال شعرية ومسرحية اخرى يضيق المجال عن تعدادها .

قبل وفاته بقليل ، منحته مجلة ادبية اسبوعية هي « النوفيل ليتيرير ــ الاخبار الادبية » لقب « امير الشعراء » وكان قد حمل هذا اللقب قبله الشاعر الفرنسي الكبير بول فور .

استحق سوبر فييل عن جدارة اسما جميلا هو المصلح او الموفق ــ بكسر الفاء وتشديدها ــ ، ففي تلك الحقبة التي كانت السريالية فيها تسيطر على الشعراء الشباب ، وترمي بهم الى الضياع في الرمال المتحركة للكتابة الآلية . رفع هو مشعل التقليد الغنائي من غير ان يهمل الصور والعواطف المتولدة من الحلم واللاوعي . ومن دون ان يخشى المغالاة في حكاياته وقصصه الاولى ، فانه لم يشأ ان يستسلم لوحشية الغرائز بل راح يروض هذه الغرائز ويخترع ميثولوجية شخصية استطاع بها ان يهب معاني جديدة لحكايات او خرافات قديمة . اضف الى ذلك انه كان يشعر بروح الطبيعة والكائنات ويعبر عما في الاشجار والنباتات والحيوانات من حياة متدفقة خالدة . وكان يحاول دائما انقاذ قرائه من عبء العالم وسطحيته بما بث في اعماله من حنان والفة . وكان قادرا في حنينه الى الطفولة والبراءة ان يبدع انغاما تحملنا على جناح من المساواة والصفاء . وتعتبر اعماله في رأي معظم النقاد من اكثر الاعمال ابتكارا ومن اشدها متانة في عصرنا الحاضر .

١ ــ الى بلادي

تحت الاحتلال النازي

في نظرتي من اعالي السماء الى فرنسا ،
ومدنها وحقولها في اعماق الاهانة ،
ونحن حبيسو ايامنا ذات النزعات المقهورة ،
انظر الينا جميعا ونحن نعيش بأصرار .

يا فرنسا ! اريد ان احدثك بلا شهود ،
انت يا القابعة في الظل على مسافات معتمة !
شقاؤك من القسوة بحيث يجرح البعيدين ؛
وتسير رعشة قاتلة الفضاء في كل اتجاه .

* * *

كانت اذن هكذا فرنسا في خرابها .
طال زمانها حتى تعرفت الى نفسها
وعرفت الهاوية ؛
على ركبتيها الواهنتين تريد ان تنهض ،
مفرقة في الشحوب ، لتخفي رعبها من الموت .

* * *

نحن بعيدون جداً عن ذواتنا
وفرنسا بين اذرعنا ؛
كلٌ يحسب نفسه وحيداً معها ،
ويفكر ان لا احد يراه .

* * *

كلٌ يملؤه الارتباك
امام ملك بهذه النفاسة ،
أوهذا هو الوطن اذن ؛
هذا الجسد ذو الوجه السماوي !

* * *

كلٌ يمسك بها على طريقته
ويعانقها بلا حدود ؛
ويتمرأى في وجهها
كما في اعمق مرآة .

* * *

ايتها الوجوه العتيقة التي تخرج من الظلمات ،
يا اقمار تعلاتنا وحرياتنا ،
اقتربي حية لدى بزوغ احلامنا ،
وبددي هذا الضباب الوضيع المدمى !

٢ ـ القرين

حضر قريني ونظرني اتصرف .
قال في نفسه : « ها هو ذا يغرق في الاحلام ،
يحسب نفسه وحيداً بينما استطيع مراقبته
حين يخفض عينيه ليحفر بؤسه .
عن اشد ما في الليل سواداً لا يستطيع ان يخفي شيئاً
مما يصنع ليله مع عزلتي .
حتى في اعماق الرقاد اصعد الى البحث عنه
خلسة ، وانا خائف من ان ابدو له فظاً ؛
واضيئه بكهربائي اللطيفة
التي لا تقوى على إفزاعه ؛
واقترب منه واخضعه للدراسة
وانا ارى في نفسي ما يتجنبه قلبي » .

٣ ـ الليل

في الليل ، حين اريد ان ابدل رقاداً
يجافيني ، ويتركني مسهداً
مع جسمي الكبير المتعب ، ولا صوت لي للشكوى ،
ودماغي يشتعل ولا اقوى على اطفائه ،
يتحرك الميت الذي في نفسي بلا تكلف ،
ويقول لي : « بدات اجد الوقت طويلاً ،
ما الذي بامكانه ان يبقيك على الارض
بعد هزيمتنا وفرنسا في بؤسها ؟ » .
لا اريد ان اجيب مَن في كل مكان يتبعني ،
ولا ابحث الا عن عالم فيه اختفي
لاخنق في ذاتي اكثر ما في الوجود من الحزن ،
واشعر بأنني اغدو ابن الليل الوضيع .

٤ ـ تحية الى الحياة

جميل ان يختار الانسان
بيته في الحياة ،
وان يسكن الزمان
في قلب من يحب ،
وان يرى يديه
تتوضعان على العالم
كما تتوضعان على تفاحة
في بستان صغير .

* * *

جميل ان يحب الانسان
الارض والشمس والقمر
كاشياء مالوفة
لا مثيل لها ،
وان يعهد بالعالم لذاكرته
كفارس مضيء
يعهد بمسيرته
لفرسه السوداء .

* * *

جميل ان يهب الانسان
وجهاً لهاتين الكلمتين :
المرأة والاطفال ،
وان يكون شاطئاً
لقارات تائهة ،
وان يبلغ الروح
بخفقات مجذافه الخفيفة
لكي لا يجفلها
باقترابه المفاجىء .

* * *

جميــل أن يتذوق الانســان
ظــل الأوراق ،
وان يشــعر بأن عمــره
يزحف عــلى جســده العــاري ،
وأن يرافــق غنــاء
الــدم الأســود في العــروق .

* * *

جميل ان يذهب الانسان
صمته بنجمة الصبر ،
وان تكــون لــه
جميع هذه الكلمات
التي تتحرك في الراس ،
وان يختــار منهــا ،
اقلهــا جمــالا
ليجعلهــا تبــدو
وكأنهــا عيــد

* * *

جميــل ان يشــعر الانســان
بالحيـــاة
متسارعة وغير محبوبة .
وأن يحبســـها
في هــذا الشعر .

٥ ـ نبــوءة

ذات يوم لن تكون الأرض الا
فراغــا أعمى يــدور
مازجــا الليــل بالنهــار .
وتحت السماء الشاسعة لجبال الأندس
لن تدوم ســوى شرفــة ،
حتى ولا وادٍ صغير .

* * *

ومن جميــع بيــوت العــالم
لن تــدوم ســوى شرفــة ،
ومن الخريطة الانســانية
سوى حزن بلا سقف .

ومن المرحوم المحيط الاطلسي يبقى
طعم" يسير" مترنح" في الهواء
وسمكة" طائرة سحرية
لا تدري عن البحر شيئاً .

* * *

ومن عربة مقفلة من طراز ١٩٠٥
لن يبقى سوى عجلاتها الأربع ، بلا أي طريق !
وثلاث فتيات من تلك الحقبة
بقين في هيئة بخار ،
سينظرن من البوابة
ويفكرن ان باريس ليست بعيدة ،
ولن يستروحن سوى رائحة
السماء التي تمسك بالخناق .

* * *

ومحل الغابة سيرتفع
تغريد عصفور صغير ،
لا احد يستطيع تحديد مكان وجوده ،
ولا تفضيله ولا حتى سماعه
ما عدا الله الذي سيصغي اليه وحده
قائلاً : « ذاك حسون » .

●● ثلج الاميرال / إيلونا تقبل مع المطر / المرسى الاخير ،
ثلاث روايات لالبارو موتيس ALVARO MUTIS
منشورات ميسنجر MESSINGER بباريس .

١ ــ ثلج الاميرال :

قضى الكاتب الكولومبي البارو موتيس معظم طفولته في بلجيكا حيث كان تلميذا في احدى المدارس . ثم انتقل الى باريس حيث كان زملاؤه ورفقاؤه يسخرون من لكنته الفرنسية المشوبة بالنبرة الاسبانية . ولم يتعرف الى بلاده كولومبيا الا في طور المراهقة اي في عام ١٩٣٩ . وقرا الادب الفرنسي وتمثله واعجب ببودلير كما احب موسيقى موريس رافيل Ravel ، وتأثر باكثر الاعمال

الادبية خفاءً ونعني بها قصائد النثر في كتاب (غاسبار الليل) للأديب الفرنسي الويزيوس برتران Aloysius Bertrand (١) .

في هذه المجموعة وجد البارو موتيس ما دفعه الى الكتابة ليطلع علينا بروايته (ثلج الاميرال أو ماكرول Maqrol النوتي) ، و « **اذا كان الشعراء هم صواري البشرية** » كما يقول الشاعر عزرا باوند ، فيجب أن نعتبر ماكرول النوتي شاعرا شموليا لانه يحس ويرى ويحرز ويختبر بأعصاب هادئة ما تحمله الحياة من خيبة مختزنة فيستبق بذلك طاقما من البحارة بأكمله .

تؤلف رواية (ثلج الاميرال) الجزء الاول من ثلاثية روائية وقفها البارو موتيس على بطله ماكرول النوتي الذي يمكن تسميته ببطل الانتظار الخائب . وقد بناها على يوميات كتبها البطل النوتي في اثناء عبوره غابة استوائية على احد الانهار الكبرى ، يضاف اليها بعض المستندات المبعثرة ، كما بناها على هذا المزيج من الابهام والوضوح اللذين نلمسهما في (غاسبار الليل) لا لويزيوس برتران .

واذا وضعنا ماكرول ـ موتيس في مواجهة غاسبار ـ برتران ، فاننا نستطيع أن نستنتج أن حصة الابتداعية (الرومانتية) تضيق في هذا الكتاب لصالح الرمزية العفوية . يقول البطل : « **ليس في الغابة شيء غامض ... وهنا يكمن خطرها الاكبر . انها ما رأيته ...** » وهكذا يقدم لنا الكاتب شعراً قد يبدو لاول وهلة في منتهى البساطة ، الا انه في الحقيقة مغلف بايحاءات غامضة، ومؤثرات قوية تتحدث عن عزلة الانسان في الوجود ، وعن حبه المغامرة لاكتشاف المجهول .

هل هناك تميز يفوق هذا التميز الذي يقدمه لنا الكاتب حين يتوغل في اغنى اعمال القرن التاسع عشر ليعثر على طريقة يعبر بها غابة تشبه غابة الامازون ؟ ويقرع ظهور طائرة مائية او اطلالة شاحنة ، كجرس منبه صباحي، سمع القارىء الذي يستغرق في القراءة ويحسب نفسه خارج الحقب كافة ، ويحلم يقظان بمرافقة البطل في رحلته على مركب ذي محرك . ولاشك في أن هذا الشعور بالتحرر من الزمن ، وهذه الطريقة في جعل عصرنا يبدو وكأنه ابدية هما من صنع مؤلف كبير .

* * *

لايقتصر انتاج كولومبيا على الكوكائين كما هو شائع . فهذه البلاد قدمت الى البشرية كاتبين كبيرين أولهما غابرييل غارثيا ماركيز ، حامل جائزة نوبل

في الآداب لعام ١٩٨٢ ، وثانيهما البارو موتيس الذي وجد فيه ماركيز من النبوغ ما دعاه الى ان يهدي اليه عمله الشهير (مئة عام من العزلة) .

يقول موتيس : « انا وماركيز صديقان قديمان جدا . والعلاقة التي تربطنا لم تنشأ ولم تتطور بسبب الأدب . من المؤكد اننا نتحدث في الأدب من وقت لآخر . لكن علاقتنا نشأت وتطورت بتأثير النهج الاخوي الذي نتقاسم به حياتينا . فانا أتحدث اليه كل يوم ، وقد أهدى لي ايضا كتابه الأخير (الجنرال في المتاهة) » . هذا الاهداء الذي ورد في صدر الكتاب كما يلي : «الى البارو موتيس الذي أعطاني هـذه الحكايـة » يستأهل التفسير . ويضيف البارو موتيس : « منذ عشر سنوات ، حاولت كتابة الايام العشرة الاخيرة في حيـاة الجنـرال بوليفار(٢) . فبعد ان هزم ، وتخلى عنه رفقاؤه في الحرب ، حاول ان يستقل مركبا ليصل الى فرنسا حيث سبق له ان عاش عندما كان فتيا . لكني وجدت ان كتابة ذلك شيء في غاية الصعوبة لدي . وذات يوم، جاء غارثيا مركيز لزيارتي وقال لي : «اسمع يا صديقي ، هل قررت ان تكتب ام لا ؟» اجبته لا ، فطلب مني ان اتخلى له عن هذه الحكاية ، فقبلت . وفي اليوم ذاته حمل معه جميع ما لدي مما يتعلق بها من تاريخ وكتب تتضمن سيرة بوليفار واخباره . ثم بدا العمل ، بعد ان ترك ما كان في يده من كتابة ، واخذ يقرأ ويقرأ باستمرار ، ثم الف هذا الكتاب الرائع الذي اعتقد انه اهم اعماله ، واكثر الكتب اتساما بالطابع الكولومبي والاميركي اللاتيني في العالم ، والذي يعتبر في الوقت ذاته تاملات في الموت » .

بدا البارو موتيس مسيرته في الأدب بكتابة الشعر ثم انصرف عنه الى الرواية فوضع ثلاثية حول بطله المفضل « ماكرول النوتي » كما ذكرنا . وحين ترجمت ثلاثيته الى الفرنسية اشرف بنفسه على ترجمتها واخراجها باعتباره يتقن الفرنسية كالادباء الفرنسيين ، اضف الى ذلك ما يتمتع به من ثقافة واسعة في تاريخ الحضارة الاوروبية ، وما انعكس من هذه الثقافة على لسان بطله في الثلاثية المذكورة .

يقول : « لقد سئمت من تاريخ امريكا اللاتينية ، فالحروب الاهلية فيها تتكرر على نوع من انواع الرتابة المزعجة . اما اذا اخذت الحروب الصليبية ، مثلا ، فانك تجد فيها منهلا للخيال والكتابة لا ينضب . حتى معركة واترلو ، فانها تمثل نهاية الاسطورة الاخيرة التي عاشها الاوروبيون ، سواء اكانوا يحبون نابليون بونابرت ام يكرهونه ! » .

سبق لنا ان ذكرنا في مطلع المقال ان ما كرول النوتي هو بحار لا تقـوده رحلاته الى اي مكان ، او قد تقوده احياناً الى اماكن يضيع فيها ، ويبقى فيها حقبة من الزمن بدافع من الكسـل الطبيعي الذي يقعد به عن العمل . لكن العمل يأتي اليه ، ويتوجب عليه ان يعاود الرحيل ليتوقف في مكان آخر .

يأتي هذا الشخص من بعيد . يقول المؤلف : « **لقد زينت كتبي ببعض قصائد النثر ، وكانت هذه القصائد نوعاً لسرد مراحل الحياة التي عاشـها ماكرول . ومنذ ستة او سبعة اعوام تنبهت الى ان في هذه القصائد حكاية ، وانها تصلح كمنطلق لهذه الرواية ...** » .

على ان ماكرول لم يلبث ان اصبح بالنسـبة الى ابيه الروحي بطلاً مزعجاً . يقول موتيس : « **ساموت وهو سيستمر في العيش . قتلته ثلاث مرات ، وثلاث مرات وصفت موته بكل تفاصيله ، وثلاث مرات عاد اليّ بحكاياته عن المجون والكحول والبؤس . انه للعنة ! من الطبيعي ان احبه كثيراً ولكن « مقالبه » معي لا تنتهي** » .

حياة ماكرول النوتي حياة مغامر لا يستطيع ان يجد مراسي له الا في الحب والصداقة . انه يتألم حتى حين تتحطم الاغلال التي تقيده ، فالحياة تنتهي دائماً بالموت ، ووحده البطل يستطيع ان يقاوم جميع الهجمات لكي ينطلق ويضيع من جديد .

٢ ــ ايلونا تقبل مع المطر :

وهو عنوان الجزء الثاني من الثلاثية ، ولعله المحور الرئيسي فيها . فحين يفشل البطل في باناما يجعل من هذا المعبر مركزاً لنشاطاته بفضل ايلونا Ilona التي عثر عليها في احدى المـدن . وايلونا لديه هي حبه القديم الذي لم تخب ناره . ويتصف البطل بالوفاء لاحلامه واحلام من يحبهم . وهكذا يسعى الى تحقيق هذه الاحلام بممارسة عدة اعمال لا تدر عليه ربحاً وفيراً . اضف الى ذلك مضايقة السلطات له في اقامته غـير المشروعة . اما إيلونا فهي تحب فيه شخصين : النوتي المغامر بالدرجة الاولى ، ثم الانسان الذي يحاول التكيف مع واقعه . وحين تضيق بهما الحال يسـافران في مركبهما الى اوروبا بحثا عن حياة جديدة .

٣ ــ المرسى الاخير :

هنا لا يظهر ماكرول سوى شبح يمر خفية على الرغم من المكان غير المتوقع الذي توجب عليه ان يحتله في هذا الجزء الاخير من الثلاثية . يقول موتيس : **« كنت قد بدأت بالكتابة ولكن في هنيهة ما ، وبينما كان الشخص موجوداً بعرفا انفر ببلجيكا في مطعم اندنوسي ، ظهر ماكرول النوتي . بدأ يتكلم ويقول اشياء من شأنها ان تدمر عملي كله ... حاولت ان اخرجه من ذلك المكان ، ولكنه اصر على البقاء كما اصر انه هو الذي يجسد الرواية باكملها . عندئذ عاودت الكتابة في الرواية من الصفر ، وبذلك نجحت في اجباره على الصمت »** .

اما الانفعالات هنا فهي ذاتها ، وقد ولدت من حنين غامر يصل ما بين الكائنات وبوساطة الأشياء احياناً .

ان الصداقة التي تربط بين البارو موتيس وغبرييل غارثيا ماركيز تغري بالمقارنة بين هذين الاديبين ، ومع ذلك فهذه المقارنة مستحيلة . فاذا كان أشهر الكتاب الكولومبيين غالبا ما يعبر عن نفسه بروايات عنيفة تشبه تدفق السيل ، فان البارو موتيس يؤثر الظل الندي للكلمات على الكلمات ذاتها . والالوان الصارخة القوية التي يستعملها الاول غائبة اذن عن كتب الثاني حيث نعثر بالمقابل على حساسية في منتهى الشفافية .

فنــون

●● **فان غوغ ، لباسكال بونافو P. Bonafoux / مفكرة الفن ، لجان ــ لــوي بــونا Bonnat ، منشــورات du chêne بباريس / فان غوغ ، مفكــرة المئوية ، لوحات وكتابات ، منشورات آدم بيرو Biro / تقويم فان غوغ ، منشورات Skira بباريس**

كتاب ومفكرتان وتقويم لاثنين من المؤلفين واثنين من الناشرين تصدر دفعة واحدة عن الرسام الهولندي الشهير فنسان فان غوغ بمناسبة مرور مئة عام على وفاته (١٨٥٣ ــ ١٨٩٠) . يقول باسكال بونافو : **« ان عام ١٩٩٠ هو عام فان غوغ . لكان في إهاب هذا الانسان رجلين . احدهما يملك الموهبة المبدعة والظرف واللطف ، وثانيهما يتصف بالانانية الطاغية والقسوة . وهما يظهران**

بشكل دوري ، وهكذا نسمعه تارة يتحدث بهدوء وحكمة وتارة اخرى بعصبية وجنون ، ويقدم لنا تسويغات لكل من الحالتين . ومن المؤسف ان يكون هذا الفنان الكبير قد عاش عدو نفسه ، لانه احال الحياة من حوله جحيماً لا بالنسبة اليه وحسب بل بالنسبة الى الاخرين ايضا » .

فنسان فان غوغ عدو نفسه ، انه لنوع مـن التعريف بـه ، لا التعريف بلوحاته المتسمة بطابعي الحداثة والعبقرية ، هذه اللوحات التي تفخر الدول والافراد باقتناء واحـدة منها ، والتي بلغت اثمان بعضها عشرات الملايين من الدولارات أو الجنيهات الاسترلينية ، والتي تـسابق اللصوص على سرقة عدد منها ثم أعادوه لصعوبة بيعه .

وتتضمن اللائحة التي نظمها جي . بي . دولافاي ، ثم اعيد النظر فيها مؤخراً ، اسماء /٨٥٠/ لوحة رسمها فان غوغ طوال حياته الفنية القصيرة نسبيا (انتحر بطلقة من مسدس في السابعة والثلاثين من عمره) . ومعظم هذه اللوحات يرتفع الى مرتبة الاعجاز . وفيما يلي نورد قائمة باهمها واهم ما طبع منها في التقويم والمفكرتين الوارد ذكرها في عنوان المقال :

اسم اللوحة	تاريخ رسمها	مكان وجودها
ـ سطوح في لاهاي (لوحة مائية)	١٨٨٢	ملكية خاصة
ـ صورة Sorrow (بالقلم)	١٨٨٢	ملكية خاصة
ـ رأس ميت مع لفافة تبغ	ـ	امستردام
ـ الاب تانغي Tanguy	ـ	باريس
ـ ازهار غرنوقية	ـ	لاشيم بهولندا
ـ راس امراة	١٨٨٦	بال بسويسرا
ـ سهل الكرو Crau	١٨٨٨	امستردام
ـ النزهة	١٨٨٨	لينينغراد
ـ ازهار السوسن	١٨٨٨	ملكية خاصة
ـ قاعة الرقص في آرل Arles	١٨٨٨	باريس
ـ الارليزيه L'Arlésienne	١٨٨٨	باريس
ـ شجيرتان خلف حاجز	١٨٨٨	امستردام
ـ الشاب ذو القبعة	١٨٨٨	ملكية خاصة
ـ الدالية الحمراء	ـ	موسكو

— حقل سنابل وغربان	—	امستردام
— اشجار وجذور بيضاء	—	امستردام
— لوحة نصفية لطبيبة الدكتور غاشيه	—	ملكية خاصة
— لوحة الفنان واذنه المقطوعة	١٨٨٩	شيكاغو
— هدهادة Rerceuse	١٨٨٩	بال
— اشجار صفصاف	١٨٨٩	ميونيخ
— طاحونة الشوفان	١٨٨٩	اوتيرلو
— حقل زيتون	١٨٨٩	اوتيرلو
— حقل سنابل مع سرو	١٨٨٩	امستردام

والجدير بالذكر ان فان غوغ كان رسام الفلاحين والحائكين والفقراء والبسطاء ، ولنا في لوحته (قروية تلملم السنابل ، ظهر وجانب ، ١٨٨٥ في اوتيرلو) مثال على لوحات عديدة رسمها في هذا المجال . وقد قال بصدد لوحته (آكلو البطاطا ، ١٨٨٥ ، نسختان اصليتان احداهما في امستردام والاخرى في اوتيرلو) : **« اردت ان اعبر بدقة عن الفكرة المتعلقة بهؤلاء الناس وهم ياكلون البطاطا في الطبق بايديهم ، في ضوء المصباح الشاحب ، هذه الفكرة التي تذكرنا بانهم حرثوا الارض وزرعوها . ان لوحتي تمجد العمل اليدوي ، والغذاء الشريف الذي حصلوا عليه بكدهم وعرق جبينهم »** .

ولا بد من الاشارة اخيرا الى ان فان غوغ تاثر في بعض اعماله بالفنان روبنس وبالانطباعيين الفرنسيين القدماء منهم والجدد ، كما تاثر بالتصوير الياباني الذي راى فيه ميدانا من ميادين حرية التعبير وتجاوز المالوف .

علوم

●● ١ — ولادة الإله . التوراة والمؤرخ .
٢ — بلاد الرافدين ، العقل والآلهة .
٣ — حين كان الآلهة يصنعون الانسان .
ثلاثية عن حضارة بلاد الرافدين بقلم جان بوتيرو Jean Bottero ، منشورات غاليمار ، باريس .

اذا كان هناك بلاد وشعب يتوجب على كل كاتب في العالم ان يزجي اليهما التحية ، فهما بكل تاكيد بلاد الرافدين او بلاد ما بين النهرين Mésépotamie

والشعب السومري الذي اخترع فيها الكتابة منذ ما يُقرب من خمسة آلاف عام . فهذه البلاد الواقعة ما بين دجلة والفرات ، والمكونة من صحراء وصلصال وقصب ، والمنبسطة في منظرها العاري ومناخها الحار ، قد شهدت ولادة وتفتح قسم كبير من الصور والمعارف والمفاهيم التي ما تزال تفرض وجودها علينا . هنا في الحقيقة ولدنا ، بعيداً عن هضاب روما وجزر بحر ايجه ، هنا في بلاد سومر وأكاد حيث مـا فتىء علماء الآثار منـذ القرن الماضي ينبشون الرمال ويستخرجون منها الوفاً من الالواح أو الرقم ذات الكتابة المسمارية . وبوساطة هذه الالواح يواصل المؤرخون تقدمهم كل يوم في معرفة هذه الحضارة ، وذلك بفضل باحثين كجان بوتيرو الذي يشغل منذ عام ١٩٥٨ كرسي علم الآثار الآشوري في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا بباريس ، واستطاع ان يترجم عدداً كبيراً من النصوص المسمارية ويفك رموزها .

يقدم لنا جان بوتيرو في كتبه الثلاثة المذكورة اعلاه نتيجة اعماله خلال سنوات طويلة ، كما يفتح لنا ابواب عالم عجيب كانت معرفته حتى اليوم مقتصرة على الاختصاصيين في علم الآثار . وهذه هي اللغة الاكادية تطل علينا وترن في مسامعنا من جديد بعد ان اختفت خمسة آلاف عام ، وذلك بوساطة نصوص ترجمت مجـدداً ، وتظهر فيها الوجوه غير المنتظرة للآلهة الاوائل ولطفولة اساطيرنا الاولى .

كتب هذه المقدمة الكاتب الفرنسي المعروف جاك كارير J. Carrière وهو نفسه الذي أجرى الحوار التالي مع العالم جان بوتيرو :

● قبل ان نتطرق الى صميم الموضوع ، هل لك ان تعرفنا بمكان اعمالك الثلاثة وزمانها ؟

ــ المكان والزمان هما الشرق الادنى المتوسطي منذ بداية الخليقة وحتى ظهور التوراة أو بالاحرى حتى حلول عصرنا الحاضر . حين كنت شاباً شغفت بتاريخ الديانات وخصوصاً التاريخ التوراتي ، حتى جاء يوم قلت فيه لنفسي : « ولكن ماذا يوجد خلف التوراة ؟

لكي نفهم ثقافتنا ، يجب الا نعود الى روما وحسب بل الى اليونان ايضاً ، ولكن الى اين تجب العودة لفهم الثقافة التوراتية ؟ » وعلمت بأنهم اكتشفوا كثيراً من الالواح بالكتابة المسمارية ، وانهم فكوا رموز عدد منها . وهكذا اردت ان اقوم بجولة في بلاد الرافدين على ان اعود مرة اخرى الى

التوراة . وتوجب علي ان اتعلم هذه اللغات الصعبة ، فانهمكت في تعلم الاولى وهي الاكادية ، من دون ان اتعمق كثيرا في الثانية وهي السومرية ، وهي سابقة لها ، وذلك لأني حين بدأت عملي كان العلماء ما زالوا يترددون كثيرا حول ارساء قواعد اللغتين ، وخصوصا منهما السومرية الادبية . وعلى هذا اتقنت الاكادية التي يهمني امرها . ولكن ماذا يعني ان يتعلم المرء اللغة الاكادية ؟ لقد تم حتى اليوم اكتشاف ما يقرب من نصف مليون من الالواح المسمارية ، ويعتبر خمس هذا العدد ذا طابع ادبي ، اما الباقي فيحوي نصوصا اقتصادية وحسابات وقوائم جرد . وقلت لنفسي ان هناك كثيرا من الثروات غير المكتشفة وكثيرا من العمل ، ولذلك بقيت في العالم الاكادي.

● ما استهواني بشكل خاص في كتبك الثلاثة ، ولاسيما في كتابيك الاخيرين ، هو انك تعود بمصادر ثقافتنا الى ابعد مما نعتقد . ويدرك المرء وهو يقرؤك ان كثيرا من الافكار والصور والمفاهيم التي كان يعتقد انها منحدرة من بلاد الاغريق قد ولدت بالاحرى في بلاد الرافدين . اضف الى ذلك انك في كتابك الثاني (بلاد الرافدين) تعدد بصورة دقيقة جدا المكتسبات التي نحن مدينون بها الى هذه الحضارة : الكتابة ، وصناعة المعادن ، والمعارف العقلانية الاولى .

ـ نعم . ما نحن به مدينون اولا الى بلاد الرافدين هو الكتابة . حتى ولو كانت كتابتنا قد تبسطت كثيرا بالمقارنة مع كتابتهم ، فنحن مع ذلك مدينون بها اليهم . لقد كانوا اول من ارسى قواعد كتابة ظلت قابلة للحياة ، واول من اوحى بظهور كتابات اخرى لكتابتي مصر والهند ، ولربما الصين ذاتها ايضا ، كما كانوا اول من خلق منهجا قابلا للبقاء ومن شأنه تحديد الفكر ، وهذا لعمري شيء هائل خصوصا اذا ما عرفنا بانهم لم يلقوا بالا الى الفرق ما بين الكتابي والشفهي . فالسومريون منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد هم الذين اخترعوا الكتابة بأنفسهم . وهم الذين علمونا ان نبين افكارنا لنحددها ونذيعها ونستطيع تحليلها . فما من تفكير ، وما من تقدم علمي بمكنهما ان يوجدا من دون الكتابة . في الحضارة الشفهية توجد تقاليد وملاحظات وتصنيفات ، انما لا وجود لفكر علمي منعكس . وعلى هذا فان السومريين هم اجدادنا او اسلافنا المباشرون في مادة الكتابة ، وهم بداية ما سيصبح عليه فيما بعد العلم والفلسفة بمعناها الشامل الكبير

لدى الاغريق . وهكذا يمكن القول ان شعوب بلاد الرافدين هي في أساس فكرنا العقلاني .

● قبل ان نطرق ما يبدو انه يهمك في المقام الاول ، واعني بذلك الديانة والميثولوجيا ، لنحددما ابدعته هذه الشعوب في مجال الفكر العلمي والعقلاني. فعلى سبيل المثال جرى الاعتقاد طويلا ان الهندسة ، في شكليها العلمي والنظري ، اقبلت الينا من الاغريق بوساطة المصريين . ألم يسبق العلم الرافدي في الواقع علم مصر ؟

ــ بما انني لست عالما في الآثار المصرية ، فانا لا استطيع ان اجيبك بشكل مباشر ، وبما انني عالم رديء بالرياضيات ، فان هذا المجال غير مالوف لدي . لنقل اننا نصادف في بلاد الرافدين عددا من المسائل الهندسية والجبرية . اضف الى ذلك ان علماء تلك البلاد كانوا اعلم بالجبر منهم بالهندسة . في عهد حمو رابي ، اي نحو العام ١٧٥٠ قبل الميلاد ، عثر في العراق على نصوص رياضية ، اكد لي زملاء رياضيون ومختصون بالآشوريات انها تطرح وتحل معادلات من الدرجة الثانية . ومن جهة أخرى تصادف مسائل مسح الأراضي والمقاييس في المدن والحقول . وعلى اية حال فان هذه المسائل لم تعالج بشكل نظري بل عولجت كل مسألة منها على حدة . وتكرر المسالة ذاتها عشر مرات مع معطيات مختلفة دون اللجوء الى مبدأ مجرد . ونلاحظ المفهوم ذاته في مجالات مختلفة اخرى كالقضاء والطب . فليس هناك طب نظري بل مجموعات من الوصفات العملية المختلفة « لشفاء العين المريضة » ، او « لعلاج هذا المرض او ذاك ... » وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة لممارسة علم او تعليمه : دراسة حال المريض ، وظروفه المعيشية وحالته النفسية .

● والصفر ، من اخترعه ؟

ــ أعتقد ان هذه الشعوب هي التي اخترعته في نهاية الالف الاول قبل الميلاد. ولم يخترعوا الرياضيات كما هي، بل أستعملوا نظاما عشريا ــ ستينيا مركبا (كانوا يتدرجون من الواحد الى العشرة الى المئة ثم الى الالف ... ولكن مضروبة بواحد . فالواحد مضروبا بـ ٦ يساوي ٦ ، والستة مضروبة بعشرة تساوي ٦٠ ، و الستون مضروبة بـ ٦ تساوي ٣٦٠ الخ ... وكما ترى فنحن مدينون لهم بقسمة الدائرة الى ٣٦٠ درجة وقسمة الساعة الى ٦٠ دقيقة).

ووضعوا موضع التنفيذ تعدادا لا مقداريا كتعدادنا ، يعطي الارقام قيمة مختلفة بحسب المرتبة التي يشغلها كل رقم (فالواحد يمكن ان يشير الى الوحدة ، والى العشرة ، والى المئة ...) الامر الذي كان يتيح لهم ويسهل عليهم جميع الحسابات التي تبدو مستحيلة او رديئة الاستعمال بتعداد الارقام الرومانية مثلا .

● يبدو انهم اخترعوا ايضا اول شريعة او اول مدونة قانونية ؟

ـ تقصد بخاصة ما اطلقوا عليه شريعة حمورابي ، هذا الملك البابلي الذي حكم في القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، وهو مؤلف هذه المدونة الشهيرة . والواقع ان المقصود ليس شريعة بل مجموعة من القرارات القضائية التي لم يكن القاضي يعود اليها مطلقا ، بل كانت تظهر معنى العدالة لدى الملك الذي استطاع ان يجد الحلول اللازمة للحالات المذكورة فيها . وقد نظمت هذه القرارات ، وامكنت قراءتها وتطبيقها للحصول على تطبيق معنى الحق والعدالة . وهي مكتوبة ومنشورة لتمجيد حكمة الملك .

هنا ايضا لا نجد مبدا تجريديا . فالحق في الواقع ليس مكتوبا ، بل يتعلمه الناس من ممارسة الحياة وحسب . وحتى الطفل يتعلم بسرعة ما يجب وما لا يجب عليه عمله ليعيش في المجتمع : الا يسرق ، الا يقتل الا يكذب الخ ... وهكذا لا تكتسب رؤية واضحة للحق بل غريزة قضائية .

● وماذا فيما يتعلق باللغة ؟ نعلم ان اللغة الفرنسية تحوي كثيرا من الكلمات الاغريقية في العديد من المجالات : الفلسفة ، العلوم ، الطب ... فهل توجد لدينا كلمات وصلت الينا من بلاد الرافدين ؟

ـ نعم ، اذكر على سبيل المثال كلمة « مسكين Mesquin » ، فهي كلمة اكادية ، وهي احدى اقدم الكلمات التي اعرفها ما دامت قد وردت في نصوص منتصف الالف الثالث قبل الميلاد .

● كيف تلفظ هذه الكلمة بالاكادية ؟

ـ « مشكينو Mouchkenou » . وهي تعني « من يخضع لاحدهم » . انه احد الرعايا الخاضعين لسيدهم ومليكهم . وقد وصلت الينا الكلمة بعد مرورها باللغة العربية .

● لنتحدث الان عن مجالك المفضل : الميثولوجيا او علم الاساطير . فكتابك الاخير (عندما كان الالهة يصنعون الانسان) يحمل عنوانا صغيرا هو (ميثولوجيا

بلاد الرافدين) . وبين جميع الاساطير التي تذكرها والتي ترجمتها بنفسك ، تبدو لي الاساطير المتعلقة بخلق الانسان شديدة الايحاء خصوصا اذا قارناهـا بحكايات (سفر التكوين) التوراتي ، اذ نلاحظ فيها شيئين هامين : اللجوء الى الصلصال لتكوين الجسم البشري ، ثم ــ وخصوصا ــ صنع مثال مسبق من هذا الصلصال .

ــ نعم . ما قادني الى هذا المبدا في صنع المثال المسبـق ، في النصوص المذكورة ، هو ان الانسـان الاول الذي يخرج من يدي الاله « المبدع » **انكي/ايا Enki/Ea** (الاسم الاول سومري والثاني اكادي) ، هو انسـان يحمل اسـما خاصا . انه لا يحمل اسم **انسان Awilou** بل اسم **لولو Loullou** . وهكـذا تكون مضطرين الى اجراء تمييز بين الانسان الاول « اللولو » وبين مـن اتـى بعده ، مادام الاول قد ابدعه او خلقه بشكل كامل **الاله انكي** ، ومادام الالهة . وقد سروا من نتيجة هذا الخلق ، لم يعملوا فيما بعد الا في صنع او « انتاج » اناس بالجملة . ولنشر هنا الى ان هذا اللولو ، او هذا النموذج البشري ، كان بلا عضو تناسلي . وفيما بعد ، وحين قرر الالهة صنع الناس بالجملة ، صنعت لهم **الالهة مامي Mammi** هذا العضو من اربع عشـرة عجينة صغـيرة مـن الصلصال ، سبع منها للذكر وسبع للانثى . وهكذا سارت الحـال في صنـع المخلوقات والاشياء ايضا ، اذ كان دائما يصنع من كل منها نموذج يجب ان ينال رضى الالهة ليصار الى تكراره فيما بعد .

اما استعمال الصلصال فكان لابد منه في بلاد يشـكل الطمي او الغريـن فيها مادة البناء الاولى . ونتساءل ماذا يوجد في بلاد الرافدين ؟ والجواب طمي وصلصال وقصب وحمر . ولا شيء آخر . فلا معادن ولا حجارة ولا حتى خشب لندرة الاشجار الموجودة هناك . . . اضف الى ذلك ان العظام المدفونة في تلـك البلاد غالبا ما تأخذ لون الغضار او الصلصال (وهذا ما لمسته مرارا) وتتحول في النهاية الى تراب او غبار . صلصال وغبار ، تراب وغبار ، كل هذا يعنـي الشيء ذاته . ونقول نحن الغربيين عن الجسد « **انه يعود الى التراب** » ، امـا سكان بلاد الرافدين فكانوا يقولون عن موت الجسد « **انه يعود الى الصلصال** ».

● ولكن الصلصال وحده لا يكفي ليكتسب الانسان الحياة . يجـب ان يضاف اليه دم إلـه .

ــ صحيح . كان الاله انكي الهاً في منتهى الحذق وكان ذا ذكاء خـارق . كيف عمل لخلق الانسان ؟ لنختصر المسـألة : حدثت ازمة في عالم الالهة لانهم كانوا

بحاجة الى جميع الخيرات المادية التي لا يمكن الحصول عليها الا بالعمل . فاذن يجب على الالهة ان يعملوا . وكان سكان بلاد الرافدين قد توزعوا فيما بينهم مشكلات المجتمع الارضي حيث كانت توجد فئتان من الناس : الحاكمون الذين هم مستهلكون ولا يعملون اطلاقا ، والجمهور الكبير الذي يعمل من اجلهم . وكان الامر كذلك لدى مجتمع الالهة ، فهناك **الالهة الحكام اي ما يطلق عليهم بالاكادية اسم الانوناكو Announakou والآلهة الذين عليهم ان يعملوا ويطلق اسم الايجيغو Igigou** وذات يوم مل الايجيغو اعمال الحراثة والحفر والري ورفع السدود لحساب الانوناكو . فتمردوا اي اضربوا عن العمل . ويعتبر هذا الاضراب اول اضراب في التاريخ وان تكن الكلمة لم ترد في النص انما هذا هو المقصود . وهكذا احرق الايجيغو ادوات عملهم ، وتجمعوا حول المعبد الذي يقطنه **انليل Enlil ، كبير الالهة** ، ليطالبوا بامتيازات الانوناكو ذاتها .

وكان يجب العثور على وسيلة لسد هذا النقص ، وهنا انبرى انكي فاقترح **على الالهة ان يخترعوا** آلة تحل **محل الايجيغو** . وهذه الآلة هي كائن ذو ارادة وذكاء وفعالية ، يحظى بشيء قليل من صفات الالهة لكي لا يلجأ ذات يوم بدوره الى المطالبة بامتيازات الانوناكو ذاتها . ويجب ان تكون فيه شيء قابل للموت يمنعه من ان يتشوق الى خلود الالهة ، وهذا الشيء هو الصلصال الذي سيعود على الدوام ، وان عاجلا او آجلا ، الى طبيعته كصلصال .

● **تفسر هذه الاسطورة في الواقع لماذا يوجد وجه شبه بين الانسان والالهة ذلك انهم اضافوا الى الصلصال دم إله ضحي به من اجل هذه المناسبة .**

ـ صحيح . فالانسان هو نوع من انواع ما تحت الالهة ، وهبت له الالهة ما يمكنه من القيام ببرنامجه ، اي وهبت له مجموعة من الصفات والقدرات نستطيع ان نسميها الفكر ، ومن هذا الفكر ينبع كل من المبادرة والثبات والاختراع وعلى هذا ان يتيح للانسان ان يعمل مكان الالهة الذين لم يعد لهم عمل سوى الغداء .

● **ما يدهشنا هو اننا نعثر على الفكرة التي تقول ان الانسان لم يخلق الا لخدمة الالهة . فوظيفته انما تحددها طبيعة ولادته .**

ـ في الايديولوجيا التوراتية ايضا خلق الانسان ليطيع الاله ويخدمه . على ان اله التوراة لا يحتاج الى الخدمات ذاتها التي يحتاج اليها آلهة بابل . فهؤلاء كانوا يحتاجون يوميا الى الاكل والشرب . وهناك طقس يفسر ، مثلا ،

كيف ان الاله ان AN في معبده باوروك ، يجب ان يحصل على اربع وجبات طعام يوميا ، اثنتان منهما صغيرتان واثنتان كبيرتان . وكانوا يضحون بمئات الحيوانات لهؤلاء الالهة اما اله التوراة فهو لا يرغب من الانسان الا في شيء واحد هو ان يطيعه لا بطقوس وخدمات مادية ، بل باتباع ارادته التي هي اخلاقية وذلك باتباع الشريعة الاخلاقية التي سنها له . وهذا فارق كبير جدا ، وهو نزوع نحو نوع من انواع الروحانية التي تتعلق بما فوق الطبيعي .

● هناك فارق آخر مهم جدا هو التصعيد مع الاله التوراتي . في (ولادة الاله) كتبت انه بوجود التوراة لم يعد هناك عالم واحد يتقاسمه الالهة والبشر ــ كما هي الحال في بلاد الرافدين ــ ، بل اصبح هناك عالمان مختلفان منفصلان هما عالم الخالق وعالم المخلوقات .

ــ انا ارى ان ذلك واضح واساسي . وهنا نلمس الفجوة الهائلة التي تفصل الفكر الرافدي عن فكر مؤلفي التوراة . فهذا الفكر التوراتي هو الوحيد والاول الذي يفسر تحويل وجود العالم بعلة واحدة وتعميم هذه العلة السامية خارج نطاقه . وعلى العكس من الالهة الرافدين لا يحتاج اله التوراة الى البشر ليؤمن وجوده الخاص . وهذا تحديد هائل في داخل العالم السامي .

● تقول ايضا ، بصدد الخلق ، انه بداية عند الرافدين ، بينما هو في التوراة استمرار ايضا . فالاله يبقى على الدوام حاضرا في خلقه .

ــ هذا صحيح ، ولكن يجب مع ذلك تحديد هذا المظهر وايضاحه . في بلاد الرافدين كما لدى العبرانيين لا يخلق الالهة العالم فقط بل يحكمونه . اي انهم بمعنى آخر يستمرون في خلقه . وهذا من الصحة بحيث ان الالوهية كلها تستند الى ذلك . انها تستند الى واقع اشياء وظواهر تبدو مميزة ، غير متوقعة ، واستثنائية: خروف بخمسة اقدام مثلا ، كسوف الشمس ، حصان يريد ان يسافد ثورا مثل هذه الاحداث لا يمكن اسنادها الى الصدفة : انها تأتي من عند الالهة الذين بوساطتها يريدون تحذير البشر من شيء ما ــ شيء خطير او مأساوي على العموم ــ وبمعنى اخر تسليمهم رسالة تمس مستقبلهم ، وعليهم ان يفكوا رموزها . وهذا يدل على ان الالهة مستمرون في التدخل بشؤون العالم وانهم يراقبوننا .

● لنتحدث الان عن النصوص ذاتها . في هذه النصوص الاسطورية التي ترجمتها، نجد في كل هنيهة صورا مميزة وغالبا ماتكون آسرة . الا نشهد مع

هذه النصوص ، التي يعود تاريخ بعضها الى نهاية الالف الثالث ، ولادة ادب يتسم بالصفاء والبساطة ؟

ــ تطرح عليّ سؤالا لمعرفة ما اذا كان مؤلفوا هذه النصوص قد حاولوا ان يعبروا فيها عن ذواتهم كشعراء وفنانين ، هذا بالاضافة الى مهماتهم « التعليمية » و « الفكرية » و « الفلسفية » . حسن . اجيبك بنعم ، لقد عبروا فيها عن ذواتهم . في الحالة التي وصلت بها الينا هذه الاساطير ، يعود تاريخ اقدمها على الارجح الى نهاية الالف الثالث . قبل ذلك لا يوجد شيء ، او بالاحرى لا نملك عن الحقبة السابقة شيئا . ولكننا نشعر بان لهذه النصوص اساليب مختلفة ومتميزة . فلكل مؤلف اسلوبه الخاص ، وهذا الاسلوب الخاص هو ما حاولت ترجمته . لا اقول انني نجحت على الدوام . فثمة اكوام من دقائق المعاني تفوتنا . لكن شغلي الشاغل انما انصب على اظهار الفوارق بين المؤلفين والاساليب .

● **لدى قراءة النصوص التي تحدثت عنها ، بما فيها النصوص الاسطورية يشعر المرء بانه يدخل في قلب المجتمع الرافدي بكل ما فيه من محللات ومحرمات يتكون لديه ، مثلا ، انطباع بان هذا المجتمع كان اكثر تسامحا من التوراة فيما يتعلق بالحب والجنس .**

ــ نعم ، كانت العلاقات بين الجنسين تتسم بكثير من الحرية . ولم تكن فكرة الخطيئة لدى الرافديين موجودة . فهذه الفكرة ليست رافدية المنشأ .

● **هل هذا يعني ان العلاقات الجنسية كانت في منتهى الحرية ؟**

ــ بالطبع لا . كانت حرة فقط فيما لا يسيء الى المجتمع او الافراد في تعايشهم وسلوكهم العام .

● **وكيف كان يمارس هذا الحب « الحر » في الحياة اليومية ؟**

ــ تمكن ممارسته بشكل خاص مع مخلوقات متخصصة ، مع بنات هوى . ولم يكن هذا البغاء المنظم يحط من قدر اصحابه والعاملين فيه ، بل كان يشكل مؤسسة تحظى بكل الاجلال والاحترام . ولا ننس ما ورد في التقاليد الاسطورية من ان بنت هوى ــ ولنسمها جارية جميلة ومثقفة ــ هي التي دربت انكيدو Enkidou ، الانسان المتوحش ، ورجل الصحراء ، على الحياة المدينية والحضارة . قصة رائعة هذه القصة ! فالحب شيء مدني ، ومكتسب حضاري وبنت الهوى هي التي تأخذ بيد انكيدو وتقوم بتعليمه !

وبعبارة اخرى كان الرضى والقبول هما الشرطان الاساسيان للحب ، على ان لا يحدث اضطراب ، ولا فوضى ، ولا عنف ، ولا اغتصاب تمس المجتمع أو الافراد . وكان عقاب من يقترف اي عمل منها شديداً . اما لدى الاشوريين فكان الخصاء عقوبة كل من يرتكب جريمة جنسية كالاغتصاب مثلا .

● اذن على وجه الاجمال كان الحب شيئا مقدسا او لنقل ممجدا . كان برهانا من براهين الحضارة ؟

ـ تماما . وهناك في الواقع كثير من الكلمات بالسومرية او الاكادية للتعبير عن الحب ، ويشار الى ممارسة الحب ، مثلا ، بكلمات ناعمة لا تخدش الأذن كـ « جعل الحبيبة تتكلم » ، أو « جعلها تضحك » وسواها .

● قلت ان الرافدين كانوا يجهلون الخطيئة ، فهل كانوا يجهلون الشرايضا

ـ قضية الشر قضية مقلقة ومعقدة حين لا يوجد سوى اله واحد مطلق وعادل . ولكن ما ان يوجد عدة آلهة فان هذه القضية تصبح اقل قسوة وتعقيداً من الواضح ان الشر في بلاد الرافدين موجود ، ولكنه ليس شرا ذا معنى اخلاقي بل ذا معنى تألمي . كنت سعيدا ، وكانت صحتي جيدة ثم مرضت فجاة ، وهجرتني زوجتي ، وفقدت ثروتي . كيف نفسر ذلك كله ؟ ولماذا ؟

لا تاتي هذه المصائب لدى الرافدين من عند الآلهة ، وذلك لان الآلهة لا مصلحة لهم في ازعاج البشر الذين يهيئون لهم كل ما اليه يحتاجون : فالبشر هم خدم الآلهة ومن مصلحة هؤلاء ان يدفعوا عنهم الشرور والمصائب . لذلك تخيل الرافديون ان سبب الشرور والالام انما هم كائنات نصف تكوينها الهي والنصف الاخر بشري ، ويقصدون بها الجن أو العفاريت . ولكن كما في الفكرة السامية ـ والاكاديون ساميون ـ لا شيء يمكن أن يحدث على الارض بلا ارادة الهية ، فالآلهة تستدمل الجن او العفاريت لمعاقبة البشر على اخطائهم . انهم شرطيون لملاحقة الناس ومعاقبتهم ... وعلى وجه الاجمال فان مشكلة الشر لدى الرافدين موجودة ، الا انها اقل حدة مما هي عليه في التوراة .

هوامش :

١ ـ الويزيوس برتران : شاعر فرنسي (١٨٠٧ ـ ١٨٤١) . له (غاسبار الليل) في مجموعة قصائد نثرية ذات وحي ابتداعي . يعتبر المبدع الاول لقصيدة النثر في الادب الفرنسي . نسج شارل بودلير على منواله في كتابة قصيدة النثر في مجموعته (سام باريس) .

٢ ـ سيمون بوليفار : جنرال ورجل دولة امريكي لاتيني . ولد في كاراكاس عاصمة فنزويلا (١٧٨٢ ـ ١٨٣٠) . حرر من السيطرة الاسبانية كلا من فنزويلا وغرناطة الجديدة ، وجمعهما مع الاكوادور في جمهورية اطلق عليها اسم (كولومبيا الكبرى) . حاول ان يضم دول امريكا اللاتينية في اتحاد كونفدرالي . اتهم بالنزوع الى الديكتاتورية فانسحب من الحكم .

✶ ✶ ✶

عن وزارة الثقافة صدر حديثاً

وضمن سلسلة روايات عالمية

دراموس

روايات عالمية (٣١)

تاليف
كامرالاي

ترجمة
ريم يوسف زحكا

• • •

تحت أنظار غربية

روايات عالمية (٢٥)

تاليف
جوزيف كونراد

ترجمة
توفيق الأسدي

التحكم في جنس الجنين
بين الطب والشرع

عبد الرحمن الحلبي

نـــدوة الشهـــر

اعلان عن سلسلة النهضة

ندوة الشهر

التحكم في جنس الجنين
بين
الطب والشرع

المشاركون :

د. محمد سعيد رمضان البوطي — شرع

د. ابراهيم حقي — طب

د. محمد وحيد رجب بك — طب

وآخرون ..

إدارة الندوة

عبد الرحمن الحلبي

عبد الرحمن الحلبي :

بين يدي خبران . يقول الاول منهما : اعلن الطبيب (ريهاش ايزوكا) استاذ امراض النساء بجامعة (كيو) اليابانية انه قد توصل مع مجموعة من الباحثين الى وسيلة جديدة يختار فيهما الآباء جنس المولود .

ونقلت الوكالات عن ايزوكا قوله : ان هذه الوسيلة الجديدة يمكن عن طريقها تجنب الامراض الوراثية . وأكد ايزوكا نجاح هذه الوسيلة بنسبة ٥ ٪ في انجاب الاناث ، بينما انخفضت نسبتها بقدر ضئيل في مجال الذكور .

اما الخبر الثاني فيقول : خرجت الى الحياة اول طفلة في ايطاليا ، وربما في اوروبا ، يحدد جنسها قبل الولادة .

لقد نجح اطباء في فصل الصبغيات الانثوية والذكرية خلال اجرائهم تجارب على انجاب طفل انابيب . اسم الطفلة التي حدد جنسها مسبقا (تيريزا فيرو) .

خبران علميان يستدعيان النظر . لكن الوقوف عندهما دون تفاصيل حيثيات كافية لن يكون علميا بالقدر الذي يسمح لنا بروايتهما باسناد صحيح . رغم انهما لم يأتيا من فراغ بل كانا حصيلة جهد طويل في الزمن وتصميم اكيد على تطوير الفرضية الى نظرية

سوى ان المسألة لم تتوقف عند هذين الخبرين على اهميتهما ، بل تعدتهما الى تصنيف كتب شتى في مسألة « التحكم » في جنس الجنين او انتخاب الجنس المرغوب . ولقد بالغ بعض هذه الكتب في عدد نسخه لدرجة جعلتني اتساءل لو ان ابن سينا او الرازي او الجاحظ العظيم كان بيننا الآن وأراد ان ينشر اهم بحوثه او كتبه هل كان يجرؤ على طبع نصف العدد الذي لواحد من هذه الكتب « العلمية » المعاصرة ؟

ظاهرة تلفت النظر حقا ، وتبعث على التساؤل كذلك :

ترى ما سر الاقبال على هذه الكتب ، وما سر الترويج لها . هل الاهتمام فعلي بهذا العلم ، ام لحاجة ماسة الى تحقيق حاجة الابوين الى ذكور او الى اناث .

لست ميالا الى التفرد برأي في هذه الظاهرة ، لانني اخمن ان ندوتنا هذه ستعطيهما ما تستحق من البحث بصورة جماعية .

مما لا ريب فيه أن مسألة التحكم في جنس الجنين قديمة في اطار البحث العلمي كما تروي المصادر. وهي قديمة كامنية في تطلعات الشعوب ، وقديمة في التاريخ ، وربما الى وقت ما قبله . وسيكون بوسعنا التعرف على بعض الطرائق التي طبقت في التاريخ لهذه الغاية عبر هذه الندوة .

زملاء البحث اساتذة في اختصاصاتهم . فالدكتور ابراهيم حقي طبيب في أمراض النساء وجراحتها ، وقد عمل استاذا في كلية الطب بجامعة دمشق ثم رئيس قسم فيها على مدى عشرين سنة ثم عميدا لها . وله من المصنفات العلمية ما يسمح لنا بالركون اليه .

اما الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي فان كتبه وبحوثه الكثيرة في حقول الفقه والتربيــة والاجتمــاع ، وحضـــوره في الجامعــات السورية كافة وبعض جامعات الوطن العربي لتغنينا ، عن التعريف به .

الدكتور محمد وحيد رجب بك ، المختص بالامراض الباطنة ، وبقيــة الزملاء سيكونون محاورين مساعدين .

ارحب بكم جميعا وارجو ان تسمحوا لي بأن افتتح معكم هــذه الندوة بهذا السؤال :

كيف نفهم مصطلح « التحكم » في جنس الجنين ؟

د. ابراهيم حقي :

موضوع تعيين الجنس قديم جدا ، الغاية منه حصول الزوجين علــى مولود انثى او ذكر . ونجد في الكتابات او المخطوطات القديمة ، قدم التاريخ، ذكرا لهذا الامر . ونجد ــ منذ قدماء المصريين وزمن ارسطو ــ ذكر بعض الطرائق التي يمكن بواسطتها الحصول على الذكر أو الانثى .

وهو مع قدمه لم يكن بالامكان الوصول اليه ، بشكل علمي وتجريبي ، الا في الآونة الاخيرة . وما الخبران اللذان ذكرهما الاستاذ الحلبي الا حصيلة عمل قرون .

كانت الرغبة في الحصول على الذكر ، منذ القدم ، شديدة الالحاح ، لأن الذكور هم عضد العائلة . يدافعون عن القبيلــة ، ويساعدون الوالــد في عمله . بينما الانثى قد لا تقوم بمثل هذه الاعمال . ثم ان بعض الاسر تحب الحصول على الذكر ، ليس بصفته عضدا لها فحسب ، وانما بسبب عدم وجوده بين أفرادها . فالاسرة المؤلفة من عدة أولاد اناث ترغب في الحصول على الذكر . والعكس ايضا صحيح . وهــذا هو جماع البحث في تعيــين الجنس المرغوب .

د. محمد سعيد رمضان البوطي :

احمد للاستاذ الحلبي ان جعل المدخل الى هذا البحث دراسة مصطلح التحكم في جنس الجنين . فالوقوف عند هذا المصطلح بالدراسة والتمحيص يحل جزءا كبيرا من المشكلات التي قد تنجم وتتفرع فيما بعد . واصل المشكلة في كثير من البحوث التي تطرح ان الباحثين لا يحررون — في كثير من الاحيان — محل البحث .

كلمة « التحكم » تعني في اللغة : سَوْق الامر في طريق يحقق قسرا الهدف المنشود . فاذا استطعنا ان نسوق امرا ما في الطريق المطلوب بحيث يحقق الهدف المنشود تحقيقايقينيا فذلك يسمى التحكم .

فاذا كنا نقصد بالتحكم هذا المعنى ، واذا كان البحث المطروح يدور حول هذا الهدف ، فاعتقد انه لا العلم ولا الواقع ، ومن ثم فلا الدين يمكن ان يؤيد هذا اللفظ بهذا المعنى . وكلمة التحكم هذه اطلقت — على الغالب ، بل لعله هو الشيء الذي اجزم به ، لا من قبل علماء باحثين يزينون كلماتهم بميزان الدقة ، وانما استعملتها الصحافة ، واستعملها اناس من شأنهم ان يضخموا المعاني .

يخرج المعنى من حقله العلمي ، ومساحته لا تزيد على مساحة ٥ سم٢ واذا بالكلمات الصحفية والنفخ الاعلامي يحيل هذا المعنى ويضخمه الى ان يصبح اتساعه مترا مربعا . فكلمة التحكم هذه لعلها اطلقت من اجل لفت النظر ، ومن اجل تنبيه الناس الى امر ما كانوا يتوقعونه . ومع ذلك فمن الخير ان نطرح هذه المسألة بكلا معنييها المحتملين : لنفرض ان هناك من يتصور اننا وصلنا الى العصر الذي يمكن فيه للطبيب ومن ثم للابوين ان يتحكموا جميعا بنوع الجنين الوافد الى هذه الحياة ، وان يصل الابوان بموجب استشارة الطبيب وتنفيذ مشورته الى هدفهما وصولا يقينيا قاطعا — حسب المعنى اللغوي لكلمة تحكم — فما موقفنا من مطلب كهذا المطلب ومن حلم كهذا الحلم ؟ ، وما موقفنا ممن يقول : ان هذا الحلم قد اصبح حقيقة؟.

كذلك لا مانع من ان نبحث في هذه المسألة من الزاوية الاخرى التي لا ازال اتصور ان الاطباء — على اختلاف نحلهم ومللهم وبقاعهم — قد طرحوا المسألة ضمن هذه الحدود ، وهي : فكرة المحاولة المتطورة سعيا من اجل تحقيق هدف الابوين . بقطع النظر عن الجزم والحكم بأن هذا الهدف قد

اصبح ثمرة يانعة دنت الى الايدي ، ومن الممكن قطفها بكل سهولـة . او ان المسألة لاتزال ضمن التجربة والمحاولة .

المعنيان مطروحان في تصوري ، ولا مانـع من ان نتسـاءل عن مدى معقولية الطرح الاول والطرح الثاني . ولكن ينبغي ان نتبين المعنى اللغوي ، ومن ثم المعنى العلمي لكلمة « تحكم » .

التحكم ، اذن ، ان يكون الانسـان مهيمنا على الامر ، قادرا على ضبطه مطمئنا الى النهاية التي سيصل اليها . وفي ظل هذا المعنى تبحث المسالة .

الحلبي :

طرح الاستاذ حقي مقولة نعت فيها الخبرين اللذين اوردتهما بانهما حصيلة قرون . ولكنها غدت الآن نفخا اعلاميا ـ حسب الاستاذ البوطي ـ وهي التي لما تزل في البحث .

نتفق مع الاستاذ البوطي من حيث المعنى اللغوي لكلمة تحكم ، ولكن العلم يقول بامكانية تحديد الجنس المرغوب بزمن الاباضة والتجارب تقول بامكانية معرفة زمن الاباضة بدقة تامة ، كما يقول د. عبد اللطيف ياسـين في ص ٩٦ من كتابه « صبي ام بنت » وهو المختص بالتوليد وامراض النسـاء وجراحتها . وهذا يعني ان التحكم سيكون ممكنا ، بل قائما .

د. حقي :

لاشك ان العلماء استطاعوا ان يعرفوا زمن الاباضة بشـكل دقيق ، ويعينوها تماما . ولكن لا علاقة لهذا بموضوع التحكم ، لان الحمل لا يحدث من البيضة فقط ، وانما يحدث من اجتماع عنصرين احدهما مذكر والثاني مؤنث ، هما : النطفة والبيضة . فلو علمنا ـ وهذا امر واقع ولكنه صعب جدا ـ ان هناك طرائق كثيرة ، ولكنها ليسـت سهلة وتطبيقها ليس سهلا كما يتصور بعضهم ،طرائق يمكن للمراة نفسها ان تعرفهاوذلكباخذ الحرارةالصباحية بشكل مسـتمر طيلة الشهر ، ولاخذ الحرارة بهذا الشـكل شروط قاسية : يجب ان تكون حرارة بالوقت نفسه وبالميزان نفسـه ، وقبل قيام المراة باي عمل ، والا تكون مصابة باي مرض يمكن ان يرفع حرارتها ، حتى ولو كان رشحا بسـيطا او اسـهالا ، وان تسجل هذه الحرارة بدقة .

الدورة الطمثية تمر ـ عادة ـ بمرحلتين : المرحلة الاولى ، هي مرحلة التهيئة ، والمرحلة الثانية ، هي مرحلة البيض ومابعده . فحرارة الجسم

التي تسمى الحرارة الاساسية تكون تحت ٥٣٧ قبل زمن البيض وترتفع في زمن البيض الى ٥٣٧ درجة فما فوق ، وتستمر على ذلك حتى قبل يوم الطمث القادم .

فهذه الطريقة ، على بساطتها ، ليست بالامر الذي يسهل على كل الناس تعيينه ، حتى لدى المثقفات من النساء . فما بالنا لو اردنا تعميم هذه القاعدة ؟

الامر الثاني ، او الطريقة الثانية ، هي طريقة تحليلية وهي اخذمايسمى باللطاخات المهبلية . تفحص تحت المجهر . فمن المعلوم ان غشاء المهبل المخاطي تتغير طبقاته المتوسفة بحسب الطمث . بحسب الهرمونات التي تفرزها المرأة ومبيض المرأة يفرز في القسم الاول ، او في النصف الاول من الدورة الطمثية ، الهرمونات المسماة « الاستروجينات » . ثم ينضج جريب يكون على سطح المبيض وينشقق فتخرج منه البيضة . وهذا الجريب يفرز هرمونا جديدا يسمى « البيزيسترون » او « اللينئين » .

هذان الهرمونان يقمان تحت هرمونات أخرى تفرزها النخامة . وهذان الهرمونان ايضا يؤثران في غشاء المهبل المخاطي ، حيث تتوسف طبقاته المختلفة . فاذا ما اخذت وفحصت امكن معرفة زمن البيض . وهذا امر يتطلب ايضا اخذ لطاخات مهبلية بصورة يومية او على الاقل كل يومين مرة . وقد تختصر هذه الطريقة الى اخذ لطاختين فقط . احداهما قبل الزمن المفروض للبيض والثانية بعد الزمن المفروض وتقارنان بغية ملاحظة الاختلاف بينهما .

فالأمر في كل الاحوال ليس باليسير البتة . ولكن هناك امرا اكثر تعقيدا وهو تنظير احشاء البطن بواسطة منظار يدخل جوف المرأة في اوقات مختلفة ايضا . وهذي هي الطريقة المتبعة للحصول على البيضة في التلقيح الصناعي لانجاب اطفال الانابيب .

فتحديد زمن البيض امر ممكن علميا ولكنه صعب عمليا ، ولا يلجأ اليه الا في حالات نادرة . كحالات العقم ، وحالات الاسقاطات المكررة .

ثم إن كل كائن حي ، والانسان منه ، مؤلف من خلية واحدة في البدء ، هي البيضة الملقحة ، التي هي بدورها مؤلفة من اجتماع خليتين احداهما النطفة والثانية البيضة . كل خلايا الجسم تتكاثر بشكل مستمر ، وتكاثرها يكون بالانقسام والخلية مؤلفة بشكل مبسط من ثلاثة اقسام رئيسة : القسم الاول هو الغشاء الخلوي الذي يحيط بجسم الخلية . والقسم الثاني هو الهيولى ، والقسم الثالث هو النواة .

ضمن النواة ما يسمى بالعرى الصبغية ، وهي عبارة عن مجموعة من العرى عددهـا ثابت في كـل جنس . في الانسـان ـ مثلا ـ ٢٣ زوجـاً منهـا اي ست واربعون عروة ؛ مصفوفة على صفين كاصبعي السبابة والوسطى .

الازواج الـ ٢٢ الاولى متشابهة من حيث وظيفتها وتسمى العرى الجسمية. والزوجان الاخيران مختلفان في الانثى عنه في الذكر وفيهما عنصران متشابهان يرمز الى كل منهما بحرف X . فيكون لدى الانثى ٢ X اي X X اما الذكر فتحوي العروة الجنسية عنده على X وعلى عروة اخرى تسمى y . ومن هنا يكون الفرق بين الذكر والانثى هو X X بالنسبة لها و X y بالنسبة له ؛ ولا شيء غير ذلك . وكل الفروق اللاحقة تنجم عن هذين الحرفين البسيطين .

إن كل خلية تتكاثر ، وحين تكاثرها يعود عدد العرى فيها الى الخليتين الجديدتين بالعـدد نفسه ، اي ٤٦ عروة عـدا الخلية الجنسية ، التي هي البيضة والنطفة .

النطفة تكون في الخصية بشكل نطفة ابتدائية ، وتحوي العرى كاملة ؛ تنقسم ، وخلافاً لانقسام كل الخلايا ، لا تحوي الخلايا الناجمة عنها ، اي النطفة النهائية X y وانما تحوي بعضها X وبعضها y ، بمعنى ان فيها نصف عدد العرى .

والبيضة كذلك تكون بيضة ابتدائية ، تتكاثر مرة اخرى . تطرح قسماً من محتواها ، وتصبح اخيراً حاوية على نصف عدد العرى الصبغية .

فالنطفة إذن تحوي خيطاً واحداً فقط ، ـ طالما في الاساس خيطان بعضهما X وبعضهما y . ـ فمعنى ذلك ان بعض النطف النهائية ستكون حاوية علـى X فقط وبعضها سيكون حاوياً على y . فقط . في حين أن البيضة تحوي دائماً ـ وهي نصف ـ على X . ومنها إذا اجتمعت بيضة مع نطفة تحوي X ـ والبيضة دائماً X ـ يكون محصول الحمل انثى اي X X بينما إذا كانت النطفة التي لقحت البيضة تحتوي على y . كان محصول الحمل ذكراً اي X y . وهـذا يدحض كل المقولات التي تسبب المشكلات العائلية، وهي مشكلة تحديد الجنس هل هو من الرجل ام من المراة. والصحيح ان النطفة التي تلقح البيضة إما أن تكون X وعندئذ يكون محصول الحمل انثى . وإما ان تكون y وعندئذ يكون المحصول ذكراً .

وعلى كل حال لقد جعل الله عدد المواليد الذكور ، في كل العصور وفي كل الامم مساوياً تقريباً لعدد الاناث ، مع زيادة طفيفة في الذكور . والاحصاءات العالمية تدل على نسبة المواليد الذكور في كل دول العالم بـ ١٠٣ / ١٠٦ ذكراً الى ١٠٠ انثى . ولهذه الزيادة الطفيفة مبرراتها .

الحلبي :

قلنا إن تجارب التحكم تستمر منذ قرون ، ووصلنا الى نتيجة جعلتنا نقوى ــ ولو بمشقة ــ على فصل البيضة ، ونهتدي الى الصبغيين X y . وهذا يعني انها ــ رغم صعوبتها ــ انحنت للعلم وغدت ممكنة وهي التي كانت ، قبل حين من الدهر ، مستحيلة . وربما وجدنا ، بعد حين من الدهر ولو على سبيل الافتراض إن انتخاب الجنس انحنى للعلم كذلك ولهذا اجدني اتساءل : كيف ننظر الى فرضية التحكم في انتخاب الجنس المرغوب من الوجهة الاجتماعية او الشرعية ؟.

د. البوطي :

انا لا ازال احب ان نحتفظ بمضمون كلمة التحكم ، او بالمعنيين اللذين يمكن ان نورد كلا منهما بهذه الكلمة . فالاستاذ عبد الرحمن يقول : لنفرض ان الطب استطاع على التحكم ، وانا اقول ــ معتمداً على الكلام العلمي الدقيق الذي قاله د. حقي ــ : لنفرض ان كل هذه الصعوبات في تحديد وقت الاخصاب ذابت وزالت ، ولنفرض ان كل الصعوبات الأخرى التي تتعلق بمقومات جنس الجنين ذكراً او انثى وتحقيق هذه المقومات ذابت وزالت . وان الناس استطاعوا ان يمتلكوا الوسيلة لتحقيق هذه الاسباب كلها . علمياً اسأل : هل يمكن ان نقول : إن الابوين يصلان الى مرحلة يحق لهما ، علمياً ، ان يجزما بأنهما على موعد مع مولود ذكر او انثى ؟.

انا اطرح المسألة ، قبل كل شيء ، علمياً . واحب هنا ان اقول كلمة بين قوسين ، لاصحح بها مفهوماً دارجاً عند كثير من الناس . عندما يطرحون مسألة يطرحونها في كثير من الاحيان على مستويين . يطرحونها اولا على المستوى العلمي ؛ ثم يقولون تعالوا فلنتبصّر بها على المستوى الديني : هذا هو موقف العلم فما هو موقف الدين ؟.

إن معالجة الامر على هذا النحو معالجة خاطئة . وهذا التصوّر ناشيء عن فكرة هي ان كلاً من العلم والدين يسيران على خطين متوازيين منفصلين . فهذا طريق العلم وذلك طريق الدين . بينما الامر ليس كذلك .

الدين ــ انا اعني الاسلام هنا ــ في احكامه ومعتقداته ثمرة لحقائق العلم ، والانسان يسير على درب العلم دائماً ، وليس إلا تلك النتائج التي تقدمها الحقائق العلمية ، والاسلام يقول بكلمة وجيزة : حيثما رايت امامك طريقين ، احدهما طريق العلم والثاني طريق يتنكب عنه ، فدع الطريق المتنكب عن العلم ، وليكن أيا كان اسم هذا الطريق ، وخذ بطريق العلم . كيف والآية القرآنية تقول ، وكلنا يقراها : « ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا » .

ثم إننا عرفنا مما درسناه في قضايا العلم ان العلم عبارة عن حقيقة ينطبع بها الذهن انعكاساً لواقع مشاهد ، لواقع قائم ، لا انعكاساً لأمر غيبي سيقع بعد ! العلم دائماً عبارة عن غطاء لواقع . هذا يسمى علماً وضعته في ذهني ، اما ما لم يقع بعد فهو لا يمكن ــ في شكل من الأشكال ــ ان يسمى علماً ، لسبب بسيط ، وهو ان هذا القانون الذي درسته ووعيته وفهمته ، وآمنت به يغطي الماضي ، بل لا يغطي إلا الماضي ، اما المستقبل فاحتمال الشذوذ قائم ، حتى فيما يتعلق بمؤشر الذكورة والانوثة ، ولئن كنت مخطئاً فلسوف يصحح الاستاذ د. ابراهيم حقي خطاي .

رفض الاطباء لمؤشرات الذكورة فيما يتعلق بـ X Y او مؤشرات الانوثة فيما يتعلق بـ X X رصيد تجارب ماضية . ونحن نستطيع ان نسمي التجارب الماضية علماً ما دامت في مخزن الماضي . اما تنبؤاتنا عن المستقبل فما دام احتمال الشذوذ وارد ــ وهو وارد فعلاً ــ فالمسألة تنزل عن مستوى الحقيقة العلمية المجزوم بها . ومن ثم فلا يمكن ان تسمى هذه الظاهرة تحكما .

نحن في هذه المسالة نمارس حقنا . الشارع اعطانا هذا الحق ، لكن كما نمارس حقنا في التنبؤ في الطقس . كما نمارس حقنا في البحث عن علاج مما لنتخلص به من مرض ما . كما نمارس حقنا في دراسة أرض لكي نعلم هل فيها ماء ، وعلى بعد كم من الأمتار . فلو لم نكن نتنبأ ونبحث لما تعاملنا مع الحياة ابداً ، لكن لا بد من النظر الى دقة العلم ، فالذي سبق يسمى كله يقيناً تدريبيا ولا يسمى يقيناً علميا .

الطبيب عندما ينظر الى انسان وقد اخذ كمية كبيرة من الحبوب الضارة يمكن ان يجزم بأن هذا الانسان ، بعد ساعة معينة ، او بعد ميقات محدد سيموت ، لكن هذا الجزم يسمى يقيناً تدريبياً ، ولا يسمى يقينا علميا ، أي أن يقينه نشأ من تجاربه السابقة الكثيرة . ولكن إذا وضعنا هذا اليقين في ميزان العلم فإن هذا اليقين سينخدش ؛ بدليل أننا إذا قلنا لهذا الطبيب : يا دكتور

ما مدى احتمال وقوع شذوذ مع هذا الانسان ؟ فلسوف يجيبنا ـ إن كان موضوعياً ودقيقاً في بحثه ـ قائلاً : « هذا الامر عائد الى المعجزات الإلهية ، عائد الى شيء نحن لا نصنعه في ميزان علمنا » .

فإذا كانت هذه الاحتمالات واردة وواقعة ، وهي واقعة طبعاً ، لأن هناك مقنناً لهذا القانون ، وصاحب هذا القانون لا يزال يملك ان يغير ويبدل فيه ، وإن لم يكن قد غيّر منه تغييراً جذرياً ، فلا نستطيع ان نسمي « التحكم » تحكماً . حتى وإن ذللنا هذه الصعاب التي اشار إليها د. حقي .

الحلبـي :

لقد وضعني د. البوطي بين قوسين . انا قلت إن هناك اكثر من مصدر ، وأشرت الى ان هناك وكالات انباء في الدنيا تنقل اخباراً تقول إن نسبة نجاح هذا التحكم بلغ حتى الآن ٥ ٪ للاناث ، وافترضت ـ فرضاً ـ اننا وصلنا بصورة فعلية ، مع الأطباء ، الى هذه النسبة ، وتساءلت كيف يكون موقفنا منها اجتماعياً وشرعياً ، وإذا بالاستاذ البوطي . . .

د. البوطي :

انا معك . الأطباء وصلوا الى نتائج ايجابية ، انت تفرض ان هذه النتائج الايجابية ٥ ٪ انا افرض انها ٦٠ ٪ . ومع ذلك انت بدات بداية رائعة : « ما معنى التحكم » . وقد بينا في الإجابة ما معناه . وعلينا الا ننسى ان معنى ان الطبيب استطاع ان يتحكم في جنس الجنين ، يعني انه استطاع ان يجزم سلفاً ان هذه المرأة لن تنجب الا ذكرا ، يقينا ، كما يتيقن بالشيء الذي يراه . ولكي نعلم ان المسألة غدت حقيقة علمية ينبغي ان نعتمد فيها على الاستقراء التام . وهو ان نجري هذه التجربة على كل الاناث وفي كل الظروف والمناخات المختلفة، ثم نجد ان قانوننا يظل نافذاً . عندئذ نقول : إن الاستقراء التام قد وجد ، ومن ثم فإن الثمرة تصبح حقيقة علمية ، لكن الاستقراء التام ما وجد يا أخـي الاستـاذ .

اما ان يمارس طبيب معين عدة ممارسات ، ويجري عدة تجارب تشجعه على المضي ، وتشجعه على مواصلة البحث ، هذه التجارب الجزئية اين هي من قولنا « استقراء تام » . ومع ذلك فافرض ان الاستقراء التام وجد فمما لا شك فيه ان الامر الواقع غير الأمر المتوقع .

انا احفظ كلمة لدافيد هيوم ، يقول : لو انني عمدت الى مليون ورقة لاحرقها ، واحرقتها جميعاً ــ هذا استقراء تام ــ الرصيد لهذا الواقع انني عرفت ان هذه الاوراق قابلة للاحتراق ، ولقد احترقت فعلاً .

ولكي امتلك يقيناً علمياً بالنسبة لورقة اخرى ، بالاضافة الى الاوراق التي احرقتها ينبغي أن اضعها هي الأخرى في النار . اما قبل ان أمارس هـذه التجربة مرة ثانية مع هذه الورقة ، فانني املك يقيناً تدريبياً لا يقيناً علمياً . وبهذا المعنى كان الامام الغزالي قد فرق بين اليقينين ورأى أننا نمارس الحياة في اليقين التدريبي ، ويثق بعضنا في بعض ، لكنه ليس يقيناً علمياً لأن العلماء يقولون : هنالك احتمال ان يقع شذوذ إمّا في الورقة فلا تحترق او في النار فلا تحرق .

ثم لنفترض أن الاستقراء التام وقع ، وهو لم يقع ، فذلك لا يعطينا قانوناً نقول : إننا تحكمنا .

الطيبي :

سأوافق على الافتراض ــ على مضض طبعاً ــ وسأروي حادثة حدثت علمياً ، وهي غزو الفضاء ، فحين غزي القمر وصعد الانســان إليه ، ذهب الباحثون لدينا ، والمفسرون ، يتقولون هنا وهنالك بغية العثور على آية في القرآن تقول : إن الصعود الى القمر مسألة عادية سهلة ، أعني بعد أن وقعت مسألة الصعود والهبوط على سطح القمر واخذ عينة من تربته ، اخذنا نتخبط في التأويل حتى انتهينا ، بعد لأي ، الى انها ليست جديدة على الفكر الاسلامي ، فهي موجودة فيه بدليل النص .

لقد اردت من الاستاذ البوطي ، في الواقع ، اننا افترضنا أن هذه المسألة وقعت ، او انها في سبيلها الى الحدوث ، لان الإعلام سواء كان منتفخاً او ضامراً يتناقلها باهتمام ، أقول : اردت الأستاذ البوطي أن يجيب عن : ما هو الموقف الشرعي من هـذه المسألة ، قطعاً لما يمكن أن يحدث مــن تخبط في تفسيرها مستقبلاً . مع الاحترام والتقدير والاعجاب والقناعة بما تفضل به من تحليل .

د. البوطي :

إذا كان السؤال : ما موقف الاسلام من أن يبحث الطبيب ، بل يغامر في سبيل ان يحقق للمراة رغبتها في إنجاب ذكر او انثى فلا مانع . ليمارس الطبيب كل ما يستطيع ، وليبذل كل ما يملك ، لكن هذه الممارسة شيء ويقينه بانني أتحكم . وبانني يقنياً أصل الى مرادي شيء آخر .

د. حقي :

سأل د. البوطي سؤالا : هل يستطيع الطب ان يجزم بالحصول على الجنس المطلوب . والطب يجيب : ليس هناك جزم في اي مسألة علمية منذ القديم وحتى قيام الساعة . ولكن هناك دائما تطلعات .

لو افترضنا ان انسانا توفي قبل مائتي عام او قبل مائة وخمسين عاما ثم بمعجزة نهض اليوم ورأى ما نراه الآن ، ماذا يقول ؟؟؟!

هناك دائما تطلعات للانسان منذ القدم ، عباس بن فرناس تطلع الى الطيران ، وهزأ كل الناس برأيه . ولكن الاجيال التالية استطاعت ان تطير .

منذ اكثر من مائة عام وضع بعض العلماء افتراض الوصول الى القمر وذكروا عن الجاذبية وعن انعدام الوزن ، وعن وعن .. وكانت هذه تأملات وافتراضات . ولكن الانسان وصل الى القمر اخيرا .

الانسان الآن ، بآلة صغيرة لا تتعدى الاصبعين ، يستطيع ان يحسب وان يستعيد حسابات طويلة عريضة لا تسعها مئات المجلدات «الكومبيوتر الصغير» .

العلم ، اذن ، يبدأ بفكرة ثم تتطور هذه الفكرة وتصبح حقيقة واقعة . ولكن مجال الخطأ فيها واضح ، ومجال النكس دائما فيها واضح . مثلا قمرة ، الفضاء التي احترقت . هل تعني ذلك ان الانسان لم يستطع تحقيق قمرة ، ولم يستطع الوصول الى القمر ؟ كلا . ولكن هناك دائما شيء من الشذوذ . حتى المخلوقات التي يخلقها الله فيها شيء من الشذوذ ، الكمبيوتر على دقته يعطي احيانا اجوبة خاطئة ولكن هذا لايعني نفي امكانية وجود آلة تحسب او تقوم بهذه الاعمال . وعلى ذلك يمكننا القول الان بأن الطب توصل ليس الى التحكم وانما الى ـ لكي نكون دقيقين وهذا امر مطلوب دائما لدى العلماء ـ تحقيق الجنس المرغوب فيه . ولكن النسبة لاتزال ضئيلة جدا . ربما في المستقبل القريب ربما ، لان العلم يسير بتسارع لا يمكن ان يتصوره البشر ، وطالما ان المبدأ قد عرف ، فالتحقيق اصبح سهلا ، ومن الممكن بعد بضع سنوات ، او حتى بضعة اشهر ربما نسمع خبر ان هذه النسبة التي كانت ٥٪ اصبحت خمسين أو ستين او سبعين بالمائة . ولكن ليس معنى هذا اننا نستطيع ان نجزم بأننا لو سلكنا الطريق الفلاني لانخطىء فيه ابدا ، لان الطرق التي توصل اليها هي عزل النطف المذكرة عن النطف المؤنثة . فهذا العزل يمكن ان يكون ، ولكن قد يخطىء لسبب ما .

الطبي :

نحن لم نطلب من الاستاذ حقي ان يجزم . لكن المسألة في الامكان ، بل ممكنة .

د. حقي :

اصبحت ممكنة .

د. البوطي :

احتمال الخطأ يفقدها معنى التحكم .

د. حقي :

اذا كان الموضوع نفسيا فنحن متفقون .. (ضحك) .

صوت ابراهيم :

الاستاذ د. حقي يقول : ممكن التحكم ، والاستاذ د. البوطي ينفي التحكم الكامل والذي يظهر لي شيئان . الاول : ان علم الغيب استأثر الله به ـ كما قال د. البوطي ـ ولكن في آية في سورة الجن تقول :

«عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول» . والرسول انسان يحمل الصفة الانسانية . فممكن اذا اراد الله لطبيب او طبيبة او انسان حسن التحكم ان يطلعه على امر من الامور الغيبية فيتحكم . هذه ناحية . الناحية الثانية : من الاستقراء والمطالعات راينا انه اذا علا لقاح الرجل على لقاح المراة تحمل ذكرا . فهل هناك طريقة نستطيع بموجبها ان نعلم هذا العلم ـ ليس عن يقين ـ انا اقبل ان نعرفه بنسبة ٦٠٪ او ٥٠٪ ؟

د. حقي :

الذي افهمه من كلمة « علا » هو السبق ، والسبق اذا اردنا تفسيره بالناحية العلمية فهو سبق النطف التي تحوي الـ X او الـ Y فمن يسبق يكون الفائز مذكرا كان او مؤنثا .

ابراهيم :

علا من العلو لا من السبق .

د. البوطي :

ان الحديث الذي يذكره الاستاذ ابراهيم اعرفه ، وهو في البخاري وهو ان النبي (ص) كان يتحدث عن اول ما يطعمه الانسان في الجنة ، سئل :لماذا

يأتي الطفل في بعض الاحيان ذكرا وفي بعض الاحيان انثى ؟ فالرسول عليه الصلاة والسلام اجاب بكلمة « سَبَق » ان سبق ماء الرجل كان ذكراً ، او ماء المرأة كان انثى .

ولاشك ، فيإعتقادي ، كما قال د. حقي . فنحن نعلم فيما درسناه وهذا ليس من اختصاص امثالي ان نطفة الرجل أسرع حركة وان الاخصاب يتم في البوق . ومن الوسائل التي يحاول ان يحققها الاطباء ان تسرع نطفة الرجل الى حيث يتم الاخصاب . فهذا الامر هو الذي يفسر كلام رسول الله (ص) . ولهذا فان قضية « علا » هي بمعنى السبق .

الحلبي :

جواب الاستاذ البوطي ، المتقن هذا ، يغريني بسؤال مستخلص من الآية الكريمة التي تقول : « يَهَبُ لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور » لماذا جاءت « إناثاً » بالتنكير وجاء « الذكور » بالتعريف ؟

د. البوطي :

هذا سؤال محرج . لولا انها آية ، آية قرآنية وان الانسان ينبغي ان يحجز نفسه عن الاجتهاد لا امكن ان اقول شيئاً في الجواب عن هذا . لكن المسألة تتعلق بكلام الله عز وجل .

كل مايمكن ان اقول ان الله سبحانه وتعالى عبر بالبيان الالهي عن الاناث بالتنكير وعبر عن الذكور بالتعريف لبيان الاختلاف بينهما لان الشيء اذا كرر مرة معرفة ومرة نكرة كان ذلك دليلا على التغاير بينهما . فلعل الاشارة في هذا ان الله سبحانه وتعالى ان شاء وهب لمن يشاء من الناس إناثاً ، التنكير دليل على التقليل ، ويهب لمن يشاء الذكور ، التعريف ينبىء عن « ال » العهدية ، فكان في هذا دليلا على ان الناس يتوقعون الذكر اكثر من ان يتوقعوا الانثى . فعندما انبأهم بانه سيهبهم الذكر ، اي سيهبهم ما يحلمون به ، فتوج كلمة ذكر بـ « ال » العهدية ، اي يهبهم الذكور الذين يحلمون بهم .

ولما كان اكثر الناس لا يحلمون بالانثى كما يحلمون بالذكر ، لم تكن هنالك حاجة الى ان تتوج كلمة « إناث » بـ « العهدية » .

اقول هذا اجتهاداً . ولعل هذا الذي قاله كثير من العلماء . لا اعلم .

الحلبي :

والهبة الواردة في هذه الآية « يهب .،. ويهب ... » هل مقررة سلفا من حيث الجنس ؟

د. البوطي :

هذه الهبة مقررة سلفا ويقينا ، لان الهبات الالهية ، أو ما يخلقــه الله سبحانه وتعالى ، او ما يودعه إيجاداً او تكييفاً ، كل ذلك تنفيــذ لمخططات قديمة . اي لقرار قديم قدم الله سبحانه وتعالى .

فلا شك ان هذه الهبة كتنفيذ ، عبارة عن ثمرة لقضاء قديم قضى به الله (س) ، اي تنفيذ لخطة ارادها الله (س) في غيبة قديماً .

الحلبي :

هل لمسالة التحكم هذه ، التي افترضنا انها ربما حدثت باعتبار انهــا ممكنة ، قيمة علاجية ، كأن تقي الانسان من الامراض الوراثية مثلا ؟

د. حقي :

قبل الغاية العلاجية ربما كان لها غاية اخرى ، وهي ان الطب او العلم بشكل عام غايته اسعاد البشرية ، ولو كان هذا غير واقع دائما .

والعلم قد يسعد وقد يدمر . فالذي حطم الذرة امكن ان يسعد البشرية بجزء وان يتعسها بجزء آخر . والذي اخترع الديناميت وصل الى الشيء نفسه .

اذا استطاع الطبيب التحكم بالجنس فانه يسعد بعض العائلات ، او بعض الاسر التي ترغب في ان يكون لها ذكر او انثى وليس لها في اولادها مثل هــذا الجنس .

اما موضوع الامراض فهذا مما لاشك فيه . فمن المعلوم ان كثيرا مــن الامراض ، وتعد بالمئات ، تنتقل ارثيا بواسطة الصبغيات التي اشرت اليها من قبل . والذي ينقل الارث هو : الصبغيات الجسمية والصبغيات الجنسية. تنقل كل صفات الانسان الجسمية ، الخلقية ، والاخلاقية والطباع والعادات وكــل شيء .

هذا الصبغي الصغير الذي لاينكشف الا بالمجهر فيه ايضا اجزاء اصغر منه . كل جزء منها يحمل صفة تنتقل بالارث الى الاولاد والاحفاد ، ومــن المعلوم ان العلماء استطاعوا معرفة اشكال هذه الصبغيات . وهي ليســت واحدة وانما تصنف على اصناف . وكل زوج من الازواج له شكل معين وطول معين وله اذرع و .. الخ .

فالصبغي الاول — مثلا — ينقل لون العينين ، والثاني ينقل الطــول ، والثالث كذا .. والرابع .. الخ . كل الصفات التي يتصورها الانسان .

اذا كان في صبغي ما عيب ، يمكن ان ينتقل هـذا العيب الـى الاولاد والاحفاد . ولاسيما اذا كان هذا العيب موجودا في الزوجين .

يقال ان كل انسـان يحوي مالا يقل عن ستة عيوب . فاذا اجتمعت هـذه العيوب مع عيوب الزوج القريب ـ في حالة زواج الاقارب ـ ينتقل هذا العيب الى الاولاد .

بعض الامراض يمكن ان تنتقل بالذكور فقط . بعضها ينتقل بالاناث فقط لان العروة X او العروة y هي التي تحملها . فاذا استطعنا ان نتخلص من الجنس الذي يحمل هذا العيب : فمعنى ذلك اننا حصلنا على مولود سليم وانتهينا من هذا العيب الى عدة احفاد في المستقبل .

الحلبي :

تدخل في باب العلاج قضية اخرى تستوجب النظر هي قضية الاب الاصيل الذي هو الزوج ، والزوج العقيم تحديداً ، والاب البديل الذي هو صاحب النطف المنقولة منه الى رحم امراة قد لا يعرفها . هل تدخل هذه القضية في الزنى ، ام هي شكل من اشكال الاستبضاع الذي كان مشروعاً لدى بعض عرب من قبل الاسلام ؟ ام هي ضرورة علاجية وضرورة اجتماعية من حيث انها تمنح المراة حقها المشروع في أن تكون اماً . ثم ما موقفنا من المولود ابن النطف المستعارة . هل سيكون ابنا شرعياً للاب الاصيل ، ام ابناً شرعياً للاب البديل ؟

د. حقي :

هناك حالات يكون فيها ضعف في النطف ، هذا بشكل عام وليس في حالة العقم فقط ، يكون عدد النطف غير كاف لالقاح بيضة . باعتبار ان عدد النطف يجب ان يكون ٦٠ مليون في السم٣ او ٦٠ الفا في المم٣ . فاذا كان اقل من هذا بكثير فلا يحدث الانجاب ـ في الاغلب ـ هذا بغض النظر عن الحالات الاستثنائية وفي حالة وجود ضعف يمكن اخذ النطف وتلقيحها وتكثيفها وحقنها برحم المراة ، الزوجة ، وعندئذ يمكن أن يحدث حمل . وهذا لا غبار عليه من الناحية العلمية ، وعلاجيا امر مقبول ، ويمكن ان ينجح بنسبة معينة وفي اطار شروط معينة : ان تكون الادوات من الفضة وان يكون الحقن بمقدار معين وان يكون بظرف معين . اما نقل النطف من رجل بديل فلا اقره لاعتبارات كثيرة لست بصددها الآن .

د. البوطي :

أحب ان اقف عند الكلمة التي استعملها الاستاذ الحلبي : كلمة « زنى » أو زاني أو نحو ذلك . هذه الكلمة كبيرة في الحقيقة ، أن اردنا بهذه الكلمة النتائج المترتبة عليها في الدنيا حداً وفي الآخرة اثماً فقطعاً لا . حتى لو قلنا ان هذا العمل محرم .وهومحرم طبعا ، ان ينتقل ماء غير الزوج الى الزوجة لكن هذا العمل المحرم لا يدخل تحت معنى الزنى بابعاده الكاملة . ومن نتائج هذا العمل المحرم ان الولد يلحق الأم ولا يلحق صاحب الماء ابدا فلا تكون نسبه لا الى صاحب الماء ولا الى الزوج . فالحكم واضح : حرام الأمر . لكن كان السؤال يقول ايضاً : لماذا ؟

الاستاذ عبد الرحمن يقول : اليس من حق هذه المرأة المهيأة للانجاب ان تنجب ؟. نعم من حقها أن تنجب شرعاً ، ولكن ضمن ظروف لا تفوت حقوق الآخرين . في اطار هذه الظروف وضمن هذا المناخ تمارس حقها . اما اذا ارادت ان تمارس حقها بشكل يفوت حقوق الآخرين فلا .

مثلا : هذا الطفل سيعلم غداً قصة نشأته ، وانه لا ينتمي الى ابيه ، وانما هو مستبضع ـ وان صح التعبير ـ هذا الانسان ، هذا الطفل لا يمكن ان ينشأ نشأة سوية فيما يتعلق بنفسيته كانسان ومن اجل هـذا فان الشـارع (جل جلاله) يقول للمرأة في مثل هذه الحالة : ليس لها الحق في أن تمارس خارج دائرة الشرع سبيلا يحقق لها طفلا كان من الممكن ذلك لو أن زوجها شاركها في هذه القابلية . ومن الممكن ذلك لو انها طلقت من زوجهـا هذا وتزوجت من انسان آخر . ولأن تسوى القضية بهذه الطريقـة ايسر فعالا واضمن عاقبة من ان تسوى بالطريقة الأخرى .

احمد الحاج ابراهيم :

استعمل الاستاذ الحلبي في سؤاله مسطرة طولها ٢٠ سم ، دعونا نجعل هذه المسطرة اطول قليلا فنقول : انه ـ في بعض الحالات ـ امكن زرع خصية للرجل . وقد ذكر في الصين عن هكذا انباء . والمعروف ان الخصية هي مصنع ماء الرجل . فالسؤال نفسه الذي تفضل به الاستاذ الحلبي يمكن ان يثار الاب ظاهريا هو الاب الحقيقي ، ولكن وراثيا ستكون النطف هي نطف الاب البديل . فما حكم الشرع في هذا ؟.

د. البوطي :

الفتوى في حق موضوع زرع الاعضاء قائم على قواعد فقهية ، وليس على فتاوى قديمة ، لان هذا الامر ما كان موجودا من قبل ، لكن عندنا قواعد فقهية اساسية ، تخرج عليها هذه المسائل . **فزرع الاعضاء من حيث الاصل جائـز ، وهنا نقطة المرجع فيها الطب .**

انا افهم ان زرع الخصية لا يعني اكثر من زرع عضو يهيىء لصاحبـه الاخصاب . فاذا صح تصوري هذا فلا مانع ، والنسبة لا تختل في اي شكل من الاشكال . فالولد لابيه ، اي لمن عولج هذه المعالجة .

اما اذا تصورنا ــ واتصور ان هذا بعيد جدا ــ أن زرع الخصية يعني نقل نطف الصاحب الاصلي لها الى هذا الانسان ، وبهذه النطفة يتم اللقـاح فالمسألة اذن لهاجواب آخر . وأحب هنا ان اسمع رأي الطب ، رأي د. حقي حفظه الله .

د. حقي :

الخصية المزروعة لم تعد خصية الرجل الاول ، لان فبركة ، او عمل النطف عمل تقوم به من المواد التي تستقيها بالاوعية الدموية ، وبحاصلات التمثل الغذائي و . . الخ . وهي متجددة دائما . فالنطف الجديدة هي نطف الرجل الذي زرعت له الخصية وليست نطف الرجل الاول .

د. محمد وحيد رجب بك :

بالنسـبة لزرع النطف لا يوجد نص شرعي واضح ، وتظل الامور كلها بين اخذ ورد ، فهل يوجد رأي قاطع حاليا على حرمة هذا الموضوع مع أن القاعدة الشرعية تقول : الاصل في الاشياء الإباحة ؟

د. البوطي :

هذا الامر لا يدخل ابدا تحت قاعدة : الاصل في الاشياء الاباحة . الاصل في الاشياء ، التي لم ينسحب عليها حكم شرعي بعد ، الاباحة . لكن هذاالامر انسحب عليه حكم شرعي نافذ تم الاجماع عليه . ابوّة الانسان لابنه انما ترتكز على نشأة هذا الابن من مائه . ومن هنا تتحقق الابوة ، ويترتب على ذلك نسبته اليه ، والإرث وحرمة المصاهرة . . . وما الى ذلك . كل هذا يترتب على المعنى الشرعي للأبوة . والمعنى الشرعي لابوة انسان ما ، لطفل ، امر ثابت منتـه لا إشكال فيه .

د. رجب بك :

في مسألة الشذوذ عن القاعدة العلمية اعتبر د. البوطي ان لكل شيء في الوجود قاعدة ، مثلا : النار بالنسبة لنا تحرق لكنها لم تحرق سيدنا ابراهيم حسب النصوص الدينية . وهذه مسألة خاصة جدا ولا قاعدة عامة لها ، اما القاعدة التي نحن بصددها الآن فتقول بامكانية الحصول على ذكر او على انثى، حسب الرغبة . فلماذا اذن نعتمد الشذوذ ولا نعتمد القاعدة ، رغم أن القاعدة، حاليا ، هي ما نتوقعه في المستقبل ؟

د. البوطي :

نحن نعتمد على القاعدة ، كما تقول وكما تحب ، ولا نعتمد على الشذوذ، ولكن لا يسعنا ان نتجاهل الشذوذ . ان نتجاهل احتمال وقوع الشذوذ .

د. رجب بـك :

الاحتمال وارد .

د. البوطي :

واذا كان الاحتمال واردا فقد سقطت معنى القدرة على التحكم ، وبقيت المحاولـــة .

الطبيـب :

أحب ان انتقل الى طريقة اخرى من طرائق « التحكم » ، لم ترد فيمـا قدمه د. حقي من عرض مقنن لها . وهي الحمية الغذائية . فلقد رأيت اهتماما زائدا بها لدرجة اليقين بنتائجها . اضرب مثلا على ذلك ما ورد في ص ١١٨من كتاب : « صبي أم بنت » الذي وصفه مؤلفه بالعلمية وطبع منه أكثر من خمس عشرة الف نسخة .

لقد اكد المؤلف ـ وهو مختص ايضا بالتوليد وامراض النساء وجراحتهاـ في كتابه هذا على شرب نوع من المياه التي تعلبه الشركة الاجنبية الفلانية ، يذكرها الكتاب ، وان تأكل المرأة ، التي تود انجاب الذكر ، اطعمة لم اسمع بها مطلقا في مطبخنا العربي كسلطة الذرة الصفراء بالشمندر والانبذة الكثيرة والمتنوعة . وان تزيد في ملح الطعام الى الحد الاقصى . اما لكي تنجب انثى فعليها ان تشرب ماء علبته شركة اخرى غير تلك ـ يذكرها الكتاب ايضا ـ وتأكل اطعمة اخرى غير تلك وان تقتصد في الملح حتى درجة الانعدام . ولكي لا تضيع الفائدة نجد المؤلف يعلم المرأة طريقة طهو هذه الاطعمة . فما مدى صحة مثل هذه الوصفات

من الوجهة العلمية ، وبخاصة فان الكتب التي تحتويها متداولة بين النـــاس وموجودة في المكتبات . ولما تزل دور النشر تطبع منها عشرات الالاف ، وستاخذها المراة وستحاول ان تطبق ما ورد فيها ، حتى ولو كلفتها زجاجة واحدة مـــن مياه هذه الشركة او تلك بقرتها او منزلها الذي تقطن ؟

د. حقي :

قبل ان اجيب عن هذا السؤال اذكر طريقة كان يتبعهـا احـد المولدين القدماء . كانت تراجعه مريضاته وتسأله السؤال الذي يطرح منذ القديم :

ماذا سيكون الحمل الذي سأضعه ، ذكر ام انثى ؟. فكان يجيب السائلة بقوله : ستضعين ذكرا . وتذهب المراة ، وتكمل اشهر الحمل ، ثم تلد واذا بها تضع انثى . تسأله : لماذا قلت ذكرا مع انها انثى ؟ فيقول : نعم ! انا قلت لها ذكرا لكي لا يزعجك النبا منذ الحمل . تعالي وانظري ماذا كتبت هنا في مفكرتي ، يكتب : انثى . فان اتت بذكر يسكت طبعا والا فانه يبرر المسالـــة وفقا لمـــا تقدم .

موضوع الغذاء مثل هذا الموضوع . نسبة النجاح فيه خمسون بالمائة على الاقل ، لانه لا يوجد لدينا جنس ثالث . اما ذكر او انثى .

فلو اننا قلنا لإمرأة كلي لبن العصفور وبيض النعام وكبد العنقاء ثم ولدت فلن تلد الا ذكرا او انثى . وسيكون لها حظ ٥٠٪ أن تضع الجنس المرغوب .

احدى المقولات التي كان يعتقد بها بعضهم ان لنوع الغذاء اثرا في تعيين جنس الجنين . وكانوا يوصون منذ القديم بهذه الوصفات ــ طبعا محورة الان في الكتب الحديثة ، ولكنها موصوفة في الكتب القديمة على اشكال اخرى ــ وكلها تنهي عن بعض الاطعمة وتحبذ بعضها . ولكن هذه النظرية مرفوضـــة بادلة واقعية كما اسلفت .

يقولون مثلا ان المراة التي تتغذى بكميات كبيرة من البروتين ستلد ذكرا والتي تكثر من المواد النشوية ستلد انثى . ونحن نعلم ان بعض الشعوب ، او بعض القبائل من اكلة اللحوم . اي انها لا تاكل الا بروتينات ومع ذلك فهـــي تنجب ذكورا واناثا . ثم ان بعض الشعوب الاخرى تعتمد النبات في معظم غذائها ومع ذلك نراها تنجب ذكورا واناثا بنفس النسبة التي ذكرناها من قبل .

فكر منذ اكتشفت الهرمونات ، في اوائل القرن العشرين ، بموضـــوع الهرمونات المذكرة والمؤنثة واعطائها للحامل . واعتقد ان اعطاء كمية كبيرة من هرمونات الذكر يؤدي الى حدوث اجنة ذكور ، والعكس .

هذا ايضا غير صحيح . لقد جربوا هذا الاعتقاد على المضغ خارج الارحام في الزجاج ، ولم يصلوا الى الجنس المرغوب . وانما وصلوا الى مضغ مشوهة .

الشيء المنطقي والمعقول هو الطريق الذي سلكه العلماء الان ، وهو الذي لم يكن بالامكان سلوكه من قبل. فقبل معرفة ال X والا (Y) لم يكن بالمستطاع التفكير بعزل هذه النطف . اما وقد عرفت فان الافكار بشكل بديهي ستتحول ، وستتجه اتجاه فصل هذين العنصرين وهذا ما حدث فعلا . وهو الذي ادى في النهاية الى النتائج التي اخبرنا بها الاستاذ الحلبي منذ بداية هذه الندوة .

د. البوطي :

لا ادري ما هو دوري في هذا الموضوع . لكني لو سئلت من قبل امرأة : هل امارس هذه الحمية الشديدة القاسية لتحقيق امل عندي ، لقلت :

دعي الامر لما قضاه الله (س) . فان هذه الحمية القاسية الشديدة قد تغذي هذا الامل عندها فعلا ، ولكنها تكون على حساب قدر كبير من راحة نفسها ومن طبيعتها .

د. حقي :

ومن ثم ، تقود زوجها .

د. البوطي :

اكيد . ثم الشيء الخطير بعد ذلك ، بعد هذا التعب والنصب والكد ، ان فوجئت بان كل هذه الوسائل لم تجد وانما جاءت بالنتيجة العكسية ، فلاشك ان مآل ذلك على نفسيتها شيء صعب جدا ، وربما كان باعثا على التمزق النفسي

انا اتصور لا في مجتمعنا ، بل حتى في المجتمع الذي تترعرع فيه هـذه الاطروحات وهذه الاقتراحات ، لا يمكن لذلك المجتمع ذاته ان ياخذ نفسه بها .

الحلبي :

أشكركم على ما تفضلتم به ، وارجو ان تكون قد اعطينا لمحة ، ولو يسيرة في مسألة علمية كبيرة ، معاصرة ومستقبلية .

* * *

قضايا وحوارات النهضة العربية

سلسلة جديدة تصدر عن وزارة الثقافة في دمشق

سلسلة جديدة باسم « قضايا وحوارات النهضة العربية » تحاول هذه السلسلة ان تقدم ما هو أساسي وذو اهمية وراهنية من نصوص وموضوعات خلال عصر النهضة العربية الذي يبتدأ منذ اوائل ا قرن التاسع عشر، وحتى عقد الخمسينات ، فقد قسمت ثقافة هذا العصر الى موضوعات اساسية تشكل خلفية عامة لموضوعات محددة اخرى ، والموضوعات الاساسية هي :

١ ــ الاصلاح والنهضة
٢ ــ القديم والجديد ــ صدر عام ١٩٨٩ .
٣ ــ الشرق والغرب

والموضوعات الاكثر تحديدا تتناول الفنون الادبية والمذاهب الاجتماعية والفكرية التي ظهرت على ارضية الموضوعات الثلاثة الاساسية مثل :

١ ــ نظرية الرواية صدر عام ١٩٩٠.
٢ ــ نظرية المسرح
٣ ــ تجديد اللغة
٤ ــ تجديد الشعر
٥ ــ الاشتراكية
٦ ــ القومية
٧ ــ قضية المرأة

ويقوم المعدون بالبحث في المجلات والمصادر الاساسية لعصر النهضة العربية ثم تقديم المقالات والفصول الاساسية مرتبة ترتيبا زمنيا وحواريا ، بمعنى تقديم وجهة النظر ونقيضها ، وكل ذلك باقلام اصحابها ، دون اجتزاء او تعليق ، الا مقدمات توضيحية لكل مجلد .

اما النصوص ، فستقدم بعض النصوص الكاملة الهامة ، لكنها منسية على الرغم من أهميتها وراهنيتها اليوم ، كما في الامس ، مثل كتاب : يوسف ابراهيم يزبك « النفط مستعبد الشعوب » ١٩٣٤ وهو من اول الكتب في اللغة العربية التي تتحدث عن اهمية النفط وكيفية سرقته ثم كتاب : عبد الفتاح ابراهيم « على طريق الهند ــ ١٩٣٥ » وهو كتاب يدرس عملية استعمار بلاد الشرق عموما ، والوطن العربي خصوصا ، ومن ثم حركات التحرر الوطني .

السلسلة تصدر تباعا بشكل غير دوري

* * *

دعوة إلى الكتاب والمثقفين العرب

- ترحب مجلة المعرفة بإسهامات الكتاب والمفكرين العرب في مجمل قنوات المعرفة الإنسانية .
- يفضل ان يتراوح حجم المقال بين ١٥٠٠ ــ ٤٠٠٠ كلمة ، وحجم البحث بين ٤٠٠٠ ــ ٨٠٠٠ كلمة .
- يراعى في الاسهامات ان تكون موثقة بالإشارات المرجعيــة وفق الترتيب التالي :

  اسم المؤلف ــ عنوان الكتــاب ــ دار النشر ــ مكان الطباعــة وتاريخها ــ رقم الصفحة .

  مع ذكر اسم المحقق في حال الكتاب محققاً ، واسم المترجم في حال الكتاب مترجماً .
- ترجو المجلة من كتابها ان يقرنوا اسهاماتهم بتعريف موجز لهم .
- ترجو المجلة ان تردها الاسهامات بخط واضح وان تكون مراجعة من قبل صاحبها في حال طبعها على الآلة الكاتبة .
- تلتزم المجلة بإعلام الكتاب عن قبول اسهاماتهم خلال شهر من تاريخ الاستلام ولا تعاد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر .
- يرجى توجيه المراسلات الى المجلة على العنوان التالي :

  الجمهورية العربية السورية ــ دمشق ــ الروضة ــ مجلة المعرفة.

عن وزارة الثقافة صدر حديثاً

وضمن سلسلة روايات عالمية

اللعبة

روايات عالمية (٢٦)

تأليف: يوري بونداريف

ترجمة: الدكتور نزار عيون السود

• • •

شرف كاترينا بلوم الضائع

او كيف ينشأ العنف

روايات عالمية (٢٧)

تأليف: هاينرش بول

ترجمة: نوال حنبلي

عن وزارة الثقافة صدر حديثاً

وضمن سلسلة دراسات اجتماعية

الاحوال الجوية في لامثال الشعبية

دراسات اجتماعية (٣)

الدكتور علي حسن موسى

* * *

البحر المتوسط ـ المجال والتاريخ

دراسات اجتماعية (٤)

تأليف
فرنان بروديل

ترجمة
يوسف شلب الشام

عن وزارة الثقافة صدر حديثاً

ضمن سلسلة قضايا وحوارات النهضة العربية

نظرية الرواية

٢

اعداد وتقديم : محمد كامل الخطيب

* * *

النفط مستعبد الشعوب

٣

يوسف ابراهيم يزبك

عن وزارة الثقافة صدر حديثاً

وضمن سلسلة دراسات نقدية عالمية

نشوء الرواية

دراسات نقدية عالمية (١٠)

تأليف
ايان واط

ترجمة
عبد الكريم محفوض

• • •

الجمالي والفني

دراسات نقدية عالمية (١١)

تأليف
غينادي بوسبيلوف

ترجمة
عدنان جاموس

من وزارة الثقافة يصدر حديثاً

وضمن سلسلة دراسات فكرية

أسطورة العودة الابدية

دراسات فكرية (٦)

تأليف
ميرسيا ايلياد

ترجمة
حسيب كاسوحة

● ● ●

وضمن سلسلة دراسات نقدية عربية

خليل مطران

الشاعر

دراسات نقدية عربية (٦)

صياح الجهيم

من وزارة الثقافة صدر حديثاً

الأندلس
من نفح الطيب

للمقري المتوفي سنة ١٠٤١هـ=١٦٣١ م

قدمت له

الدكتورة نجاح العطار
وزيرة الثقافة

اعده للنشر اختياراً وترتيباً وتعليقاً

د. عدنان درويش   محمد المصري

★ ★ ★

الأندلس في التاريخ

د. شاكر مصطفى